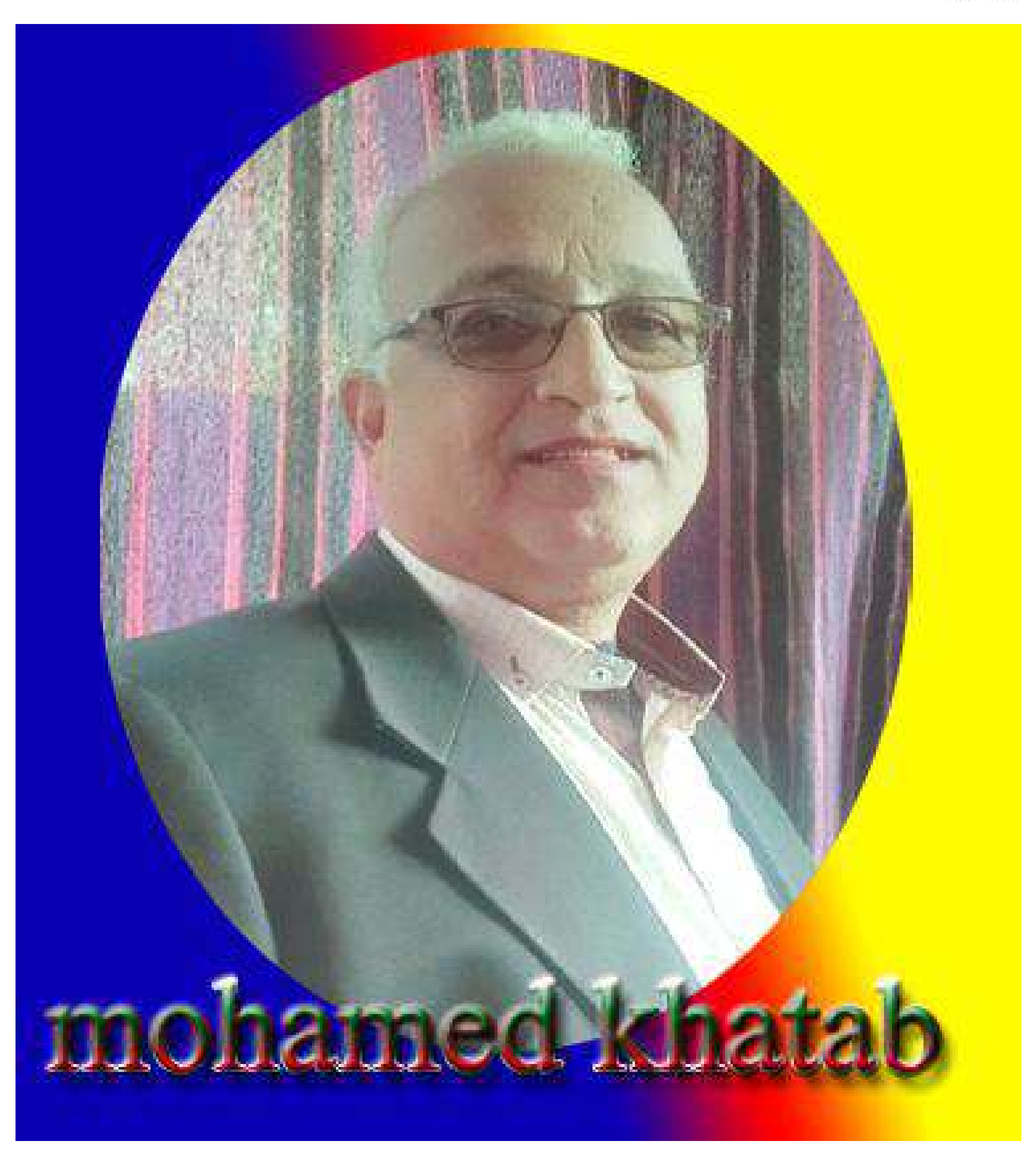
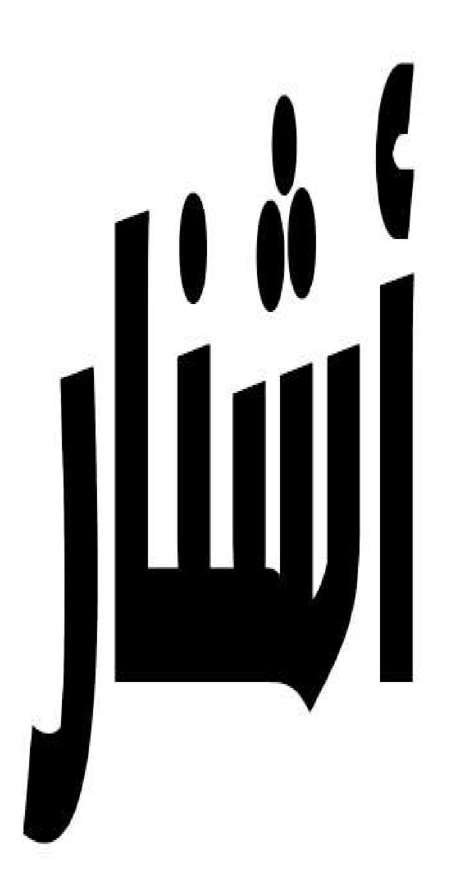


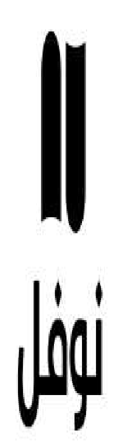
رواية
أشنار
هنري صفير
نوفل

رواية




أشار

هنري صغير



نوفل

صدرت عام 2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 1107 2050 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **© Victor Habbick/ Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-049-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-141-0

توطئة

بينما كان مُعتَقَلاً في يرَفدا (Yeravda) سنة 1930، وَجَّهَ المهاتما غاندي لتلاميذِه أولَ كتابٍ له للأشرام [1] . قالَ عن الحقيقة وأوضحَ أنَّ الحقيقةَ التي باللغةِ الهنديَّة اسمُها "ساتيا" تأتي مِن كلمة "سات" التي هي الكيان "بحدِّ ذاتِه" أي الله.

في الواقع، لا شيءَ موجودٌ خارجَ الحقيقة. لذلك، الحقيقةُ هي ربَّما أهمُّ أسماء الله. ويُضيفُ أيضاً المهاتما غاندي أنَّ القولَ بأنَّ الحقيقةَ هي الله أنجعُ مِن القَولِ بأنَّ الله هو الحقيقة.

هل يستطيعُ الإنسانُ في حياتِه الدنيوية أن يواجهَ الإله الحيّ؟ وبالتالي، أليسَت مُخيفة، بَل مُرعبةً حقاً مثلُ هذه المواجهة؟

الإجابةُ عن أسئلةٍ كهذه، يُقدِّمُها أشنار نفسُهُ الذي شكَّلَت الحقيقةُ المُطلقة، في حِلِّهِ وترحالِه، هاجِسَهُ الفِكري، والسِّمَةَ الغالبةَ على عواطِفِه وسلوكِه.

مُخطِئٌ فِعلاً مَن يعتبر، بقراءةِ هذا الكتاب، أنَّ الأميرَ أشنار هو بَطَلي، شأنُهُ في ذلك شأنُ كثيرين آخرين غيره، كأفلاطون على سبيلِ المِثال، وقفوا حياتَهم أو الشَطرَ الأكبرَ مِنها على البحثِ عن الحقيقة وتكبَّدوا لأجلِها الكثيرَ مِن العناءِ والمشقّة.

قد يكونُ الدورُ الأثيرُ عندي، والمُحبَّبُ إليَّ، هو دَورُ مَيْسا لأنَّه، في نَظَري، أقرَبُ وألصَقُ بواقعيةِ الحياةِ وسموِّ الحبّ. فهي، أي مَيْسا، على الرغم مِن حبِّها لأشنار، وَوَلعِها، بل بفعلِ الحبِّ والوَلَعِ هذين، شاطرَتهُ الطموحَ إلى المُطلق، إنَّما تجسيده على المستوى الإنساني.

أليسَت غايةُ التجسّدِ أن يكونَ لنا شركةٌ وتمتّعٌ بالحياةِ وبالفرح؟

ونسألُ بالنهاية، أليسَ مِن الأفضَلِ للإنسانِ أن يجروَ على المُمكن بَدَلاً مِن البَحثِ المستحيلِ عن المُطلق؟

وأخيراً، أرجو ألا تُقاس قيمة هذا الكتاب، وأهميَّتهُ بمقياسِ مُتعةٍ قد لا يوَفِّرها، والفائدة التي ينطوي عليها فحَسب، بل أيضاً ومِن بابٍ أولى بمقياسِ الأسئلةِ المُثيرةِ والخطيرةِ التي تستَفزُّ القارئَ وتُحرِّضُه على التفكير، وتدفعُه للبَحثِ عن أجوبة.

---

[1]الأشرامُ في الهند يعني فرقة تلامذة يتجمَّعون حولَ معلِّمٍ يؤَهِّلُهم لدراسة وممارسة سلوكٍ روحاني. وكلمة أشرام أيضاً تعني المكان الذي يجتمعون فيه.

مغامرةُ السَّفَر

في أواخر شهر أدونيس من سنة 4367 بالتقويم السرياني الموافق 384 ق.م. كانوا ثلاثة يتستَّرون بالغَسَق، ويتسلَّلون قَلقين ببطءٍ صامتٍ في ممرٍّ ضيّقٍ مُحاذٍ لقلعةِ بيبلوس. يتقدَّمون بخطواتٍ وئيدة. يسلكون المُنحنيات، ولا يَعبرون مِن ممرٍّ الى آخر قبل التأكّد مِن سطوةِ الليل وفراغِ الأمكنة.

ثلاثةٌ كانوا يقصدون شاطئ بيبلوس متنكِّرين كَمَن يهربون، أو كَمَن يُحاولون إخفاء مَعالم إثمٍ ارتكبوه. اكتسوا بملاءاتٍ طِوالٍ دُكنٍ تنسَدِلُ مِن قمَّة هاماتِهم إلى مواطئ أقدامِهم، وتجعلُهم يَبدون كأشباحٍ خَفيَّةٍ تتحرَّكُ بحَذَر، تاركة ظلالاً باهتةً على أسوارِ المدينة. يَلتحفون شوقَ السَفرِ ويتواطأون مع المغامرة، وتلفحُهم ريحٌ تُزَوبِعُ مِن لا نهاياتِ المَدى، وتغطُّ مبارِكةً رِفاقَ الرحلة نحو شواطئ جديدة.

الثلاثةُ هؤلاءُ كان أحدهُم الأميرَ أشنار، وليَّ عهدِ مَلِك مدينة بيبلوس آنذاك (إيهاب مُلك)، والآخرُ صديقَه الوفيَّ كالوباي، والثالثُ واسمه أهيناداب، شيخاً جليلاً له ملامح الهيبة، كان قد وقَفَ عمرَهُ كلَّه على خدمةِ المَلِك وأسرتِه.

قُبيلَ موعدِ الرحيلِ بساعات، كانوا قد اجتمعوا ثلاثتُهم في المَعبد، حيث انشغلوا بالتَّحضيرِ والاستعدادِ لمغامرةِ الاختفاء، وقبعوا ينتظرون غروبَ الشمس، وغرقَها الحميمَ في البحرِ السماوي، وبدايةَ انحسارِ النورِ وولوجَ الظلامِ قلبَ المدينةِ حيث سيدفعُهم إقدامُهم على السَيرِ مُخترقين الأزِقَّةَ الغاطسةَ في فسيفساءِ العتمة...

الشيخُ أهيناداب وحدَه كان يعرفُ الطريقَ إلى المرسى عن ظهرِ قلب. انطبعت في ذاكرتِه صورةٌ واضحةٌ للحجارةِ المرصوفة، وأعمدةِ الهيكل، وزوايا الأسوار، وانحناءاتِ الأقواس. كان بإمكانِه أن يسيرَ مُغمضَ العَينين، ولكنَّه كان يتقدَّمُ بحَذرٍ شديدٍ كأنَّه يسلكُ الطريقَ للمرَّةِ الأولى

مُستَغيِباً إرادة معلّمه، مَدفوعاً بضعفِه أمامَ مشروع أشنار. انحناءَةُ رأسِه قد تُفصحُ عن عقدةِ ذنب، وتَقَوّسُ ظهرِه عن رغبةٍ في التخفّي والاختباء، وتقاربُ خُطاه عن تقدّمٍ في السنّ، ورأسُه المترجّحُ كرقّاصِ الساعةِ ذات اليمين تارةً وذات اليسار تارةً أخرى، عن توجّسٍ مِن مجهولٍ قد يكتشفُ المؤامرة؛ المؤامرة التي لا دسائس فيها ولا مكائِد إنما تَوقٌ لا يُقاوَم لغنيمةِ المدى الأوسَع.

كان أشنار مطمئنّاً إلى أنَّ الشيخَ سيكتمُ الخَبَرَ عن الجميع، وسينفّذُ بدقّةٍ متناهيةٍ ما تمَّ تدبيره والتوافق عليه، فالوفاءُ زينةُ الإنسان، والشيخُ مِن الناسِ الذين يملكون تجاه القصرِ المَلَكي مِن العاطفةِ ما يجعلُهم أشبه بكهنةِ المعابد. فقد عاشَ في كنَفِه، وفي ظلِّ سيّدِه (إيهاب مُلك) حياةً تميَّزَت بالودّ، والصَبرِ والإخلاص. فلا غدر، ولا خيانة، ولا نكرانُ جَميل، ولا تراجع أو تردُّد في تلبيةِ أيِّ طلبٍ، بالِغاً ما بلغَتِ التضحيات.

وها هو اليومَ يستجيبُ لطَلَبِ أشنار وينصاعُ لرغبَتِه، على الرغمِ مِن قلَقِه عليه، وإحساسِه بأنَّ المغامرةَ التي يخوضُ غِمارها تسهُل معرفة بدايتها، ولكن مِن المستحيلِ أن نعرفَ أين تنتهي ولا ما ستؤولُ إليه.

لم يكن أشنار قد ودَّعَ أحداً في القصر. أسرَّ لكالوباي صديقِه فقط بجزءٍ مِن خطّته، وراحَ ينتظرُ معه حلولَ الليلِ كي يتوجَّها إلى الشاطئ.

وكالوباي هذا، على عكسِ الشيخ، لم يكن يعتريه خوف، أو ينتابُ قلبَه إحساسٌ بالخَطر. كان صديقَ الفُرَصِ كلِّها بالنسبةِ إلى أشنار، دائم الحضورِ في حياتِه، يُتقنُ التصرّفَ بحزمٍ وحنان، ويتمتَّعُ بكفايةِ المعرفة، وصلابةِ الإرادة، ولطفِ المَعشر.

كالوباي صديقٌ صَدوق. ويصحُّ أن يُقال فيه إنه بمثابةِ أشنار لأشنار في سرَّاءِ السلطةِ وضرَّاءِ الرحلةِ وفي سِعةِ البحبوحةِ وفي ضيقِ المسافاتِ الوَعرة. وكان، على الرغم مِن كلِّ هذه الخِصال، يتقدَّمُ مَنعاً لأيِّ انكشافٍ في الظلمة، كشَبحٍ فارغٍ خلفَ شَبحٍ تطأُهُ العتمةُ بظلالِها الداكنة.

ويُقدَّرُ للثلاثة أن ينجوا مِن عيونِ المارَّة، والذين لَمَحوهم لم يعرِفوا لغزَهم. وهكذا كانت الطريقُ التي سَلَكوها، على الرغم من وعورتِها، آمنة.

ويبلغون المرسى بعد لأيٍ، فيَظهرُ لهم مِن وراءِ ضوءٍ ناعسٍ رجلٌ مَهيبٌ لَوَّحت ملوحةُ البحر بشرتَه فالتَحَمَت بسُمرةٍ حادَّةٍ عكسَتها أضواءُ القناديل الرَّاقِصة. إنَّه القبطان، يدورُ به الكَونُ ويَهديه زبدَ الارتحالِ والإبحارِ، وما بين مُرِّ الأمواجِ العاتياتِ وحلوِّ صفوِ البحرِ يحيا ويُحيي ركَّابَه مِن دونِ أن يدري هو أو المسافرُ بما يخبِّئُه القَدَر، وبِما سيَسقيهِ مِن حلوٍ ومرٍّ في نهاياتِ المطاف.

توقَّفَ الشيخُ المُسِنُّ أمامَ القبطان، صافَحَهُ بحرارةٍ كأنَّه يعرفُه مِن زمان، ودسَّ في يَدِه نقوداً، كاشِفاً له اللّغز، ثمّ انسحبَ مودِّعاً، ومُطمَئِنّاً إلى أنَّ رفيقَيه أصبحا في مأمَن. وعندها رحَّبَ القبطانُ

بالضيفَين جاهِداً في إخفاءِ دهشته وحذره، واقتادَهما عبرَ جسرٍ ضيّقٍ إلى مقصورةٍ مُنعزلةٍ على مَتنِ السفينةِ ليَكونا في منأى عن عيونِ البحَّارةِ الفضوليّين والمتطفّلين.

دخلَ أشنار المقصورة، ثم تَبِعَهُ كالوباي فأحكَمَ إغلاقَ بابِها. نظرَ أشنار إلى صديقِه ليطمئِنَّ إلى شجاعتِه، فوجَدَهُ غيرَ عابئٍ بالأمر. قالَ في نفسِه: "كالوباي على ما يبدو، لا يُغامِرُ بنفسِه إذا انكشفَ أمرُه". ولذلك قرَّرَ أن يكونَ أكثرَ حيطةً وأشدَّ حذراً، مِن دونِ أن ينالَ ذلك مِن تماسكِه وسلوكِه الطبيعيّ.

أليسَ هو الأمير؟ ألا يفرِضُ موقِعُه عليه أن يحافظَ على قوَّتِه ورباطةِ جأشه، فلا يَدَع أيَّ منفذٍ يتسرَّبُ منه القلقُ والخوفُ إلى نفسِه؟! وإنْ هي إلّا لحظات، حتى بادَرَهُ كالوباي سائِلاً:

– كيف سيعرفُ جلالةُ المَلِكِ برحيلِك، وخصوصاً أنَّك قد كتمتَ الخبرَ عنه وعن والدتِك؟

– سيتولّى الشيخُ الأمينُ إخبارَه في الوقتِ المناسب. لقد طلبتُ مِنه أن يتأخَّرَ في نقلِ الخبَرِ إليه خشيةَ أن يُفتَضَحَ أمرُنا قبل الرحيل. طلبتُ منه التريّثَ بعض الوقت. فقط الوقت الذي تستغرقُه السفينةُ لتنأى بِنا عن الشاطئ.

وبصوتٍ بدا عليه وقعُ الفراق، قالَ كالوباي:

– سيفاجِئُ الخبَرُ ذويكَ. سيقعُ عليهم وقوعَ الصاعقة. سيشعرون بالذهول، وسيُصابونَ بالخيبة، وسيحاولونَ الإجابةَ عن مجموعةٍ مِن الأسئلةِ المُلِحَّة: هل؟ لماذا؟ مَن؟ متى؟ كيف؟ إلى أين؟... ثمَّ سيلجأونَ إلى سوقِ الأمنياتِ ممتزجةً بغصَّةٍ خانقة: قد يثوبُ إلى رشدِه. ربما يعودُ غداً. ليتهُ يدري بحالِنا فيسارعَ إلى العودة. ليتهُ... ليتهُ... إلى آخرِ ما هنالك مِن أمنياتٍ تُشتهى، ولكنّ تحقُّقَها يجافي المُمكِن، ويلامسُ المستحيل.

يعرفُ أشنار في قرارةِ نفسِه أنَّ رحلتَه أبعَد ما تكون عن النزهة.

بين شاطئٍ وشاطئ رنَتْ عيناهُ للنور في أقاصي المغامرة، وعلى قمَّةِ نشوةِ الاكتشاف، لطالما أقلَقَهُ وَعدٌ شامخٌ وَعَدَ به نفسَه.

وَعدٌ أحدَثَ أجملَ بريقٍ في عينَيه، دفَعَهُ إلى تَركِ رَبعِه وعرشِه الموعود ليصوِّبَ اتّجاهَهُ نحو طريقٍ للسلطةِ لا تشبهُ سلطةَ العروشِ والملوكِ والقصورِ المَنيفة.

في هذه اللحظة أبحَرت السفينة بهدوء، فأحسَّ أشنار بأنَّها لحظةُ الفراقِ الطويل، وأخذَ الحزنُ يتغلغلُ في نفسِه، فأغمضَ عينَيه مُستَسلِماً لحنينٍ صامت.

كان يودُّ في قرارةِ نفسِه لو كان بإمكانِه الجَمعُ بين الأمكنةِ بحيث يتساوى البقاءُ والرحيل. ودَّ لو كان بإمكانِه أن يزدوج، أي أن يبسطَ وجودَه بحيث يتسنّى له أن يكونَ في مكانَينِ مختلفَين في آنٍ واحد، أن يكونَ في أيِّ بقعةٍ أو مدينةٍ في العالم مِن غيرِ أن يفقدَ حضورَه في بيبلوس، مدينتِه الأمّ.

ابتعدت السفينةُ عن الشاطئ، وفوَّتَتْ بابتعادِها عليه وقتَ الرغباتِ فخرجَ مِن مَقصورتِه، وراحَ يسترجعُ كتابَ الذكرياتِ متوقِّفاً عند صفحاتِه الأخيرة، بل عند آخرِ صفحةٍ مِنه سُطِّر فيها بحروفٍ مِن ذَهَب إحرازُه بطولةَ الألعابِ الرياضيَّةِ في بيبلوس، وظفرُه بإكليلِ الغار. وليس مستغرَباً على أشنار أن يُحرِزَ ألقابَ البطولةِ في الرياضةِ وهو الذي شبَّ على التمارين البَدَنيّةِ في القصر الوالدي، فشَهِدَ مع الأيّامِ نموَّ مواصفاتِ الأبطالِ في بَدَنِه مِن سرعةٍ وقوَّةٍ ومرونةٍ وتحمّلٍ وتوازنٍ ورشاقة.

مَن كلَّلَهُ بالأمسِ بالغارِ دفَعَهُ إلى أخذِ القرار للسَّعيِّ وراءَ ما هو أهمّ من ألعابِ أدونيس: للسَّعي نحو المُطلَق، بلادِ الإغريقِ وحضارتِها التي لطالما أثارَت فضولَه. فتوجَّهَت، صوبَ الحاضرةِ الأثينيَّةِ أحلامُ الفارسِ المنسوجِ مِن شاطئِ بيبلوس، والمقدودِ مِن نُسغِ المغامرةِ ورهبةِ الاكتشافِ الأكبر.

هذا الشغف لمعرفةِ أهل الإغريق ناتجٌ عن أنَّ العلاقة بين الفينيقيّين والإغريق لم تكن موجودة.

خرجَ مِن المقصورة، ووقفَ تحت ساريةٍ أرخَت جدائلَها على أطرافِ الخشب. أمسَكَ ذيلَها المُبَلَّل، عصَرَهُ بيدِه، ثم بسطَ كفَّه أمام عينَيه، فظهرتْ فيها خطوطٌ ومنعطفاتٌ غامضة، حاوَلَ أن يقرأَ فيها طالِعَهُ ومصيرَه.

"ما الذي ينتظرُني"؟ قالَ. ثمَّ حكَّ راحتَه بأطرافِ أصابعِه، وأعادَ يدَهُ إلى السَّارية، وأخذَ يتطلَّعُ إلى معالم بيبلوس التي بدأتْ تختفي في الأفق.

الأشرعةُ لم تكن تثرثرُ كثيراً. صوتُ البحر كان أشبهَ بالحفيفِ أو الرذاذ. الموجُ كان يسجدُ بخشوعٍ عند مقدَّمِ السفينةِ الذي كان يشقُّ الماءَ موغلاً في الأزرقِ الوسيع.

لم يرَ شيئاً وهو يُطيلُ النَظرَ مِن فتحةِ السَّارية غير الليل، والليلُ أقربُه بعيدٌ، فتساءَل: هل يحتضنُ الليلُ ما أكتمُه مِن أسرار؟ ثم أطمأنَّ إلى أنَّ الصبحَ سيُفصحُ له عن خطواتِه الأولى، فأطبقَ أجفانَه، وفتحَ لمخيّلتِه نوافذَ الأمسِ ودهاليزَ الظنونِ وشموسَ الغدِ الآتي.

أطلَّ، بدون عناء، على بيبلوس. كان خيالُه مسكوناً بها، وبميادينِها وبما حقَّقَهُ فيها من انتصارٍ وبطولة.

اتَّكأَ على متنِ السفينة، وشرعَ يقلِّبُ صفحات أمسِه، ويستقرئُ صورَه صورةً صورة. جموعٌ على المدرَّجاتِ تنتظرُ تتويجَه بإكليلِ الفوزِ بالسباقِ الخماسي على عدّائي بيبلوس الأبطال. كانت الحلبةُ الفسيحة، والملاعبُ المحيطةُ مطوَّقةً بمدرَّجاتٍ نصفِ دائريَّةٍ يحرسُها جنودٌ انتظموا في صفوفٍ منضبطةٍ متراصَّة، تَوَزَّعَ بينهم مِن فوقِ المدرَّجاتِ نافخو الأبواق، وقارعو الصنوج، وحَمَلَةُ البيارقِ التي فتحتْ أذرعَها لاستقبالِ الهواء اللعوب.

ابتسمَ أشنار لأمسِه، وعادَ إلى الحَدَثِ بكلِّ تفاصيلِه. كان عليه أن يقفَ على منصَّةٍ ارتفعتْ أعمدتُها الرخاميَّةُ المنحوتةُ بأرقامٍ وأسماءٍ لشعوبٍ وغزاةٍ مرّوا على بيبلوس، ولم يُفلحوا في غَلَبَتِها، أو إخضاعِها لهم.

حروفٌ كثيرةٌ انتظمَتْ في تاريخِها تُدوِّنُ قدومَ الأموريين والأمير عبدائي، والهكسوس، والحثيّين، والحوريّين، والمصريّين، والفرس، وجلاءَهم كلِّهم عنها وبقاءَها هي وفيّةً لذاتِها، لا تخضع ولا تلين.

اعتلى منصَّةَ التكريمِ يجتاحُهُ فَرحٌ غيرُ مسبوق، وتغمرُهُ غبطةٌ ذاتُ طعمٍ جديد. وأحسَّ وهو يعتليها بأنَّه يعتلي تاريخاً عريقاً حافلاً بالمآثرِ والأمجادِ سَبَقَ أن تفوَّقَتْ فيه بيبلوس على سائر قريناتِها تفوّقاً تشهدُ عليه مناعتُها وحضارتُها السخيَّة.

فالتفَتَ إلى صديقِه كالوباي، وبزهوٍ قال:

– هل تعرف أننا، أنا وأنتَ، نطأُ التاريخ؟

فأجابَه كالوباي مُستغرباً:

– لا أفهمُ. إنَّك دائماً تستخدمُ مفرداتٍ مفخَّمة، وجُملاً تتخطّى طاقَتي على الاحتمال. دعنا مِن ذلك يا عزيزي، ولنتشاطر فرحَ فوزِك وتتويجِك بالغار.

– لعلَّك إذاً لم تقرأ ما كُتِبَ على أعمدةِ المنصَّة؟!

– بلى، قرأتُ. أظنُّك مِن الذين يطربون لعباراتٍ مِن نوعِ حارسة الحضارة، صديقة الشواطئ، الى آخر ما يُنتجُه الخيالُ مِن عباراتِ تفخيمٍ وتعظيمٍ لبيبلوس. يا صديقي، بيبلوس مدينةٌ عظيمةٌ في ذاتِها سواء وصفتَها أو لم تصفها بعباراتٍ تبلغُ في مبالغتِها حدَّ التخليدِ والتَّأليه.

– ما أقولُهُ ليس إنشاءً. اللغةُ ليست كلمات. إنها تدلُّ على حقائقَ ومعانٍ وانفعالات. وأنا أعبِّرُ عمّا أشعرُ به، والآن أشعرُ بأنّي ابنُ بيبلوس. بيبلوس وطني وتاريخي وهويتي...

وفيما كان كالوباي يهمُّ بمواصلةِ كلامه يلمحُ حركةً في المدرَّجات، فيلفتُه أشنار إلى ضرورةِ الاستعداد والتأهّب لاستقبالِ أكاليل الغار.

وصَدَحَت الأبواقُ بأصواتٍ ارتجَّتْ لها أرجاءُ ساحةِ الاحتفال، وتجاوبَتْ أصداؤها في المدينة. هتفَ الجميعُ ملءَ حناجرِهم فخراً واعتزازاً بفوزِ أشنار وكالوباي، وترحيباً بقدومِ الموكبِ المَلَكيّ.

تقدَّمَت العربةُ المَلكيةُ تجرُّها خيولٌ زُيِّنَتْ سروجها ومسارجها بالذَهب ورُصِّعت بألوانِ الزهو والبهاء. تراقَصَتْ إيقاعاتُ الخيول، حوافرُها تقرعُ الأرضَ بانتظامٍ كأنَّها تمرَّسَتْ بالعَزف، أو كأنَّها في حلقةِ رقصٍ مِن نوعٍ خاصّ جرى تدريبها عليه احتفاءً بيومِ الانتصار.

طافَتْ العَربةُ المَلكيةُ في الساحةِ وسطَ تصفيقِ الجمهورِ وحماستِه وهتافاتِه. ولم تهدأ عاصفةُ الفَرَحِ إلّا بعد أن أصدرَ المَلِكُ أمرَه بذلك بإشارةٍ من إحدى يَدَيه. وعندئذٍ تقدَّمَ القائدُ العسكري،

وساعدَ جلالتَه وجلالةَ المَلكةِ على الترجّل، والتوجّهِ تَوّاً لاحتلالِ مركزَيهِما في صدارةِ المدرَّجِ المُزدانِ بالسُعُف والطنافسِ والستائرِ المنسدلةِ كشلاّلاتِ ضوءٍ سخيّ.

وإنْ هي إلّا ثوانٍ حتى توافَدَ الأعيانُ فاحتلّوا أماكنَهم حولَ العرشِ المَلكي، إلى جانبِ كِبارِ القادةِ والمستشارين، وممثّلي الدولِ المعتمَدين في المدينة.

نظرَ أشنار الى كالوباي، وهمسَ بصوتٍ حميم:

– هذه اللحظةُ، يا صديقي، تكادُ تُساوي العمرَ كلَّه. أحَبّ شيءٍ إلى قلبي أن أتلقّى إكليلي مِن والدي.

ولم يكد يُنهي كلامَه حتى عزفت الموسيقى، وتقدَّم، بمَجدٍ عظيم، ممثّلُ فرعون مصر، ليتولَّى هو بنفسِه مهمَّةَ التتويج.

أحسَّ أشنار بالمهانةِ والعار. وجدَ الإكليل، وهو بين يديْ مُمَثّل الفرعون، ثقيلاً على رأسهِ، لكأنَّه مصبوبٌ مِن رصاص، فغامَتْ عيناهُ في سوادٍ حالك، وأخذَ يُسائِلُ نفسَه:

– ماذا أفعلُ؟ كيف لي أن أنجوَ مِن عارِ التتويجِ؟ هل أغادرُ المنَصَّةَ؟ هل أحمي رأسي بيدي؟ هل أنتزعُ الإكليلَ عنوةً من مُمَثّل الفرعون وأتولّى أنا بنفسي ضفرَ جبيني به؟ هل أصرخُ بأعلى صوتي مُستغيثاً بأبي لينقذَني مِن الموقفِ المذلّ الذي أنا فيه؟

لم يعرف كيف يتصرَّف. وفيما كانت الحيرةُ مستبدَّةً به، كان ممثّلُ الفرعون يرفعُ الإكليلَ بكِلتا يدَيه ويثبّتُه على جبينِه.

قبل التتويجِ كان أشنار يشعرُ بأنَّه يقفُ على التاريخ. وبعد التتويجِ باتَ يشعرُ بأنَّ رأسَه تحت قدميْ تاريخٍ يصنعُه الفرعونُ المصريّ في بيبلوس.

قبل تلك اللحظة كان يمتلئُ سروراً ومَجداً واعتزازاً، والآن يملأُه الحزنُ والخَجَلُ والهوان.

تساءَل: كيف يرتضي والدي ملِكُ بيبلوس هذا الصَّلفَ الفرعوني؟ كيف له أن ينتزعَ منِّي هذا الانتصار، ويدعوني إلى قبولِ الانكسار عبر تنكيسِ هامَتي لإكليلٍ من غارٍ وعار؟

انهارت أحلامُ أشنار دفعةً واحدة، وتساقَطتْ روحُه، وتبدَّدتْ آمالُه النبيلة، واجتاحتْ كيانَه كآبةٌ غامرةٌ مصحوبةٌ بغضبٍ شديد.

وفجأةً أخذتْ كتفاه تترهَّلان، وأخذَ يتملَّكُه إحساسُ المهزومِ يفتّشُ عن ملجأ.

ما كان يُدركُ بعد أنَّ السياسةَ ومستلزماتِها قد تقزّمُ أحياناً هامةَ الملوكِ وتستطيعُ وأدَ الانتصار. لم يَهنْ على أشنار أن يُلبِسَه الوصيُّ الفرعوني ثيابَ العزّ والمجدِ والكرامة. لقد تعوَّدَ الفرعونُ أن يُطاعَ، ولم يكن أشنار مِن ذوي الطاعة والرضوخ. الفرعونُ وحاشيتُه يَمتدحون طاعةَ بيبلوس فتزيدُ بيبلوس خنوعاً، يُمعِنون في امتهانِها، يُلقّمونها المرَّ فتتحلّى بالصَبرِ وقوةِ الاحتمال ولا تثور، يُجَرّعونها الذّلَّ فترتضي المكاسب، ويحرمونَها النورَ فتطربُ لرنينِ الذهب.

لم يكن أشنار أقوى أبناءِ جيلِهِ في الرياضةِ والريادة، ولكنَّه صمَّمَ على خوضِ التجربة، وراهنَ على الفوز، فطلبَ من جَسَدِه أن يطيعَه فأطاعَه، وأمَرَهُ أن ينفِّذَ أوامرَه فامتثَلَ تدريباً وصَبراً وصموداً وتمرّساً بالصِعاب. ولمّا كان الكسلُ أحياناً يُغري الجسدَ بالراحة، كانت إرادتُه تعصى وتقاوم الإغراءات، بحيث غَدت الراحةُ مكافأةً بعد طولِ معاناة.

وهكذا واظبَ على التدريبِ ساعاتٍ طِوالاً كلَّ يوم، وإلى جانبِه صديقاه الأثيران كالوباي والكتاب. فكان عندما يفرغُ مِن تمارينِه يسكنُ إلى كتابٍ يقرأُه، أو إلى إجادة اللغة اليونانية أو إلى كالوباي يناقشُه ويسامرُه ويبثُّهُ لواعجَ صدره، وبناتِ أفكاره، إلى أن انتهى إلى وقتٍ خفَّ فيه جسدُه، وثقلَ عقلُه فاكتمل. أضحى جسدُه خفيفاً، أرشقَ مِن سحابة، وأرقَّ مِن هواء، وأسرعَ مِن بَرقٍ أو لَمحِ بَصَر.

القوَّةُ في بيبلوس ليست عمياء، إنَّها مِن عناصر ثقافةِ الجَمالِ والكَمال. القوَّةُ تمنحُ الجسدَ جَمالاً، والنَّفسَ نقاءً وصفاءً.

تقاسيمُ الجَسدِ دلالةٌ على أنَّ له لغة تنطق، وعلى أنَّه يعبّرُ عن الروحِ بتقاسيم الحركةِ لكأنَّه نصُّ الروح.

الجسَدُ ليس هيكلاً مولوداً، بل هو تحفةٌ فنيَّةٌ تُصنعُ عناصره وأقواسُه وأعمدته وقبابه وانحناءاته من المَهد بتمارين الجَمال.

أليس لهذا السببِ قدَّسَه الفنَّانون، ورَفعوه إلى مرتبةِ الألوهة، إذ نحتوا الآلهةَ على صورتِه ومِثالِه؟

لم يكنْ عاديّاً فوزُ أشنار بالسِباق، كان تألّقاً وقداسة، أو كان انطلاقةً تعبّرُ عمَّا تكتنزُه روحُه مِن تحدٍّ وتجاوز. كان شبهَ انتصارٍ على جاذبيَّةِ الترهُّلِ والكسَلِ والخضوع. كان فِعلَ حريَّةٍ سخا به مِن أجلِ الفوزِ برتبَتَيْ الحريَّةِ والجَمال. فكيف يُجيِّرُ المِلِكُ (إيهاب مُلك) والدُه هذا كلَّه إلى وصايةِ الفرعون؟ كيف يُسَخِّفُ الوالِدُ جهدَ ولدِه، ويريقُه على قارعةِ التنازلِ والذلّ؟!

وتزيغُ عينا أشنار. يتراجعُ إلى داخلِه. تُبدِّلُ الأشياءُ معناها الحقيقيّ في ذاتِه. لم يعدْ لفَرَحِ المَلِك واعتزازِهِ قيمةٌ أو معنى. وحدَه ممثّلُ الفرعون كان يَستَحْوِذُ على اهتمامِه. فهو على الرغمِ مِن كلِّ شيء، مِن قبحِه الذي لا نظيرَ له، وقلنسوتِه المرتفعةِ المعقوفة، ووجهِه المقيتِ الذي لم تنبتْ فيه إلّا بعضُ خصلاتٍ متناثرةٍ مِن شَعرٍ أشعثَ نادر، وأنفِه الذي يُظلّلُ وَبراً قليلاً متراخياً بطريقةٍ عشوائيةٍ فوق شفتَيه، هو بالرغم مِن كلِّ ذلك أكبرُ مِن عرشِ بيبلوس.

وعادَ أشنار فتذكَّرَ كيف رأى المِلِكةَ تشعرُ بِما ينتابُه، وقلبُ الأمّ نورٌ كاشفٌ قادرٌ عادةً على النفاذِ إلى حيث يعجزُ العقل. قرأتْ قلقَه في عينَيه، وانحناءَةِ قامتِه، ونظرةِ كالوباي إليه. فنهضَتْ مِن كرسيِّها، وتقدَّمَتْ مِن منصَّةِ التَكريم، فجذبَتْه، وشدَّتْه إليها، وضمَّتْه إلى صدرِها كأنَّه طفلٌ

صغير، وأخذَتْ تُقبِّلُه بحرارةٍ جاهدةً في إخفاءِ مرارتها وراء ابتسامةٍ كاذبةٍ طليقةٍ على شفتَيها الرقيقتين.

– لماذا تجرَّأ ممثِّلُ الفرعون على والدي؟ سألَها أشنار. لم تجبْ. كرَّرَ عليها السؤال ثانية. فاحتضنَتْه من جديد، وانهالَتْ عليه بكلماتٍ حميمة. قالت، والألمُ يعتصرُ قلبَها:

– أنتَ بَطلي. بيبلوس العظيمةُ ستخطبُ فوزَك وتنتمي إليه. أنتَ منذ الآن مصدرُ كبرياء لها ومجدٍ وعظَمة.

ولكن أشنار لم يتحرَّكْ مُستجيباً لصوتِ أمِّه الرقيق، بل ظلَّ جامداً مكانه كتمثالٍ مِن رخام.

وتنسحِبُ المَلِكة عن المنصَّةِ مذهولة مكسوفة الخاطر مبلبلة الأفكار، فينبري كالوباي محاوِلاً التَّخفيف مِن كآبةِ صديقِه، فيقولُ لعلَّه يُفلحُ حيث أخفقَت الأمّ:

– لا تبالغ، يا أشنار، فتُعقّد الأمور. لماذا تنظرُ إلى الأشياء دائماً مِن زاويةٍ سوداء؟ لماذا لا ترى في حضورِ ممثّل الفرعون تعبيراً عن إعجابِه بك، وحِرصاً على مشاركةِ مصر بفوزك، وإصراراً على تكريمِك؟ كنْ واقعيّاً، يا صديقي، افرحْ بانتصارِك، واحتفلْ به، ولا تُقحِمْ السياسةَ في الرياضة.

رفعَ أشنار يَدَيه إلى رأسِه في حركةٍ لا واعية، كأنَّه يودُّ نزعَ الإكليل عنه. فأحسَّتْ أناملُهُ برذاذِ الماءِ على شعرِه، واستفاقَ مِن أمسِه، فأعادَ قبضتَيه إلى السَّارية، ونظرَ إلى الوراء فوجدَ كالوباي يومئُ له مِن بابِ المقصورةِ ليوافيَهُ إليها. دخلَ المقصورةَ. أوصدَ البابَ خلفَه. تقوقعَ في إحدى الزوايا، وراحَ ينظرُ إلى كالوباي وفي عينَيه ملامح معاناة مُرَّة.

عمَّ يبحث أشنار؟ لماذا تخلَّى عن مدينتِه؟ أيّ وطنٍ له بعيداً عنها؟

أسئلةٌ كثيرة تصعبُ الإجابة عنها نبتَتْ في رأسِ كالوباي في شكلٍ موضوعيٍّ في تلك اللحظة، لكنَّه تركَها جميعاً طيَّ الكتمان.

* * *

وفيما كانت السفينةُ تجاري الريح، وتعتلي هامةَ المَوج، كان يهيمِنُ على المقصورةِ صمتٌ ثقيلٌ خرَقَه كالوباي مخاطِباً صديقَه بقولِه:

– خُذْ قسطاً مِن الراحة. نمْ قليلاً. المسافةُ بين بيبلوس وقبرص ليست بقصيرة.

أجابَه أشنار:

– جافاني النوم، ونستطيعُ أن نختزلَ الوقتَ بتجاذبِ أطرافِ الأحاديث.

– ليتني أستطيعُ مجاراتَك، فليست لي طريقتك في رؤيةِ الأشياء. أنت تنظرُ إلى الأمورِ كما يروقُك. عقلُك مشغولٌ دائماً بإعادةِ ترتيبِها، وهي غيرُ قابلة للترتيب. آنَ لنا أن نُدرِكَ رغم فتوَّتِنا أنَّ

المنطِقَ ليس سيِّد هذا العالم.

كان أشنار يعرفُ مِقدارَ حبِّ كالوباي له، ولكنَّه، لمّا سمعَ مِنه هذا الكلام، شعرَ بامتنانٍ عميق، لأنَّ كلاماً كهذا يُمهِّدُ له السبيلَ إلى التعمُّقِ بالأفكار. وهكذا، وعلى الرغم مِن نعاسِه، ورغبتِه في الكلامِ، رأى المناسبةَ سانحةً للتَّحاور، فسألَ كالوباي:

– ما رأيُك بِما حصلَ على المنصَّة؟

– أعرفُ حساسيّةَ علاقتِك بكلِّ دخيلٍ على بيبلوس، وأشاطرُك الإحساسَ نفسَه غير أنني أتفهَّمُ ما حصل. المصالح، يا صديقي، تحدُّ مِن المطامح، وأحياناً تزيِّفُ الحقائق. إنَّ للعالمِ أقداماً أو بالأحرى إنَّ العالمَ يحتاجُ الى أقدامٍ أكثر مما يحتاجُ الى أفكارٍ ومشاعر وأحلام.

تفرَّسَ أشنار في سيماءِ كالوباي وقال:

– الأفكارُ عنصرُ اتصالٍ مع الأفعال، بدونِها يصبحُ الفعلُ تخبّطاً والمصيرُ قدَراً. الأحلامُ تتبصَّرُ العالم، وتنفذُ إلى الأعماق، وتُظهِرُ مدى قدرة الإنسان على النهوضِ والتعالي فوق الحياة، لتغييرِ الحياة وتحريرِ النفس. إنَّ الحالِمين، يا صديقي الوفيّ، ليسوا بحاجةٍ إلى ثورةٍ تغيِّرُهم مِن الخارج، لأنَّ ثورتهم نابعة مِن أحلامِهم.

إعجابُ كالوباي بأشنار وصداقتُه له مَنَعاهُ مِن متابعةِ الحِوار إياه. فقد نشأَ على وفاءِ الرفقة، وصِدقِ المواكبة، وحفظِ السرِّ والأمانة، وعاشَ الأفعالَ والوقائع، لذلك فضّل المضي بحديث واقعيّ ملموس ينضحُ حياةً يوميَّة:

– بين بيبلوس ومصر علاقاتٌ تجاريّة ممتازة. واقتصادُ بيبلوس متوقّفٌ على علاقاتِنا مع مصر. ونحن، سكّان بيبلوس، نجني أرباحاً مِن تصديرِ الأخشاب وتصنيعِ النحاس، نستوردُ معدنَه مِن جزيرةِ قبرص، نُتقنُ صناعتَه لنبيعَه بثمنٍ باهظٍ لِمصر. وأنَّى لنا، لولا الفراعنة، أن نحظى بهذه الكميةِ الوافرةِ مِن الذَهب؟

المصالحُ ليست مشاعر وأحاسيس، والناسُ لا يأكلون أفكاراً بل خبزاً.

المصالحُ هي أسسُ المُدن والممالك، فمَن لا مالَ له، لا قوَّةَ له، ولا حريَّة.

– وهل يخشى قوَّةَ الفراعنةِ أمثالُ أبي؟ أبي رجلٌ شجاعٌ أرسى حكمَه على الحريَّةِ والإبداع، والحريَّةُ ليست سلطة، ولا ينظرُ إليها وكأنَّها سلعة. أكثرُ ما يُدهشُني، يا كالوباي، أنَّك ترضخُ لهذا المنطق. ألستَ تعرِفُ أنَّه إذا كانت المادةُ سرَّ وجودِ البقاءِ فالروحُ جوهرُه؟

– أنتَ، يا صديقي، بمنطقِك هذا، تقايضُ الروحَ بالذَهب، معَ العِلمِ أنَّ أكياسَ الذَهبِ المكدَّسَةَ كلَّها لا تُعيدُ الروحَ والحريَّةَ والكرامةَ لشعبٍ فَقدَ روحَه وحريَّتَه وكرامتَه.

– ألا تصبح بيبلوس إذا فقدت روحَها، دميةً في يدِ الفرعون؟ إنّ أكثر ما يُثيرني، أن أجدَ أبي يرضخُ لحاجاتٍ اقتصاديةٍ ليبرِّرَ تدخُّل الفراعنة في شؤونِ مَملكتِه.

أشنار كان يرى أنَّ كلَّ ما في الدنيا هو في خدمةِ العقل، خِلافاً لكالوباي الذي كان شديدَ الواقعية، ذكيّاً جدّاً في إيجادِ المبرّرات لسِواه، يفكِّرُ بقَدْرِ ما يعمل، ويجعلُ رأسَه مُطيعاً لساعِدَيْه.

ويتواصلُ الحِوار، فيردُّ كالوباي قائلاً:

– لا أعرفُ لماذا تَضيقُ ذَرعاً بالفراعنة، بينما أنت تعرفُ تماماً أنَّ البابليّين كانوا، على الرغم مِن الفارقِ الحضاريِّ بينهم وبين الفراعنة، أقوى نفوذاً وأشدَّ تسلُّطاً علينا منهم.

– لا أظنُّ أنَّ البابليّينَ كانت لهم صلافة الفراعنة، أو أنَّهم كانوا مثلهم يتدخَّلون في شؤونِنا، ويفرضون علينا الإذعانَ والرضوخ. ثمّ لماذا يُوَلِّدُ التنافسُ الحضاريُّ بيننا وبين الإغريق، كما يصرُّ والدي، هذه العداوة؟ أليسَ مِن الضروري أن تقومَ بيننا وبينهم علاقاتٌ متبادلة؟ علاقة ندَّين؟

– ألم تطرح تساؤلاتك هذه على جلالةِ الملِك؟

– أبي، يا كالوباي، عبقريُّ اللحظة. يستجيبُ للحَدثِ ويحلُّه بمرونة. يأتي دائماً بالسَهلِ المُمكن. إنه يُبدعُ العاديّ فيما السياسةُ إبداعٌ للآتي. إنَّ ما يُحرِّكُ السياسةَ هو الخيالُ المُبدع. لا أؤمنُ أبداً بأن نكونَ أسرى الواقع، وبأن نديرَ أمورَنا وكأنَّنا في سجنٍ لا نستطيع تجاوزَ جدرانِه السميكة. فلسفةُ قبولِ الواقعِ تقتلُ الروح. أما فلسفةُ تجاوزِه، فتطلقُ حريَّةَ البَحثِ عن أملٍ مستقبليٍّ أسمى.

الواقعُ آسنٌ إن لم يتحرَّك، والممالكُ والأمَمُ التي تتصنَّمُ تتخلَّف.

أمام بيبلوس رسالة إنسانية تستوجب استكمال المعنى الذي ولَّدته أبجديتُها الرائدة. إنها رسالةُ المعرفةِ والعِلم، ولذلك أرفضُ رفضاً قاطعاً أن أراها محطّةً للبضائعِ والأخشابِ والزخارف وحَسْب. الشعوبُ لا تتقدَّم إلّا إذا تحرَّرت مِن الحاجات الأوليَّة للاقتتاتِ الذاتي.

الروحُ يا كالوباي، هو رائدي وقائدي وسيِّدي. وها أنا ماضٍ معكَ إلى ممالِكِه الخالدة في اليونان.

أنا مشتاقٌ إلى اللحظةِ التي ألتقي فيها بعضَ فلاسفةِ الإغريق وتطأُ قدماي عتبةَ مدينةِ أولمبيا. إنَّ عقلي يكادُ يَطيرُ فَرحاً بلقاءِ مدارس أثينا.

الكلامُ هذا يذكِّرُ كالوباي بوعدٍ قطَعَهُ له أشنار فيسأله:

– وما وعدتَني به؟ ألم تقنعني بأنَّ الغَرَضَ مِن سفرِنا إلى أثينا هو المشاركةُ في الألعابِ الأولمبيَّة؟

ولكنَّ أشنار يجيبُه بقوله:

– أنتَ تطمحُ إلى تحقيقِ معجزةِ الفوزِ في سباقِ أثينا، وأنا أشاطرُك هذا الطموح. سندخلُ معاً مدينةَ أولمبيا، وأتمنَّى أن يُكتَبَ الفوزُ لأحَدِنا هناك، ولكنّ ما يميِّزُني عنك هو أنّني مصمِّمٌ على المضيِّ إلى أبعَدَ مِن ذلك.

لم يكدْ أشنار يُنهي كلامَه حتى فوجئَ بكالوباي يتثاءَب، فقرأ في تثاؤبِه عزوفاً عن الإصغاءِ إليه، أو رغبةً عن مجاراتِه، أو تعبيراً لائِقاً للتخلّصِ مِن عبءِ الحِوار، وقالَ في نفسِه:

"لعلَّه يعجبُ لحالي. لعلَّه يرثي لمصيري، ويتشاءَمُ مِن خياراتي. لا ألومُهُ في ذلك. طموحُ الإنسانِ يُقاسُ بإمكاناتِه، وهو متميّزٌ عنّي بواقعيةِ مَراميه وأهدافِه. ولأنني أقيسُ طموحي بالمستحيلات، فربَّما كان يردِّدُ في نفسِه، وهو يحاورني، الأسئلة عينَها التي لم ينقطع يوماً عن طرحِها عليَّ:

ماذا ينقصُ أشنار؟ لماذا يُلقي بنفسِه في شِباكِ الأسئلةِ ولجَّةِ المجهول؟ لماذا يعزفُ عن اللذَّةِ والترفِ والرفاهيةِ وأنواعِ السعادةِ السهلة، ويميلُ إلى صعوبةِ القَلَقِ والبَحث؟ لماذا يتركُ صديقي أشنار قصرَهُ ومدينتَهُ ومُلكَهُ ليَهيمَ على وجهِه، ويزجَّ بنفسِه في المسالك الشائكة؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ مع ترجّحِ احتمال إخفاقِه في الوصول إلى مكانٍ أو قرارٍ مُريح؟"

كانت أسئلةٌ كثيرةٌ تلحُّ على أشنار حول كالوباي، غير أنَّه لم يشكَّ مرَّةً في صداقتِه ووفائِه.

جلّ ما كان يريدُه كالوباي لصديقِه أن يكونَ أميراً كالأمراء، وأن يلازمَ أباه، ويتدرَّبَ على يدَيه، ويتعلَّمَ مِنه فنونَ الحُكم، وأساليبَ القيادة. كان يريدُ له أن يتمتَّعَ بالملذّات موفِّقاً بين إمارةِ الجَسَد وملكوتِ العَقل.

لم يكنْ كالوباي يفهمُ هواجسَ صديقِه، ولا سلوكَه المتطرِّف ولا طموحَه الملحاح. لم يكنْ يعرفُ أنَّ الجوعَ الذي ينهشُه كان ينتهي دائماً كلَّما أكل، إلى جوعٍ جديد، وأنَّ العطشَ الذي يحرقُه كان يُفضي دائماً، كلَّما شَرب، إلى عطشٍ جديد. كانت روحُه صحراء تشتهي الماءَ ولا ارتواء. لم يكنْ يُدركُ المدى الذي بلَغَه أشنار في معاناةِ الفَراغِ والمجهولِ والبحثِ عن المعنى، ولم يتحسَّسْ عذابَه الذي هو أشبه بعذابِ الطائرِ الأسطوريّ الصائحِ في البراري: اسقوني، اسقوني.

كان أشنار يبرّرُ ما انتابَه في اللحظةِ التي أدارَ فيها ظهرَه لبيبلوس، وفتَح عينَيه على عتمةِ المجهول. وكان يريد أن يُعيدَ وصْلَ ما انقطعَ في الحِوار، فقال لكالوباي:

– أغبطُكَ، يا صديقي، على ما أنتَ فيه مِن طمأنينة... أحسدُ رضاكَ عن نفسِك، أنتَ إنسانٌ طيِّبٌ وقَنوع، ولكنْ، أنّى لي قناعتك؟! إنَّ أزمتي لا تشبهُ أزمةَ الآخرين. في كلِّ لحظةٍ مِن وجودي تشدُّني الحياةُ إلى أغوارِها العميقة، إلى أسرارِها الغامضة، إلى حقائقِها المبهمة. قوَّةٌ كبيرةٌ في نفسي تحثُّني على البحثِ عن أمرٍ ما لا أجدُه، عن عالمٍ كلَّما توغَّلتُ فيه ازدَدتُ ابتعاداً عنه، عن حقيقة كلَّما اقتربتُ مِنها نَأَتْ عنّي، وبَدَتْ مشوبة بالنقصان.

– أنا أغبطُك حقاً، يا كالوباي، لأنَّك لا تعرف التعب، لأنَّك تأكلُ فتشبع، وتشربُ فترتوي، وتتطلَّعُ فترى، وتحسُّ، ولا تشكُّ في شيءٍ.

أغبطُك، يا صديقي، لأني لا أشبع ولا أرتوي... لكأنَّ في روحي شبقاً لا يشبعه قوتٌ ولا لذّة.

وتحينُ التفاتةٌ مِن أشنار إلى كالوباي فيراهُ غافياً على سريرٍ خشبيٍّ رَثٍّ في المقصورة، فينزعُ وشاحَه ومعطفَه ويُلقيهما عليه، ثمَّ ينزوي هو في طرفِ المقصورة، ويستسلمُ لنومٍ قصيرٍ لا يصحو مِنه إلّا على صوتِ كالوباي.

كان كالوباي قد استيقظَ عندما أخذتْ أنوارُ الفجرِ تُجرِّحُ الليل. وإذ أطلَّ مِن بابِ المقصورةِ ولمحَ قبرص أخذ يهتفُ بأعلى صوتِه: إنها قبرص، يا أشنار! نحن على بُعدِ صباحٍ مِن مرساها.

وكان الصباحُ يرسو على الشاطئ، عندما وصلت السفينةُ إلى الجزيرة.

قبرص المحطةُ الأولى في الطريق

ها هي قبرص!

مرفأُها عابِقٌ ببعضِ المراكبِ الشِّراعيَّة، وبحَّارتُها مشغولون بأمراسِ السفنِ والبضائع، والناسُ يروحون ويجيئون كأنَّهم على سفرٍ أو مِن سفر.

ما إن ترجَّلا مِن السفينة حتى بَدتْ لهما ملامحُ شمسٍ تشرقُ مِن خلفِ البحر الممتدِّ أزرقُه الى حافةِ السماء، ففوجئَ كالوباي وقال:

– انظرْ يا أشنار! الشمسُ تطلعُ مِن الغَربِ هنا، وليس مِن الشَرق. إنّني لا أصدِّق. معجزةٌ أن تشرقَ الشمسُ مِن البحر. في بلادِنا نحن يتمُّ الشروقُ مِن وراءِ الجبال، أي مِن الشرقِ الحقيقي، ويكون الغروبُ في البحر، أي في الغربِ الحقيقي.

ويثيرُ المنظرُ دهشةَ أشنار، منظرُ الشمسِ تلبسُ أشعَّتَها وهي تغتسلُ بماءِ البحر، فيقولُ في نفسِه: غريبةٌ هذه الظاهرةُ ولا شكّ. لأولِ مرَّةٍ نرى الشمسَ في موضعٍ غير الموضعِ الذي أَلِفناه. ما أغرب هذا العالم! لماذا؟ وكيف؟ ألا يبدو هذا المَشهد لغزاً من الألغاز؟

إذا كانت شمسُ بيبلوس على حقٍّ في شروقِها وغروبِها، أفلا تكون شمسُ قبرص هي التي بدَّلت منازلها وغيَّرت المسار؟!

ولم يتوقَّف أشنار عند حدودِ الدهشة، إذ قضى فضولُه كالعادةِ بأن يتخطّى ملاحظةَ كالوباي الوصفيَّة التقريريَّة: "الشمسُ تشرقُ مِن الغرب" ليتساءَلَ:

أليسَ هذا الكون لغزاً؟ لماذا ننصرفُ دائماً إلى ما نعرفُه، ونطمئنُّ إلى أنَّه حقيقيّ، ونجدُ خطراً في ملازمةِ المجهول؟

ما هو حقيقيٌّ في بيبلوس معكوسٌ في قبرص.

ليتني أستطيعُ أن أجترحَ المعجزات، فأجعلُ مِن يومي أياماً، ومِن عمري أعماراً، لأعبرَ الأزمنةَ الآتية كلَّها، لعلَّي أستجلي هذا المجهول الذي يحيطُ بنا فينجلي ويتبدَّد الغموض.

وكأنَّ كالوباي أدركَ ما يجولُ في خاطرِ صديقِه، فقطعَ حبلَ أفكارِه، ليقول:

– مَشرِقُ الشمسِ عندنا أصوَب وأجمَل مِن مشرقِها هُنا. فهي أولاً تشرقُ مِن حيث يجب أن يكون الشروق، مِن الشرقِ وليس مِن الغرب. إنها تولدُ في بيبلوس مِن وراءِ الجبال، وتأوي، بعد انقضاءِ النهار وجهدِ المساء، الى فِراشِها بين أمواجِ البحر. أمّا هنا في قبرص، فالشمسُ تطلعُ مِن البحر، والى البحرِ تعود. أليسَ هذا نقصاً في مخيِّلةِ الوجودِ واختصاراً للجمال؟!

فرحَ أشنار برأي صديقِه التقليديِّ الذي لا يخرج مِنه إلّا ليرجعَ إليه، رأيُ المُطمئنّ والمُرتاح إلى ما اعتادَه، ورأى في العودةِ إلى التمتّع بمذاقِ المخيّلة ما يلذُّ ويفيد، فقال:

– أنا مِثلُكَ يا كالوباي، ألِفتُ في بيبلوس رؤيةَ شاطئٍ رمليٍّ جميل، تداعبُه أمواجٌ تتكسَّرُ زبداً أبيضَ على شفاهِه. بيبلوس شاعرةٌ يا صديقي. قصيدتُها مِن عِناقٍ أبديٍّ بين الشاطئِ والبحر، ومناجاة دائمة بين الجبلِ والأفق.

– أنا مثلُكَ ألِفتُ جبالاً تحتضنُ بيبلوس، وتمنحُها مِن قوَّتِها قوَّةً، ومِن صلابتِها صلابةً، جبالاً مِنها تهطلُ الغيوم، وتفوحُ رائحةُ الورقِ والأشجارِ والثِمار.

– مثلُكَ أنا ألِفتُ سماءً تزورُها الفصولُ الأربعةُ في مواعيد النجوم المحدَّدة.

– مثلُكَ أنا تُدهشُني غيومٌ تزورُنا، تأخذُ أشكالاً لرؤىً وتماثيلَ وحكاياتٍ غيرِ واقعيَّة، لا تلبث أن تصيرَ نُتَفاً مِن ضبابٍ وشِعرٍ تتحوَّلُ أرديةً بيضاءَ وملاءاتٍ واسعةَ الأطراف.

ثم أردفَ أشنار:

– فيها تعلَّمتُ مواقيت الأيام، مِن بابل وديانـاتِها أخذْنا عصارةَ الحكمةِ والأزمنة. فيها استحالت الساحاتُ أيامَ لقاءٍ يخوضُ فيها الناسُ أعمارَهم حبّاً ورِزقاً وعَمَلاً وتسليةً وأحزاناً كذلك. غير أنني كنت لا أنفكّ أتساءَل: "هذا الذي أراهُ جميلاً وطيِّباً، أليس أشبه بسجنٍ جميلٍ لروحي؟! كنتُ أتوقُ إلى ما لا أعرفُه. وما أتوقُ إلى معرفتِه هو هذا العالم الذي يُقيمُ خلفَ البحر. كنتُ أبحثُ عن جمالٍ أتذوَّقُه بكليَّتِه، عن العناقِ بشموليَّتِه، عن الحبِّ بمَلَكوتِه، عن الحزنِ بدموعِه وشاعريَّتِه، عن الغيومِ ومساراتِها السماويَّةِ وأقنيتِها المتعرّجة في شتاتِ الرملِ والأرضِ والتراب".

كان بي شوقٌ إلى السؤال ومعاناةِ الكشف. ما كنتُ أعرفُه كان يخنقُني، وما لا أعرفُه كان يشوِّقُني. ولكن، لم يكنْ يخطرُ في بالي، يا كالوباي، أن أرى الشمسَ طالعةً مِن مكانٍ آخر.

الشمسُ هنا بنتُ الماءِ في الصباح، وعروسُ الماءِ في المساء.

الشمسُ هنا شمسٌ بين ماءَين. كيف يكونُ ذلك؟ ولماذا؟ لستُ أدري!

والتَفَتَ أشنار، فلمحَ مركباً على متنِه بحّارةٌ سمرٌ قادمون مِن فينيقيا، ينقلون ما أنتَجَتْه بيبلوس مِن منسوجاتٍ وأصباغٍ وأخشاب. وفيما هو آخذٌ بمراقبتِه متهادياً على الأمواج، سألَهُ كالوباي:

– إلى أين تريدُنا أن نذهب؟

فأجاب:

– إلى بلادِ الإغريق. سنمضي إلى أثينا وأولمبيا. قبرص ليست محطّ رِحالنا. إنَّها محطةٌ موقَّتةٌ مفيدة. عَرفنا فيها طبيعةً مختلفةً عن طبيعةِ بيبلوس. أمّا في أثينا، قبلةِ أنظارِنا، فستنفتِحُ الدنيا، وفيها سنعرفُ أكثر، وسنتكلَّمُ أكثر، وسنكتشفُ بعضاً مِن مجهول وقد نشبعُ مِن مَعينِهِ الثّرِّ ونرتوي.

قالَ كالوباي بشيءٍ مِن المزاح:

– فهمت... فهمت... هي الكلماتُ عينُها: الدنيا، السماء، الرحيل، المعرفة، والسعي الدائم إلى ما هو أبعَد... وكلُّها كلماتٌ لطالما سمعتُها مِنك، فأنتَ تردِّدُها كأنَّها كأسٌ تُسكِرُك فتحرِّكُ لسانَك بنشوةِ التكرار.

– ما أعجَبَكَ مُصرّاً على البحثِ في الوَهمِ عن الوجود!

– ثِق، يا صديقي، بأنَّكَ لن تجدَ شيئاً أجمَل ممّا وجدناه، وممّا منَحَتْنا إيّاه بيبلوس.

سألَهُ أشنار مستوضحاً:

– هل ستتخلّى عنّي هنا؟ ألم نتواعد، ونوطِّد العَزمَ على الاشتراكِ في سباقاتِ أولمبيا؟ لا بدَّ يا كالوباي من أن تفي بوعدك.

– سَمعاً وطاعة، أجابَ كالوباي، لن أتخلّى عنك في مغامرتِك هذه. إنني أكثر شوقاً مِنك إليها، وأشدّ رغبةً فيها، لأنني سأثبِتُ لك أنَّ ما نعرفُه يجب أن نستحوذَ عليه ونستفيدَ مِنه. أنت، يا عزيزي، تستنزفُه بسرعة. فعندما تقرأُ شيئاً، لا ترتاح ولا تُريح، بل تطلب دائماً الاستزادة. إنَّك لا تتمتَّع بِما تعرفه، لأنَّك مداومٌ في عذابِ الشَّوقِ إلى ما لا تعرفه بمَعْزلٍ عن كونِه موجوداً أو غير موجود.

الموجودُ الحقيقيّ، يا صديقي، هو الماثِلُ أمامَ عينَيك وحواسِك الخمس. لِذا، لا أزال أدعوك إلى التمتُّعِ بالمَعارف وبكلِّ لحظة، مثلما يتمتَّعُ السكارى بالخَمرة المعتَّقة. والحقائقُ المستمرَّة، يا أشنار، كالخمرة المعتَّقة، كلَّما مرَّ عليها الزمن، طابَ مَذاقُها، واحتلَّت مرتبةَ الخلود.

ما كادَ كالوباي يتلفَّظُ بالكلمةِ الأخيرة "الخلود" حتى شدَّه أشنار بيدِه، وأخذا يذرعان معاً أرصفة المرسى جيئةً وذهاباً للاستفسار عن اليونان وعن سفينةٍ تقلُّهما إليها في أقربِ وقتٍ ممكن.

مَرّا بعشراتِ البحَّارة الشباب في الطريق، وواصلا السيرَ إلى أن بلغا زاويةً هادئةً تربَّعَ فيها بحَّارٌ عتيقٌ خمَّرَت ملوحةُ البحر سحنتَه، وعتَّقَت الشمسُ لونَ جلدِه، وشعَّثَت الريحُ خصلات

شَعرِه، ومشحَ مِلْحُ البَحرِ بياضَ لحيتِه وشاربَيه.

قالَ لهما: بلادُ الإغريق على مرمى أيامٍ ثلاثة مِن هنا، وإحدى السفن ستُبحِرُ إلى اليونان عند هبوطِ الليل. ثم أفسحَ لهما مكاناً إلى جانبِه، وهو يقول:

– ارتاحا قليلاً. سنُقلِعُ قريباً. البحرُ ساكِنٌ اليوم، والأمواجُ عاقلة، والرياحُ هادئةٌ مستكينة. كلُّها توحي بأنَّها ستكونُ رفيقةً بنا، وستدعنا نمخرُ اليَمَّ بيسرٍ وسهولة.

كان المرسى محطّةً للتجَّار مِن الشاطئِ الفينيقي، وبلادِ ما وراء البِحار. التجَّارُ الفينيقيون يروحون ويغدون بنشاطٍ كأنَّ قبرصَ مدينتُهم الثانية، فَوَطَنُ التِّجارةِ حيث مالُها وسِلَعُها وأسواقُها التجاريَّة.

سأل أشنار البحَّارَ العجوز:

– هل تعرف جبلَ الأولمب؟ وماذا عن الألعابِ التي تجري هناك؟

– طبعاً أعرفُه، وأعرفُ حِكاياته وأساطيرَه. أنا أثينِيٌّ عتيق. سأروي لكُما قصَّةً معبِّرة، فأصغِيا إليَّ جيِّداً.

ذاتَ عام، اشتركَ أخوان في السِباق، وحقّقَ كلٌّ مِنهما فوزاً باهراً، اجتاحَتهما على أثرِه سعادةٌ غامرةٌ أسكرتْهما حتى كادَ يُغمى عليهِما مِن شدَّة الفَرح. سُرَّ والدُهما بالنتيجة، فأقامَ لهما أجمل عُرس، وأخذَ يرقصُ فيه ويلوِّحُ بيدَيه كمجنونٍ ضاحك. وفيما هو في قمَّةِ الغِبطة يرقصُ رقصاً هستيريّاً رائعاً، تقدَّمَ منه رَجلٌ حكيم، ونصحَ له بأن ينتحرَ واضِعاً حدّاً لحياتِه. فتجمَّدَ عندئذٍ متراخي اليدين، وتشبَّثَتْ عيناهُ بالحَكيمِ، وقالَ، وقد ارتسمت على وجهِه أكثرُ مِن علامةِ استفهام، لماذا تريدُني أن أنتحرَ؟

فأجابَه الرجلُ الحكيم:

– لأنَّه لن تُتاحَ لك بعد اليومِ سعادةٌ كهذه السعادة. الأفضل أن تذهبَ وأنت في ذروةِ سعادةٍ لن تتكرَّر.

لمّا انتهى البحّارُ مِن حِكايتِه سادَ صمتٌ خفيف. لاحظَ كالوباي في أثنائِه شرودَ أشنار، وأيقنَ مِن نَظراتِه أنَّه كعادتِه مسافرٌ في الكلمات إلى حيثُ تُقيمُ الأفكارُ في أمكنةٍ نائيات.

نظرَ أشنارُ إلى البحّارِ بإعجابٍ وقال:

– أنتَ لستَ مِن فصيلةِ البحّارة. أنتَ بالأحرى مِن حُكماءِ اليونان. الحكايةُ التي رويتَها لنا هي أبَعدُ مِن الأولمب، وأرحَبُ مِن ساحاتِه. وبودِّي أن أسأَلَكَ: لماذا لا تتكرَّر السعادة؟

لماذا لا تدوم؟ لماذا نُعطى جرعاتٍ قليلة مِنها فنَمضي من اللذّةِ العابرة، إلى الفرحِ العابر، إلى السعادةِ العابرة، كأنّ لا دوامَ أو استمرارَ لشيء؟ لماذا ننحدِرُ بسرعةٍ مِن السعادةِ إلى التعاسة، كأنَّنا

نسقطُ في فراغٍ مُظلمٍ سحيق؟ ما الذي يجعلُ الإنسانَ مارداً تارةً، وقَزماً تارات؟ ألِعلَّةٍ في الإنسانِ نفسِه أم في العالَمِ أم في كِليهِما على السواء؟...

أين تكمنُ السعادةُ في الطعامِ الشهيّ؟ في النسيمِ العليل؟ في النومِ العميق؟ في الجلوسِ مع مَن يحبُّه قلبُك؟ هل هي حوارُ النفسِ مع النفس؟

لماذا لم نسألْ أنفسَنا ما هذا الذي نحن فيه؟ ما المعنى وما الهدف من حياةٍ قصيرةٍ قصيرة فيها همومٌ طويلةٌ طويلة؟

أخافُ أن تقودَنا الرحلةُ نحو اكتشافِ السعادةِ إلى اكتشافِ أنَّ الحياةَ سرقَتْنا مِن أنفسِنا، وسرقَتْ أعمارَنا، وأننا نعومُ بلا ميناء ونتوهَّمُ أهدافاً بلا وجود؟

دُهشَ البحّارُ مِن سيلِ الأسئلةِ التي أمطرَهُ بها أشنار، وكان قد تناهى إلى سَمْعِهِ أنَّ أفلاطون في طور بناءِ الأكاديميا، وقال:

– يا عزيزي، أنا لستُ رجلاً حكيماً ولا عبقريّاً، ولا أدَّعي الحِكمةَ والعبقريَّة. أسئِلَتُكَ هذه قد تلقى أجوبةً عنها عند حكماءِ أثينا. فهناكَ فلاسفةٌ كُثر، تَجِدُ عندهم مِن ثِمارِ المَعرفةِ ما يُساعِدُكَ على إيجادِ أجوبة كافية وشافية عن أسئلتك.

أستميحكَ عُذراً، يا صاح، أنا بحّارٌ ليسَ إلّا. وما يميّزُني عن غيري هو فقط تجربتي الطويلة.

في تلك الأثناء كانت حركةُ التجّار على الرصيفِ آخذة بالازدياد، فنهضَ كالوباي وانضمَّ إليهم، علَّهُ يُرَوِّحُ عن نفسِه بعض الشيء، تاركاً صديقه حائراً يتخبَّطُ في أسئلتِه، ويردِّدُ في نفسِه:

– لعلّي كنتُ ضحيَّةً دائمةً لهذا الذي أدعوه: ماذا بَعد؟ ماذا بَعد؟ ماذا بَعد؟ لعلّي كنتُ ضحيَّةَ هذا البحثِ الدائمِ عن الـ"ما بَعد"، إلى ما لا أعرفه، وما لم أُدركه، وما لم أحصل عَليه بَعد.

اختارَ كالوباي مِن بين البحَّارةِ هؤلاءِ بحّاراً شابّاً مكتملَ البنية، مفتولَ العضلات، خفيفَ الحركة، طلْقَ المحيَّا، فاستمهَلَه، وقالَ له بعدَ أن عرَّفَهُ بنفسِه:

– هلّا تحدّثُني قليلاً عن أبطالِ الإغريق؟ هل هم أقوياءُ جدّاً، هل هم أنصافُ آلهة؟

فابتسمَ البحّارُ ساخِراً، وأجاب:

– لا تهتمّ بالخرافات. إنهم مثلي ومثلك، أقوياءُ فقط، لكنّ بعضَهم يتَّصِفُ بالحيلةِ والدهاء، وبعضَهم بالصَبرِ والمثابرة، وبعضَهم بالإيمانِ بالانتصار. وغالباً ما يفوزُ المؤمنون، لأنَّ مَن يؤمنُ بالفَوزِ يعملُ مِن أجلِه بقوَّةٍ وحنكةٍ ومثابرةٍ وجدٍّ ومراس. ليسَ ثمَّة انتصارات سهلة. الانتصارُ العظيم بحاجة إلى جهدٍ عظيم.

ويُدوِّي بوقُ السفينة فينتصبُ البحَّارُ واقِفاً، ويهرعُ إليها ملوِّحاً بيدَيه.

وفي المساء، وبعد أن كان أشنار وكالوباي قد جالا في أنحاءِ مرفأ قبرص، قَصَدا أحدَ الأمكنةِ القريبةِ مِن الشاطئ، لقضاءِ قسطٍ من الراحة. فَهُما في المساء، على موعدٍ مع السفينة لتُقلَّهُما فَجراً

إلى اليونان.

* * *

ويوافي الفجر فتُبحرُ السفينةُ مِن المرسى، وهُما على مَتنِها، محمَّلةً ببضائع كثيرة: أنسجةٌ زاهيةُ الألوان، أصباغٌ مستخرجةٌ مِن الأشجار والأعشاب، زجاجٌ مسكوبٌ مِن الرمل، وأخشابٌ تفوحُ مِنها رائحةُ الأرز والسنديان. كانت السفينةُ تحملُ سِلعاً من إنتاج بلادِ بيبلوس، وسائرِ المدنِ الفينيقيَّة، فَضلاً عن بضائع عدَّة مِن مصادر أخرى.

دفعَ أشنار دراهمَ بابليَّة ثمن إبحارِه وكالوباي، ثم انتحى في السفينةِ ركناً مريحاً، مزنَّراً بحاجزٍ خشبيّ متين يصدُّ الرذاذَ المتناثرَ مِن الجانبَين كلّما اصطفَقَ البحرُ أو اصطدمت السفينةُ بالموج.

وبعد استراحةٍ قصيرة، توجَّها معاً إلى حيث بحّارةٌ مسافرون، لفتَ رجلٌ مِنهم في العقدِ السادس نَظَرَ أشنار.

قرأ في عينَيه العمقَ الهادئ. والعينانُ كتابُ الإنسان، قلبُه وعقلُه وسريرتُه. فدنا مِنه مشفوعاً بأنسِه، واستأذنَهُ أن يكون رفيقَه في الرحلة، فوافقَ بطيبةِ خاطر، وقَبِل دعوتَهُ إلى الركنِ الذي استقرَّ فيه مع صديقِهِ كالوباي.

ولم يطلْ بأشنار الوقت حتى اكتشفَ أنَّ "باترو ليس" الرجلَ الذي اصطفاه رفيقاً أشبهُ بدائرةِ معارف حيَّة، فهو مطَّلعٌ على أحداث البلدان، وأخبارِ الشعوب، ومحيطٌ بالعِلم والعلماء.

وكان يقولُ في نفسِه، وهو يصغي إليه محدِّثاً عن بعضِ الأعلام الإغريقيين، ليتَ لي مِن المعرفة ما له! إنَّ جَهلي بما يعرفُه يجعلني أشعرُ كأنّي على صَواب في البَحث عمَّا يخبِّئُهُ الإغريق.

حدَّثَ الرجلُ أشنار عن "بروتاغوراس" مؤسِّس المَذهب الإنكاري القائم على الشكِّ في وسائل المعرفة، وكفايتِها في إدراك الحقِّ المجرَّد، والقائل باستحالةِ معرفةِ حقيقةِ الأشياء لأنَّ الحواسَ هي الدافعُ لاستكشاف المعرفة الإنسانيّة، ولأنَّها تختلفُ باختلافِ الأفراد، وتتباينُ بتباينِ ظروف الإدراك.

وحدَّثه أيضاً عن "فيثاغوراس"، متوقِّفاً عند الشقّ الفلسفي النَظَري من مَذهبِه الذي ينطوي على تعليلٍ لِماهيّةِ الكَون، مؤدّاه أنَّ حقيقةَ العالَمِ ليستْ باعتبارِ الماء والهواء والتراب والنار أي المادة الظاهرة التي يتألَّف مِنها، ولكن باعتبار الأعداد المنتظمة المنسجمة المتآلفة النّسب، وأنَّ الموجودات على اختلافها وتنوّعِ صوَرِها متفرّعة مِن الواحد، ومتوقِّفاً كذلك عند الشقِّ الاجتماعي العلميّ الذي يعتبرُ النَفسَ خالدة، أشرفَ مِن المادَّة، ومترفّعةً عنها ترفّع العدد عن المعدود، غيرَ مغفلٍ الرَّبطَ بين خلودِ النفس وشرفها وترفّعها، والدّعوة إلى الزهد في شؤون الدنيا، واعتزال

المجتمع لصون النفس عن فسادِه، وكبتِ رغباتها الماديَّة وحملِها على التأمّل في الحقائق المجرَّدة والاعتبارات الروحيَّة.

ولمّا رأى أشنار مأخوذاً بالمعطيات الفلسفيَّة الجديدة هذه، تشجَّعَ على المتابعة، فركَّزَ على "ديمقريطس" ونظريّتِه عن الوجود، بدءاً بالذرَّة وتحديدِها، وخصائصِها، واختلافِ الموجودات باختلافِ أشكال الذرّات المكوِّنة لها، ووضعِها، وترتيبِها في الموجود الواحد، وبتبعثرِ الذرّات وانتفاضِها في السَديم وتجمّع الثقال مِنها بعاملِ الجاذبيّة في مركزِ العالم، وارتقاءِ المستدقّات الخفاف منها إلى أعالي الكرة وأديمِها، وبتكوّن مادَّة التراب مِن الثقال، ومادَّة الماء الذي استقَرَّ في الحنيات والوهاد مِن المتوسّطات بين الثقل والخفَّة، ومادَّة الفضاء التي تتنفَّسُها مِن الخفاف، وانتهاءً بالتجمّعات التي تحصل بفعل انطلاق الذرّات وعبورِها وتماسّها وارتجاجِها وتصادمِها، أي بالحركةِ الذريَّةِ التي لا تتوقّف، وما أدَّى إليه تآلف المتشابهات من اجتماعٍ للنيِّرات والمجرَّات، وتكوُّنٍ للأرض وممالك الجماد والنبات والحيوان والإنسان بما فيها من أنواعٍ وأجناسٍ وكائناتٍ فرديَّة.

وأنهى كلامَه على "ديمقريطس" بالتَّركيزِ على الفراغ، الشقّ الثاني من نظريَّتِه، على اعتبار أهميَّتِه بالنسبةِ إلى الذات لأنَّه هو الذي يتيحُ الحركة التي يستمرُّ بها نظام الكَون والفساد، لافتاً نظَرَ أشنار إلى أنَّ فلسفةَ "ديمقريطس" هذه كانت ردَّةً على مذهب "هيرقليطس" الذي أخضعَ كلَّ ما في الكون لقانونِ التغيُّر والزوال، وردّةً في الوقت نفسه، على "برمنيدس" الذي، بالثابتِ المستقرِّ وبغيابِ الحركة، رَهَنَ الوجود رابطاً بين الحقيقة والثبات والتغيُّر وخداعِ الحواس.

السؤالُ الذي كان يلازمُ أشنار منذ بدءِ الحوار، ويلحُّ عليه حين كان الرجلُ الحَكيمُ يتحدَّث، ولكنَّه لم يفصح عنه هو:

– إذاً أين حدود المعرفة؟ أوَليسَ مِن المُمكنِ بلوغُ حدّها إلّا عبرَ الفلاسفة ونظريّاتهم الخاصَّة حول العالم؟!

ويطولُ حديثُ السَفر، فيطاول أحدث ما شَهِدَتْه أثينا، ألا وهو سقراط الذي استفاضَ المحدِّثُ في الكلامِ على نزاهتِه، وحريَّةِ رأيِه، وثباتِه في موقفِه، واكتشافِه الحدَّ والماهيَّة، وأثرِ هذا الاكتشاف في فلسفتِه، وموتِه متجرّعاً سُمَّ الشوكران حتى الثمالة في سبيلِ معتقده.

أثارَ استرسالُ "باتروليس" في الكلامِ عن سقراط فضولَ أشنار فسألَه أولاً وقال:

– أرجو أن تزيدَني معرفةً بسقراط، فهل لي أن أعرفَ مِنك أين وُلِد؟ ومتى؟ وكيف كانت نشأتُه؟ و...

فقاطَعَه مُستجيباً:

– وُلِدَ في أثينا! من أبٍ نحّات، وأمٍّ قابلة، ونشأ نشأةً متواضعةً جَمَعَ فيها نقائض عِدَّة هي مظهرُه القبيح، وعقلُه الراجح، ولسانُه الفصيح.

ثم سألَه ثانياً عن الموضوع الأساسي الذي كان يشغلُه ويستأثرُ باهتمامِه فقال بهدوء:

– الإنسانُ، بكلِّ تأكيد. فالكونُ الطبيعي، وموجوداتُه الحسّية، وظاهراتُه، لم يكن ليتناولها لو لم تكنْ مركزَ الإنسان، وبيئتَه، ومكانَ نشأتِه ونمُوّه.

وأردفَ:

– كان همُّه أنْ يجعلَ الإنسان بل الناس يفكِّرون بوضوحٍ في الطبيعةِ المجرّدةِ للأخلاقيات، كالعدالة والشجاعة مثلاً، بدلاً من مجرّد الانسياق وراء العقائد التي درجَ عليها العُرف.

وسألَه مِن ثمَّ عن التعاليمِ التي كان يطالِبُ بتدريسِها، والطريقةِ التي كان يعتمدُها في التَّدريس. فأوضحَ:

– إنَّه لم يكنْ يطالِب بتدريسِ تعاليمَ معيَّنة، بل كان يكتفي فقط بطرحِ الأسئلة التي تُعينُ الناسَ على انتزاعِ الحقيقة من ذواتِهم بالتفكير.

ثم استكملَ الإجابةَ مفصِّلاً:

– لقد اعتمدَ الطريقةَ الحِوارية، فكان يحاوِرُ الناسَ في أيِّ مكانٍ يجدُهم فيه، مُراعياً في حوارِه الترتيبَ الآتي: طرحُ السؤالِ، فالاستماع إلى الأجوبة، فالتصحيح عند الاقتضاء.

وخلصَ في النهاية إلى أنَّه كان يدع محاوره يسأل، مستدرجاً إيّاه أحياناً إلى الخطأ ليعودَ به ثانيةً إلى الصواب، كما كان يتعمَّدُ هو نفسُه الخطأ أحياناً أخرى تاركاً لمُحاوِرِه فرصة اكتشافه.

وأطرقَ هنا أشنار يفكِّر، و"باترو‌ليس"، ظاناً أنّ أشنار قد استنفَدَ كلَّ ما في جعبتِه مِن أسئلة، بادَرَ إلى رفدِه بمعطياتٍ إضافية، ممهّداً لها بقولِه "قد يهمُّك أن تعرف". ويتضحُ مِن خلالِ المعطياتِ هذه أن سقراط، خِلافاً للكثيرين سِواه، أرادَ أن يجرِّدَ أبطالَ الحروب مِن هالاتِهم لأنَّ معظمهم، في رأيِه، يجهلون حقيقةَ الشجاعة، وأرادَ أيضاً أن ينزعَ عن هامةِ السياسيّين أمجادَهم لأنَّهم يجهلون جوهرَ السياسة، كما أرادَ بالتالي، وقبلَ أيّ شيء آخر، أن يَقلِبَ سُلّمَ القيَم الذي يحطُّ مِن قَدْرِ العقول، ويحبسُها في قمقمِ التقليدِ والخرافة.

ولكن، يبدو أنه فاتَ "باترو‌ليس"، وهو يسوقُ معطياته الجديدة أنَّ أشنار لم يستنفدْ أسئلتَه كلَّها، وأنَّ ثمَّةَ أسئلةً كثيرةً أخرى لم يطرحْها، ناتجة مِن الصدمةِ التي أحدثتْها في أعماقِه روايةُ موت سقراط. فقد كان، في تلك الأثناء، يتساءَلُ في نفسه:

– هل للعِلمِ شهداء؟ هل يُعتَقَل الإنسان مِن أجلِ فِكرة؟

وكان كلَّما ازدادَ توغّلاً في ذاتِه، ازدادت أسئلتُه المعذّبةُ والمحبَّبةُ في آن واحد.

– هل يستحقُّ الإيمانُ التضحيةَ بالحياة؟ وبعدَ موتِ الإنسان، مَن يحملُ مشعلَ العِلم؟

لماذا يتعيَّنُ على الإنسانِ أن يغامرَ بوجودِه كلِّه، وبحياتِه كلِّها، مِن أجلِ قناعاتِه ومعتقداتِه، أي مِن أجلِ ما يعتقدُ أنَّه الصواب؟

لماذا هذه الثنائية الحادَّة بين الخير والشرّ، الجَمال والقبح، العدل والظلم، الكرامة والمذَلَّة، الثراء والفقر...؟

ألا يستطيع العالَم أن يتخطّى هذه الثنائيّات الطاحنة؟ وأخيراً وليس آخراً، لماذا، إذا خسر الإنسان معتقدَه، يعيشُ في بؤسِ الجهل؟

أظنُّ، قال أشنار في نفسه، "أنَّ العالم بحاجةٍ دائمةٍ إلى إعادةِ ترتيب. الفوضى تقتلُه، والثنائياتُ تنحرُه".

انتابَ أشنار وهو في غمرةِ هذه التساؤلاتِ شعورٌ باللافائدة. عادَ يفكِّرُ بقدرةِ الجَسد وطموحِه في تحقيقِ الإنجازات في الألعابِ الأولمبية.

شعرَ بأنَّ هذا الكون المحصَّن بالخوف ليس سوى كتاب لفَّه الغبار، ملقىً على رفٍّ، لا يدَ تُقبلُ عليه سوى يد العابثين، تمزِّقُ أوراقَه، وتنتشلُ مِنه الحقائقَ الوهميَّة.

لم يكنْ يريدُ التجمُّدَ والاستكانةَ والتمتُّعَ بالقَبولِ، لم يُردْ أن يصبحَ ذلك التابع للآخرين مِن أصحابِ السلطةِ مخافة أن يسحقَه التاريخ، وتسبقَه الأزمنةُ وتطويه.

طوالَ رحلتِه هذه كان التمرُّدُ يحدِّثُه. كان صديقَه الوفيَّ وخليلَه الحقيقيّ وزميلَ مغامرتِه الكبرى. حدَّثَه التمرُّدُ أن يمحوَ ملامحَه الموروثةَ فلا يعاتبه التقليدُ ولا تقيِّده التقاليد، ولم يعدْ يريدُ أن يركنَ إلى مسموعٍ ومنظورٍ ومحسوس.

اجتاحَه طوفانٌ مِن الثوراتِ على الأفكارِ المتخلِّفةِ التي كبَّلَتْ عقلَه منذ نعومةِ أظفاره. عقلُه هذا المتلقّي المعبَّأ بما يرفضُه وما يستحيلُ أن يقبلَه. كبَّلَه الصمتُ المُطبقُ على فمِه ولسانِه وأخلاقِه.

أمَلَ مِن رحلتِه أن تمنحَه التأمُّلَ والاستماعَ والاستمتاعَ والنقدَ والقبولَ والرفضَ والصراخَ والبكاءَ والتعبيرَ والتغييرَ والحرّيةَ والحياةَ والكرامةَ، وأن يرتقيَ به الإنسانُ إلى كمالِ الإنسانيةِ، لذلك كان لا بدَّ من أن يتمرَّدَ على نفسِه النائمةِ في قصرِ بيبلوس الملكي، وألّا يقاوم موقفَه الرافض، ألّا يكتم صراخَه في وجهِ مَن ادَّعى امتلاكَ المعرفة.

كان كالوباي يراقبُ ما يدورُ بين "باتروليس" وأشنار، ويُصغي أحياناً إليهما كاتِماً امتعاضه مِن حديثٍ غريبٍ عن عالَمٍ بالغ التعقيد لا يَعنيه ولا يُثير اهتمامَه مِن قريبٍ ولا مِن بعيد، جاهداً في إخفاء خشيته مِن أن يدفعَ أشنار فضولُه نحو الولوجِ أكثر فأكثر في أفكارِ الإغريقِ المعقَّدة، خصوصاً أنَّه كان يعرفُ أنَّ رغبةَ أشنار في الاشتراكِ في الألعابِ الأولمبيةِ تخفي رغبةً أكبرَ في دراسةِ فلاسفة الإغريق حيث كان يسمعُ بهم وبمآثرِهم مِن بعيد.

كان يُمكنُ أن يُشاركَ، بل كان حتماً سيشاركُ لو نحا الحديثُ منحىً آخرَ، وتمحوَرَ حول نوعٍ آخر مِن الموضوعاتِ كالألعابِ الرياضيَّةِ في أثينا، أو أبطال الأولمب.

على عكسِ أشنار، لم يكن التعقيدُ ليثيرَ فضول كالوباي. فكالوباي لا يرغبُ في مواجهةِ الفِكر بل كان يرغبُ في بساطةِ العَيش. يرتسمُ على جبينِه هدوءٌ ويستقرُّ وضوح. في روحِه غبطةٌ وفي سلوكِه فرح. يبدو كأنَّه قانعٌ بالحياة، راضٍ بتفاصيلِها، إذا شدَّته قطراتُ الماءِ ذهَبَ معها مُسْلِساً لها قيادَه، أو جذبَته الحياةُ لاحَقَها بعواطِفه ورغباتِه، وإذا ارتفعت الصواري رفعَ رأسَه ليعاين هاماتِها والأشرعة. يغمرُه السرورُ، ويتميَّزُ بالهدوء، وتشكِّل الأشياءُ الصغيرةُ بالنسبةِ إليه مصدرَ سعادةٍ ومتعة. يفهمُ ما يُقال، ولا يعلِّقُ عليه. يسمعُ عن الفلاسفةِ الكبار، ولا يرفّ له عقل. عقلُه مشغولٌ بما تُقدِّم له حواسه الخمس، والعالم. عقلُه مشغوفٌ بالتَّنقيبِ في ذاكرتِه عمَّا تختزنُه مِن ممتعٍ وجميل. عقلُه يفهمُ تعاريجَ الفِكر ولا يتوقفُ عندها. إنَّه بالأحرى إنسانُ التذوّق، والشمّ، واللمس، والسمع، والبصر، أي إنسانُ الحسّ، والبرهةِ الخالدة، واللحظةِ الدائمة، والجهدِ المُمتع.

وأمّا أشنار فتمنّى في لحظةِ تأمُّلِه لو كان كالوباي يشاركُه قلقَه الفكري. فلو كان مثله لكان تحرَّرَ مِن قلقِه، وارتاحَ مِن جموحِ رغباتِه، وانغرسَ في الواقعِ مفتِّشاً في تفاصيلِه ليكتشف إذا كان الوجودُ المؤقَّتُ مِن حولِه ممتلئَ الوجود.

تمنَّى ذلك، ولكنَّه رفضَ أن يكونَ كذلك، أي أن يكونَ مُطيعاً لحواسه الخمس، راضخاً لمقتضياتِ الواقعيّةِ السياسيَّة التي يَنتهجُها والدُه في بيبلوس.

قالَ في نفسِه: لقد تخلّيتُ عن أشيائي كلِّها، وأشيائِهم كلِّها، لأبحثَ عن الجَمال، كلِّ الجَمال! عن الحريَّةِ لا عن جزءٍ مِنها. تركتُ بيبلوس كي تنعمَ عيناي بالامتلاء، كي يعمرَ قلبي بالحبِّ الدائم، كي ينصرفَ عقلي إلى التمتّع باللامتناهي.

لا، لن أكونَ أبداً ابنَ البرهة، وأسيرَ اللحظة. نأيتُ بنفسي عن موجباتِ إمارتي وعن رغباتِ والدي في أن أتمرَّسَ بفنونِ الحُكم لأكونَ رسولَ التخطّي. وإنني ماضٍ قُدُماً في هذا الاتجاه...

وفيما كان أشنار منطوياً على ذاتِه، مغرقاً في صمتِه، بَدَت اليابسةُ مِن بعيد، فصرخَ كالوباي بأعلى صوتِه: اصحُ يا أشنار مِن يقظتِك! إننا على وشكِ الوصول.

ثم ترسو السفينةُ على الشاطئِ اليوناني، معلنة بدايتَين: واحدة مع الأولمب في مغامرةٍ أولمبيَّةٍ عابرة، وأخرى مع العقلِ في مغامرةِ استكشافِ غِنى عقولِ الإغريق كما أوحى له حديثُ "باترو‌ليس" على متنِ السفينة.

أثينا والطريقُ إلى الأولمب

فورَ وصولِ أشنار إلى "بيريس" قدَّمَ له قبطانُ السفينةِ دليلاً ليُرافقَه.

– إنها أثينا! عاصمةُ العالم اليوناني، قالَ الدليل.

كانت على بُعدِ خمسة أميال من بيريس. تحيطُ بها تلال همتوس وبنتليكوس وبارنس التي تحرسُ الحِصنَ الميسيني القديم.

قممٌ تعالَتْ مِن البحر أمام ناظرَي أشنار، سمعَ عنها في فينيقيا، منسوجة مِن خيراتِ الكرومِ والزيتون، وتأوي في جراَةِ ارتفاعها أماكن عبادةٍ لزيوس، كبير آلهة الإغريق، الذي فرضَ جلالَه بما حيكَ حوله مِن أساطير تمجّدُ قدراتِه وبطولاتِه.

زيوس سليلُ الآلهةِ الجبّارة الذي أنقذَتْه أمُّه مِن شهيَّة والدِه كرونوس الذي ابتلعَ إخوتَه.

ارتعدَ أشنار مِن قصَّةِ هذا الإله الذي بدا الفرعون أمام ذيوعِ صيتهِ وأخبارِه ذليلاً حقيراً. واتَّضحَ له كم أنّ العالَمَ نسبيّ، وكيف أن التراتبيَّةَ تفترضُ الأدنى والأقصى. ثمّ تجرّأ على أن يرى في ذاتِه قبساً مِن زيوس.

أَلَم يُجبِرْ زيوس والدَه على إرجاعِ إخوته الذين ابتلعَهم؟

أفلا يفعلُ أشنار الشيءَ عينَه ولو رمزياً؟

إنه يُلزِمُ والدَه بإرجاعِ بيبلوس مِن أفواهِ مصر، وسيطرةِ بابل، وبتحريرِها مِن الخوفِ والتبعيَّةِ والطّاعةِ للفرعون ووصايةِ بابل.

استطاع زيوس وإخوتُه تحقيقَ النصر، والقضاءَ على الجبابرة، فاستحقَّ زيوس بذلك عرشَ السماء، وسكنته الفضيلة، وأصبحت له الكلمةُ الفَصل بين الآلهة قاطبةً.

كان أشنار ينتظرُ بفارغِ الصبر رؤيةَ تمثالِ زيوس ينتصبُ ثلاثة عشر متراً، على ما كان يروي له العائدون من أولمبيا، ليلمسَ جسدَه العاجيَّ وعباءَتَه الذهبيَّةَ وقاعدتَه الرخاميَّةَ السوداء،

لعلَّه يستأنسُ بمآثرِه في معقلِ الآلهة... في أولمبيا.

وصلَ الشابَّان الفينيقيَّان إلى أثينا. وكان هدفهُما أولاً المشاركةَ في الألعاب الأولمبيَّة، وإحرازَ بطولةٍ ما.

ارتقى بهما الدليلُ تلَّةً مطلَّةً على أثينا، وهناك دلَّهما على موقعِ الأولمبيا، وقصَّ لهما حكايتَها الطريفة، قال:

– الناسُ تحبُّ آلهتَها، وتقدِّمُها على أي شيءٍ آخر. أما نحن، أهلَ اليونان، فنحبُّ الرياضةَ، ونقدِّمُ رياضيّينا حتى على الآلهة. نحن، خِلافاً لغيرِنا، نكرِّمُ آلهتَنا ونعظِّمُها، وإنْ في غيرِ أماكنِها الأصليَّة، خارج المعابد والهياكل. ولكنَّنا، في المقابل، نتدفَّقُ مِن كلِّ الأمكنة إلى مكانٍ واحدٍ محدَّدٍ هو الأولمب، لنشاهدَ بأمِّ العَينِ نخبةً مختارةً مِن نبلاءِ الإغريق يتنافسون في الألعاب الأولمبيَّة.

ثم مشى، فتبعَه أشنار وكالوباي بنشاطٍ واندفاعٍ، وبَدَوا كأنَّ إرهاق السفر الطويل قد انهزمَ متراجعاً أمام فرحةِ الانطلاق إلى الأولمب.

سادَ صمتٌ قصيرٌ، قطَعَهُ الدليلُ بقولِه:

– دينُ اليونان عبادةُ الصحَّة والجَمال. وقد جاءَ في الأوديسّه أنَّ الإنسانَ لا يستطيع، طوالَ حياتِه، أن ينالَ مَجداً أعظمَ مِن المَجدِ الذي ينالُه بيدَيه وقدمَيه.

سألَهُ أشنار:

– ألا يُعنى اليونانيّون بالفلسفةِ والمعرفةِ أيضاً؟

فأجابَه:

– مِنَ الخطأ أن نظنَّ أنَّ الرجلَ اليونانيَّ العاديَّ طالبُ عِلم مولعٌ بإسكيلوس أو سقراط أو سواهما من المفكّرين والفلاسفة. أبطالُ اليونان هم أنفسُهم فلاسفتُنا على الأرض، وآلهتُنا أحياناً.

ابتسمَ عندئذٍ كالوباي ابتسامة خبيثة، وخاطبَ أشنار سائلاً:

– هل سمعت، يا صديقي العزيز؟ الناسُ لا تعبأ بالفلسفة، ولا تنشغل بها. إنها تنشغِلُ بالأفراحِ والمتعِ والأعمال.

فبادرَ أشنار فوراً إلى الردِّ بقولِه:

– ولكن فاتَكَ يا عزيزي، أنَّ الدليلَ لم يتحدَّث إلّا عن الناس العاديين، فهل تريدُ أنتَ أن تكونَ واحداً منهم؟!

ردُّ أشنار هذا أفحَمَ كالوباي، فلاذَ بالصمتِ، ولم يُحِرْ جواباً.

ويواصلان السَّيرَ وراءَ الدليلِ حتى يبلغا أطرافَ المدينة، فإذا هما في مُتحفٍ رحبٍ مِن التماثيل، لفَتَهما الدليلُ إلى أحدِها، وقال، وهو يشيرُ إليه بإصبعِه:

– هو ذا تمثالٌ مِن حجر حُفِرَت على أحدِ خَدَّيه عبارةُ "مباراةٌ في المصارعة"، وحُفِرَ على الخدِّ الآخرِ نقشٌ يمثّل لعبةَ ركوبِ الخيل.

المشهدُ هذا كان حافزاً لأشنار جعلَهُ يستجمعُ كلَّ طاقاتِه، ويستنفرُ كلَّ قِواه استعداداً لليومِ الذي طالما حَلَمَ به، ومنَّى نفسَه فيه بركوبِ الخيل، والمشاركةِ في السباقات، ولا سيَّما مِنها سباق الحواجز الخشبيَّة.

كان الشابّان على عَجلةٍ مِن أمرِهما، فاكتفيا بوقفةٍ قصيرةٍ هناك، انطلقا بعدَها على متنِ الخيلِ مِن جديدٍ بزخمٍ أشَدّ.

وعلى امتدادِ الطريقِ كانت تسترعي انتباهَهما منحوتاتٌ نُقِشَ عليها سباق العربات، أو المشاعل، فضلاً عن أنشطةٍ تحيطُ بالألعابِ الرياضيَّة الأولمبيَّة كالموسيقى، ومشاهد الغناء، والعزف على القيثارة والمزمار والناي، والرقص، وإلقاء الشعر.

وعند بلوغِ المنعطفِ المُشرفِ على الأولمب، فاجأ الدليلُ رفيقَيه إذ تسمَّرَ في مكانِه، وقالَ بوقاحة:

– إنني أملكُ معلوماتٍ أخرى مهمّة، ولكنني لن أصرّحَ لكما بها ما لم تكرماني بمكافأةٍ ماليَّةٍ إضافيَّة.

فلم يكنْ لهما خيارٌ إلّا الإذعانُ والرضوخ للابتزاز، وخصوصاً أنهما كانا حريصَين كلَّ الحرصِ على الحصولِ بأيّ ثمنٍ على أيّ معلومةٍ جديدةٍ أو معطىً جديد.

لم يكونا قد صارحا بعد الدليلَ بغرضِهما مِن زيارةِ اليونان. فشكَّلت المعلومةُ الجديدةُ حولَ المبارياتِ الأولمبيَّةِ وإقامتِها بانتظامٍ مرَّةً كلّ أربع سنواتٍ، مَدخلاً إلى حوارٍ مفيد.

استغلَّ كالوباي انشغالَ صديقِه بالتأمّلِ مِن بعيدٍ في الأولمب ليهمسَ في أذنِ الدليلِ معرّفاً:

– هذا أشنار، ابنُ ملِكِ بيبلوس، وأنا كالوباي صديقُه، وكلانا قد فاز في سباقِ ألعاب أدونيس، إلّا أنَّ المرتبةَ الأولى لم تكنْ مِن نصيبي بل مِن نصيبِ أشنار.

وكأنَّ الدليل أحبَّ أن يمازحَه فسألَه:

– وأنتَ هل حلَلْتَ في المرتبةِ الأخيرة؟

سؤالُه هذا أثارَ عاصفةً مِن الضحكِ لم تهدأ إلّا عندما أكَّدَ كالوباي أنَّ تكبُّدَ مشقّاتِ السفرِ مِن بيبلوس إلى قبرص فاليونان ما كان ليكون لولا الرغبة في المشاركةِ في الألعابِ الأولمبيَّة، وأعربَ للدليلِ عن أملِه في أن يلقى، هو وصديقُه أشنار، منه الدعمَ والمساندةَ لتحقيقِ ما يسعيان إليه.

قالَ الدليل:

– ما أعرفُه، حتى الآن، هو أنَّ المشاركين في الألعاب يأتون مِن مُدُنِ الإغريق، ولستُ أدري إذا كانت المشاركةُ متاحةً للقادمين مِن وراءِ البِحار. ولكن سأبذلُ ما بوسعي للمساعدة. أعِدُكُما

بذلك.

سألَه أشنار:

– والمتفرِّجون على المدارج؟ هل هم يونانيّون فقط؟

فقال:

– إنَّ أيّامَ البطولاتِ في الأولمبِ أيّامٌ مقدَّسة. يقصدُ فيها الحجيجُ الأولمبَ مِن مختلفِ أنحاءِ اليونان. والأيّامُ المقدَّسةُ هذه تمتدُّ مفاعيلُها وارتداداتُها على مدى شهرٍ كاملٍ يكون بمثابةِ شهر حرام يتهادنُ فيه المحاربون، وتُغرَّم فيه أيضاً كلُّ مدينةٍ يُصابُ فيها أيٌّ مِن القادمين إلى الأولمب بأذيَّة.

– السلامُ تصنعُه الرياضةُ في اليونان، قال كالوباي ممازحاً:

– وهل الفلسفةُ تصنعُ سلاماً؟

فأجابَ الدليلُ بحزم:

– الرياضةُ أنظفُ مِن الأفكار. إنَّها حقيقيَّةٌ جدّاً. أنتَ بنفسِك تكونُ شاهداً على الفوزِ أو الخسارة. كِلاهما يحصلان على مرأىً منك ومسمع. والأبطالُ المتبارون يُقسِمون على تجنُّبِ الغِشّ، والتزامِ النزاهة والأمانة واحترامِ القوانين.

ذات مرَّة رشا بطلُ الملاكمة "يوبوليس" ملاكمَين آخرين ليتمكَّنَ منهما على الحلبة، فافتُضِحَ أمرُه، وأُنزِلَ به عقابٌ قاسٍ، وأُهينَ مهانةً عظيمة. وأمَّا المتفرّجون والمشجِّعون فعددُهم كان يصلُ أحياناً إلى نحو خمسةٍ وأربعين ألفاً، وكان كلٌّ منهم يلازمُ مقعدَه طوال النهار فلا يبرحُه، ولو للحظة، خشيةَ أن تضيعَ عليه فرصةُ الجلوسِ مرَّةً أخرى.

– ومَن هو الأسرع عدواً بين أبطال اليونان؟ قالَ أشنار مستفسراً.

– لا أعرفُ، أجابَه الدليل، ولكن أتذكَّرُ أنَّ أبي حدَّثني مرّةً عن عدّاء كان يسبقُ الأرنب.

– يسبقُ الأرنبَ؟!

صرخَ أشنار وكالوباي معاً، وانفجرا ضاحكَين، ثمَّ قالَ أشنار:

– هل يمكنُ أن تكونَ القصصُ الخياليَّةُ حلَّت محلَّ القصصِ الواقعيَّة؟ أليسَ هذا مِن بابِ المبالغة، بل من بابِ الغلوّ؟ مَن بإمكانِه أن يجاري الأرنبَ أو يتقدَّمَه في السباق؟

والتفتا إلى الدليل وردَّدا بصوتٍ واحد: الكذبُ ملحُ الرياضةِ إذاً...

فقال الدليلُ مؤكِّداً:

– إنَّ "فيليبيدوس" بطلٌ مشهور. اجتازَ المسافةَ التي تفصلُ أثينا عن اسبرطة والتي تُقَدَّر بـ 125 ميلاً في يومَين، ثم ماتَ: قالوا يومَها أودَت بحياتِه صَبِيَةُ عَينٍ حاسدة.

– هل تعتبران هذه مبالغة؟ ربما! ولكنّ العِبرةَ هي في أنَّ المبالغةَ تدلُّ على البطولةِ الفائقة.

سألَه كالوباي:
– وكم تبلغ مكافأة الأبطال؟
قال:
– استنتِجا بنفسيكما مِن شهادةِ جنديٍّ في أثناءِ خوضه إحدى المعارك حيث قال: "ربَّاه، أيّ صنفٍ مِن البشر هم أولئك الذين أتيت بنا لمحاربتِهم؟! إنهم رجالٌ لا يُقاتلون أو يتقاتلون مِن أجلِ المال بل مِن أجلِ الشرف."

شهادةُ الجنديِّ هذه كانت باعثَ سرورٍ في نفسِ أشنار، فالتفتَ إلى صديقه كالوباي وقال:
– هل سمعتَ؟ ليس مِن أجلِ المال بل مِن أجلِ الشرف.
وتابعَ الدليلُ ما كان قد بدأَهُ ، فأضاف:
– لم يكونوا فقراء على الإطلاق. كانت المُدُن تُغدِقُ عليهم الأعطيات، الأموال والجوائز. وكثيرون منهم كانوا يحظَون بتماثيل تُقام لهم تمجيداً لمآتيهم، وتخليداً لذِكرِهم. وكلُّهم أو جلُّهم كانوا يستأجرون الشعراء ليقولوا فيهم مدائح، تتوِّجُهم على منصَّةِ الفنِّ بعد أن تُوِّجوا على منصّاتِ البطولة.

كان لكلامِ الدليلِ هذا وقعُه الدافع في نفسِ كالوباي، فَشَعَرَ بحماسةٍ كبيرة، جعَلَتْ قلبَه يخفقُ فرحاً، وجعلتْهُ هو يحسُّ بأنَّ جسدَه على أتمِّ الاستعدادِ لخوضِ مغامرة البطولة.

الأنظارُ مشدودةٌ إلى الأولمب! مئاتٌ قليلةٌ مِن الأمتارِ كانت تفصلُ أشنار وكالوباي عن المدخل. اجتازا المسافةَ في وقتٍ قياسي، وأحسّا وهما يعبران إلى الداخل، وكأنَّ فرح العالم كلِّه قد تجمَّع وحلَّ هناك.

أعمدةٌ مرتفعةُ الأعناق، رؤوسُها مكلَّلةٌ بتيجانٍ وأشكالٍ هندسيَّة. أروقةٌ مديدةُ القامات منبسطةٌ بين جدرانٍ وفسحات تُشرِفُ على الميدان الرحيب. مدرَّجاتٌ نصفُ دائريَّةٍ وزَّعت مقاعدَها لتتّسعَ لألوفٍ مؤلَّفة مِن المشجّعين، ومقصوراتٌ مزروعاتٌ في الوسط، بعضُها منحوتٌ، وبعضُها الآخرُ مذهَّبٌ وكلُّها مجهَّزةٌ لاستقبالِ الأمراء وقادة الجيوش والأحرار.
وتابعَ الدليلُ قائلاً:
– أنتَ بالطبع تعلَمُ، يا سموَّ الأمير، أنَّ المُدُنَ اليونانيَّة مستقلَّة على شكلِ جمهورياتٍ تمتلكُ كلٌّ مِنها حكومتَها وقوانينَها. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ أن تكونَ المُدُنُ مختلفةً إلى هذا الحدِّ، وأن توَحِّدَها قِيَمٌ مشتركة... هيَّا نتابع مسيرتَنا! علَّني أكشفُ لك المزيدَ ممّا تهبُه الأولمبُ لنا نحن الاثنين.
– ولكن هل لغتُكم واحدة؟ قالَ أشنار.

– أنا أثينيٌّ أصيل، لكنَّنا نتفاهمُ بلغةٍ واحدةٍ هي اليونانيَّة. لغتُنا انتماؤنا وقوميّتُنا ورمزُ وحدتِنا في التنوّع...

لعلَّك تعلَمُ أنَّه ما إن ندخلُ الأولمب، حتى نتعالى فوق جراحِ الخلافاتِ والسيِّئاتِ والاختلافاتِ الإيديولوجيةِ والسِّياسيَّة، وحتى فوق الأحقادِ الشخصيَّة. فقانونُ الأولمب يحظُر علينا حملَ أحقادِنا وثأرِنا ومعارِكِنا إلى حَلَباتِه الفسيحة. ففترة الأولمب هذه هي عبارة عن هدنة تتوقفُ خلالها كل الحروب وتسمّى "إيكِشِريا" (Ekecheria).

ربما نصادفُ مواطنين مِن اسبرطة على مدرَّجاتِ هذه المدينة، لكننا أقسَمنا، هم ونحن، أن نحجمَ عن مواصلةِ حروبنا، الصغيرة منها والكبيرة، لأنّنا أقسَمنا قسَمَ المجلس!

– المجلسُ؟ وهل للأولمب مجلسٌ سياسي أو تشريعي خاص؟

– لا سيِّدي! تابعَ الدليل. إنَّه المجلسُ الذي يجتمعُ فيه أعيانُ المُدُنِ اليونانيَّة ليتناقشوا في مواضيع إنمائيَّة وتنظيميَّة تهمُّ المواطنين، وهو المجلسُ الذي لا بدَّ أن يمرَّ به كلُّ المتبارين الرياضيين فيُقسِموا على النزاهةِ والشفافيَّةِ وعدمِ اعتماد الغشّ والكذب قبل التباري الشريف. إنه قَسَمٌ إلزاميٌّ لكلِّ رياضيّ، وهو يَحدثُ هنا في هذه الصالة المربَّعة التي تراها... ولكن دَعنا نُكمِل...

شعرَ أشنار، وهو على أُهْبَةِ الدخول إلى حَرَم الأولمب، بأنَّه كَمَن يدخلُ معبداً، كلُّ شيءٍ فيه يُحاكي الرموز، ويعبقُ بتاريخٍ سحيقٍ مِن التقاليد والأفكار... وكادَ يعودُ إلى نظرياتِ الفلسفة التي أتحَفَه بها رفيقُ السَفر مِن قبرص قبل أن يقاطعَه صوتُ الدليلِ مِن جديد...

– الكلُّ يا أشنار يجتمعُ في الأولمب، مهما يكنْ نِظامُ الحُكمِ في مدينتِه، لأنَّنا أبناءُ أساطير مشتركة وتقاليد مشتركة، فنحن مثلاً نحلمُ بمجاراةِ بطلنا الأسطوري "هيرقليس"!

– ومَن يكون "هيرقليس"؟ أليس هو نفسه "هيراقليطس"؟

– لا أيها العزيز! "هيرقليس" هو الذي، مِن أجلِ محبةِ الإغريق، جَمَعَنا في هذه المدينة، وأحيا احتفالاتِنا الرياضيَّة هذه. "هيرقليس" ينتمي إلى تاريخِ حضارتنا العريق وهو باني المذابح كلِّها التي ستراها وأنت تخترقُ ممرّاتِ الأولمب الآن.

ها قد وصلنا إلى الجدارِ المقدَّسِ الذي بَناه "هيرقليس"، نُسمِّيه جدار "ألتيس" (Altis).

لم يستطعْ أشنار وصديقُه كالوباي إخفاءَ دهشتِهما بعظمةِ هذا الجدار الذي كان يلفُّ الأولمبَ على مساحةٍ كبيرة. في هذا الجدارِ استطاعَ الزائران أن يتبيَّنا المعابدَ التي بَناها "هيرقليس"، والزيتونةَ المباركةَ التي زَرَعَها بيدَيه والتي يتوَّجُ الفائزون بالألعابِ والمباريات بنتفٍ من أغصانِها المورقات. ثمَّ سادَتْ لحظاتٌ مِن التأمُّلِ الصامتِ قطعَها الدليلُ موجِّهاً سؤالَه إلى أشنار:

– هل تعلَم لماذا يبلغُ طولُ ساحةِ الألعابِ الأساسيَّة هذا المِقدار مِن الأقدام؟

– لا... لماذا؟ أجابَ أشنار مُستفهماً.

– لأنَّ هذا المِقدار يساوي ستّمئة ضعف بالمقارنة مع مقاس قدم "هيرقليس"، أجابَهُ الدليل.

فصاحَ أشنار معبِّراً عن استغرابِه:

– مدهشٌ حقاً!

وهنا بادَرَ الدليلُ إلى دعوةِ أشنار وكالوباي كليهما قائلاً:

– تعاليا نخترق الجدار، وندخل المنطقةَ المكرَّسة... لنزورَ معاً معبدَ "زيوس"!

وهكذا انطلقَ أشنار عبر الأعمدةِ الستَّة العملاقة التي تظلِّلُ مدخلَ المعبدِ ووراءه كالوباي، لِيَلِجا، برفقةِ الدَّليل، صالة كبيرة ينتصبُ في صدرِها الإلهُ "زيوس"، الذي صمَّمه فأبدعَ في تصميمِه المهندسُ البارعُ "فيدياس" بأمرٍ من مجلسِ الأولمب.

لاحظَ أشنار وهو يتطلَّعُ صعوداً، أنَّ قاعدةَ التمثالِ ترتفع، بالمقارنةِ مع قامتِه، أربعة أضعافٍ أو أكثر، وأنَّ التمثالَ نفسه المستوي عليها كجَبَلٍ مِن العاج، بالمقارنةِ عينِها أي مع قامتِه، نحواً مِن عشرةِ أضعافٍ أو أكثر.

وفيما كان يتأمَّلُ "زيوس" خرقَ مأخوذاً بضخامتِه وعظمتِه، أشارَ الدليلُ إلى عباءَةِ "زيوس" وقال:

– إنَّها مِن الذَهب الخالِص.

ثمَّ توجَّهَ مِن أشنار مردفاً:

– هل ترى الصولجانَ المزيَّنَ بمجسَّمِ النسْرِ في يسراه؟

– نعم! أجابَ أشنار. ثم استدركَ سائلاً:

– ولكن، إلامَ يرمزان؟

فأجابَهُ الدليلُ موضِحاً:

– الصولجانُ، يا عزيزي، يرمزُ إلى المُلكِ والسلطة. وأمّا النسْرُ، فإلى التَّحليقِ عالياً وبلوغِ الفضاءاتِ العصيَّة على البشر.

وتابعَ، لئلاّ يفوتَ الزائرَين شيءٌ، فلفَتَهما إلى صندَلَي الذَهبِ في قدَمَي "زيوس"، وإلى تمثالِ النَّصرِ في يمناه.

وانتهى أخيراً إلى أنَّ "زيوس" هذا هو مِلِكُ السماء، وصاحبُ الفضيلةِ والكلمةِ العُليا بين جميعِ الآلهةِ على الإطلاق.

"صاحبُ الفضيلةِ والكلمةِ العليا؟!" كلماتٌ هزَّتْ ضميرَ أشنار لعلَّها تهديه إلى المعرفةِ الكاملة، لكن أنَّى له أن يشربَ المعرفةَ الكاملةَ مِن تمثال؟ كلُّ ذَهبِ الدنيا ومجوهراتِها تبدو خردةً أو صداً أمامَ وَهجِ المُطلق، لذلك كان لا بدَّ مِن البحثِ عنه عبر فَمِ الفلاسفةِ والعلماء...

الدليلُ لم يتركهُما إلّا بعدما مهَّدَ السبيلَ لهما للقاءِ المدرِّبِ الأكبر "بيدقرباي". يتقدَّمان مِنه، يحيّيانه، فيردُّ عليهما التحيَّةَ بأحسنَ منها. يعرّفانه بنفسيهما، ويُعرِبان عن رغبتِهما في المشاركةِ في الألعاب الأولمبيَّة؛ يرحِّبُ بِهما أجمل ترحيبٍ، ولكنَّه يقومُ بإشارةٍ يُفهَم منها أنَّه "لا يعرف". ثم يودِّعُهما على الفورِ طالباً منهما التريّث قليلاً، ويمضي في رواقٍ طويل، ليعودَ بسرعةٍ خاطفة، ويصطحبَهما إلى فسحةٍ خضراء في طرفِها بناءٌ توحي هندستُه بأنَّه مُعدٌّ خصيصاً لاستقبالِ الضيوف.

وهناك يُقبِلُ عليهما شيخٌ يونانيٌّ مَهيب، فيصافحُهما بحرارةٍ ويستقبلُهما بحفاوةٍ، ويُسمعُهما كلاماً طيّباً لكأنَّه يوجِّهُ رسالةً مِن خلالِهما إلى بيبلوس وأهلِها تعبِّر عن رغبةِ أثينا الصادقة في فتحِ صفحة جديدة من التواصلِ الإيجابيّ بين المدينتَين، وطيِّ صفحة التوتّرِ التي شابت علاقاتِهما في الفترةِ الأخيرةِ مِن جرّاءِ منافستِهما التجاريَّة.

ثمّ وجَّهَ الشيخُ كلامَه إلى أشنار، قال:

– إنَّ قوانينَنا وتقاليدَنا تحصرُ حقَّ المشاركةِ في الألعابِ الأولمبيَّة باليونانيّين الأحرار. وقد كان بودِّي، لولا الحقّ الحصريّ هذا، أن أسمحَ لكليكِما بالاشتراك. ولكن كُرمى لملكِ بيبلوس وتقديراً لابنِه الحرِّ أشنار، أتجاوزُ التقليدَ، وأنتهكُ القانون. فأهلاً بكَ ضيفاً عزيزاً في مدينتِنا، ومرحباً بك رياضيّاً بارعاً في الأولمب. وأمّا صديقُك، فاعذرني، يا سموّ الأمير، لأنني لن أستطيعَ قبولَه. لن أستطيعَ على الرغم مما هو عليه مِن حريَّةٍ ونبل، لئلاّ أسجِّلَ بذلك سابقةً أكونُ بها قد فتحتُ، بل شرَّعتُ بابَ الاشتراكِ أمامَ مَن يشاء مِن النبلاء الأحرار.

موقفُ الشيخِ هذا أثارَ الحزنَ في نفسِ الشابَّين على السواء. فشكرا للشيخِ استقبالَه وودَّعاه، وانسحبا مع المدرِّبِ في رواقٍ طويلٍ يفكِّران في ما آلت مغامرتُهما إليه.

لقد كانت المبارياتُ والبطولةُ مِحورَ اهتمامِ كالوباي وقطبَ تفكيرِه، هو الذي لم يعوِّل يوماً، لا من قريبٍ ولا من بعيد، على البحثِ عن الأفكارِ والحقائقِ وينابيعِ المعرفةِ كصديقِهِ أشنار.

قرارُ الشيخِ فاجأَه. أسئلةٌ كثيرةٌ تدافعتْ كالسَيلِ في رأسه. مزيجٌ رهيبٌ من الانفعالِ والكآبةِ غزا مكامن نفسه. توقَّفَ في وسطِ الرواق، أمسكَ بذراعِ أشنار وقالَ بصوتٍ يكادُ يختنق:

– سأعودُ حزيناً إذا لم تفزْ بإحدى البطولات، يا أشنار. فوزُك وحدَه يردُّ إليَّ الفَرح. وحدَه يجعلُني أعودُ بطلاً إلى بيبلوس. سأبقى معك ولو غير مشتركٍ في الألعاب.

دَمَعَت عينا أشنار تأثّراً بموقفِ كالوباي، وقالَ وهو يعانقُه:

– أيّها الصديقُ الصَّدوق، أنت أيضاً بطلٌ في التضحية. لن أنسى لك هذا الجميل ما حَييت.

اللقاء المِحوَر

أوّلُ ما عُرِفَ به أفلاطون، بعد براعته في دراسته بكافة ضروبها، وبالرياضة البدنية، ومشاركته في المباريات التي كانت تجري آنها، هو مواظبته على الالتحاق بحلقات حوارات سقراط، فأصبح يُعرَف بتلميذ سقراط المفضّل.

وكان لفكرِ سقراط تأثيرٌ عميقٌ في حياةِ أفلاطون، وخاصة أنَّه بعد انتهاءِ حربِ البيلوبونيز (Péloponnèse) وسيطرةِ اسبرطة العسكرية على أثينا، فُرِضَتْ على أثينا الحضاريَّة، الديمقراطيَّةِ مبدئياً، حكومةُ الثلاثين الأوليغارشيَّة. وكان مِن بين أعضاءِ الحكومة قريبُه "كريتياس" (Critias) و"شرميد" (Charmide) خالُه الذي كان مسؤولاً في الإدارة. فمالَ أفلاطون إلى موالاةِ هذه الحكومة، وأقنَعَ سقراط بموالاتِها ربما من جرّاءِ قرابته بعُضوَي الحكومة. ولكن بعد بضعةِ أشهرٍ اكتشفَ أفلاطون ومعلمُه سقراط أنَّ كلَّ حكومة مفروضة مِن الخارجِ لا تأتي بالخيرِ على المدينة.

ترشَّحَ أفلاطون بعد ذلك مرّاتٍ ثلاثاً في الانتخابات ولم يحالفه الحظ؛ لأنَّ حُكمَ المحتلّ يدفعُ الناسَ لئلّا ينتخبوا أهلَ الفكرِ ويوَلُّوهم عليهم وعلى شؤونِهم. كان المحتلُّ يدفعُ الناسَ لانتخاب التجَّارَ والعملاءَ لِحكمِهم.

لم يهنْ على أفلاطون التصديق على أن أثينا قادرة على هذا الظلمِ في الرعيَّة، فبدأ ينمو في نفسِه قنوطٌ مِن الديمقراطيَّة، خصوصاً تلك اللمّاعة مِن الخارجِ والممتلئة عنفاً وفساداً مِن الداخل. هذه الديمقراطيَّة التي لا تُعطي للبروليتاريين والنساءِ والعبيدِ حقَّ الاقتراع، والتي كانت تحصرُ حقَّ الانتخابِ في أقلَّ مِن عشرة بالمئة مِن عديدِ الآهلين. هذا النوعُ مِن الديمقراطيَّة التي كان "سولون" (Solon) قد نَعاها، وقال إنها نخبويَّة وليست انتخابيَّة.

في الوقتِ الذي بلغَ فيه تأثيرُ سقراط على أفلاطون ذروتَه، اجتاحَ القنوطُ أفلاطون، وضاقَ صدرُه بخيباتِ أملٍ متتاليةٍ مِن جراءِ موت معلمه سقراط، الذي جيَّشَت له الأوليغارشية الأثينية

وحُكم المحتلّ، خمسمئة قاضٍ تحامَلوا عليه ووجَّهوا إليه تهماً جزافاً لأنَّه كان يستنكِر التقاليد، ويمتنع عن القبولِ بفرضِ آلهة المدينة، فحكموا عليه بالموت واجترعَ سُمَّ "الشوكران" (Cigüe).
هكذا قضت الطغمةُ الأوليغارشيَّة على أعظمِ مفكّرٍ وفيلسوفٍ عَرَفَه التاريخ.

* * *

قبْلَ سقراط، كانت الأبحاث تختصُّ أساساً بمسائل تتعلقُ بوجودِ العالم وماهيّته. أمّا سقراط، فَرأى أنَّ مِن المستحيلِ الإجابة عن هذه التساؤلات، وأنَّ دراسةَ هذه المسائل لن تلقي على أيَّةِ حال ضوءاً على السبيلِ الصحيح للحياة. هذا السبيلُ الذي كان بالنسبةِ له هو الموضوع الوحيد ذا الأهميّة الفعليَّة.

موضوعٌ واحدٌ شَغَلَ سقراط هو الإنسان، وعندَما كانَ يتناوَلُ الكـونَ الطبيعيّ وموجوداتِه الحسّيَّة وظواهرَه، فإنما لكونِها مركزَ الإنسان وبيئته، ومكان نشأته ونموّه. ويمكن القول بأنَّ الأساسَين الكبيرَين لكلِّ آرائه هما اعتقاده بوجود الحقيقة، وبإمكان معرفتها ثمَّ ربطه العمل بالعلم، أي جعله المعرفة أساساً للسلوك.

وهكذا اتخذ من الحوار منهجاً للتعليم والإرشادِ إلى الطريق التي يؤمن بها... وَهَكذا أيضاً استَطاعَ أن يؤثّرَ على أَفلاطون تأثيراً عميقاً فرسَمَ من غير أن يدري ما سوف يكون في الأكاديميا، منهجَ أفلاطون في التعليم.

كان يحاورُ الناسَ في أي مكانٍ يجدهُم فيه، أمّا أفلاطون فأرادَ نَقلهم إلى الأَكاديميا وَنقلَ الحوار مِن الأرصِفَةِ والشَّوارِع إلى القاعات والحَدائِق!

تعلَّمَ أفلاطون مِن سقراط أن يُفَكِّرَ مِن غير وِصايَة، وأن يَتفوَّقَ على نَفسِه وأن يستَخرِجَ المعرِفَةَ من ذاتِه، وأن يثبَ مارِداً مُنتصِراً على هَزائِمه ومنتفضاً بَعدَ كلِّ كَبوَة!

اعتملَت في نَفسِ أفلاطونَ كلُّ هذه الأفكار فأرادَ إصلاحَ السياسة مِن المُشَرّعين الكَذَبَة وَتجنيبَها المَذَلَّةَ التي سَمَحت لِهَمجيَّة اسبَرطَة بغَزوِها والعَبثِ بِحضارَتِها!

* * *

دفعت الخيباتُ المتتالية بأفلاطون إلى الهجرة. فاعتزلَ الحياةَ العامة في كنفِ مدينة ميغار (Megare) بالقرب مِن صديقه "إقليدس" (Euclide).

كان أفلاطون قد عشق الهندسة من معلمه سقراط الذي كان تلميذاً لـ"تيودوريطس" (Theodoret de Cyrène).

هكذا آمَنَ أفلاطون بأنّه سوف ينجحُ حيث أخفقَ سقراط. فسافرَ إلى سرقسطة، وكرَّسَ سنةً من حياتِه آملاً أن يبدِّلَ أساليب "ديونيسيوس" فيقنعه بالأفكار الفلسفية والسياسية التي كان يراها مدخلاً إلى إرساء حُكمٍ عادل. وغضبَ "ديونيسيوس" مِن مواقف أفلاطون وباعَه كَعَبد.

لم يكن أفلاطون من أهلِ السياسة الواقعيّة بل من أهلِ الفكر، أي إنه لم ينتَمِ يوماً إلى عالم الواقع بل إلى عالم المُطلق المُرتجى، والبونُ شاسعٌ بين الواقع الناقص والفاسد، وبين المُطلق الناصع والكامل.

وكم خابَت آمالُه عندما سافرَ ثانيةً إلى سرقسطة وحاولَ أن يُصلِحَ حُكمَ "ديونيسيوس الثاني".

وفي عقلِه الباطني كان أفلاطون يأمل أن يمسحَ هزيمتَه الشخصية في الانتخابات مرّاتٍ ثلاثاً متتالية.

* * *

جالَ أفلاطون في عالم البحر المتوسّط حيث أرادَ أن يقتربَ من "أرخيتاس دي تارنت" (Architas de Tarente)، هذا الحاكم الفيلسوف الذي شكَّلَ برهةً النموذج الأفضَل. هذا الملك تولّى قيادة مدينته تارنت (Tarente) سبع مرّات متتالية بوسائل ديمقراطية انتخابية والذي حاول أن يحكمَ وفقَ فِكرِهِ وفلسفته، وكان له تأثيرٌ كبير على أفلاطون حيث أضفى على ما كان تعلمَه مِن سقراط عن مدى أهمية الهندسة في التكوين. بعد ذلك اللقاء، انتقل أفلاطون إلى سرقسطة، قبل أن يعود إلى دياره سالماً، مواطناً حرّاً متمتّعاً بكامل حقوقه، فاشترى بالأموال التي كسبها من حقول الزيتون خاصته، الحديقة والملعب اللذين كانا يحملان اسم "أكاديموس" (Academos) تقديراً لذكرى هذا البطل الأسطوري.

خيباتٌ متتاليةٌ مِن الناخبين ومِن الحكّام ومِن القضاة ومِن المجتمع وسلطة الطغاة، كلّها دفعتْ بـأفلاطون إلى الاعتقادِ بأنَّ الإصلاحَ الممكن الوحيد يكمن في التنشئة، فشرعَ يحوِّل حُلمَه إلى تشييدِ مدرسة على ملعب "أكاديموس" (Academos) أطلقَ عليها اسم "الأكاديميا". جسَّدَتْ طموحَه الجديد حقيقةٌ ملموسةٌ وبدأ يبنيها ليجمع بين أفيائها قِيَم موالفة الشباب وعيشهم معاً فيتحضَّرون بهذه الأكاديميا لممارسة الحُكم على هديِ المعرفة والفضيلة مجتمعتين.

وسرعان ما ارتفعَتْ أعمدةُ الأكاديميا! بنى أجنحةً متعدّدةً منها للدراسة ومنها لتناول الطعام ومنها للنوم لأنه كان يريد أن يتوالف تلاميذ الأكاديميا، يدرسون ويأكلون معاً. وأحاطَ ساحة ملعب الأكاديميا بتماثيل آلهة الإغريق.

ولشدَّةِ افتتانِه بأنَّ الفكر الهندسي هو أفضَل مُرشِد، نقشَ على المدخل:

"لا يدخلنَّ أحدٌ إن لم يكن مهندساً".

لأنَّه آمَنَ بأنَّ خلق الكون وقوانينه سُطِّرا بمسطرة المهندس لاشتراع قوانين تحفظ التوازن والعدل والاستقرار، كما توازنَ الكون واستقرَّ.

بعدَ تشييد الأكاديميا، كان على أفلاطون أن ينادي بها ليجتذبَ طلاباً شباباً.

ولأنَّه كان يؤمن بأنَّ العقلَ السليم يكمنُ في الجسمِ السليم، ولأنَّ الرياضة والرياضيات صنوان، توجَّهَ أفلاطون إلى أولمبيا.

ولأنَّ الألعاب الأولمبيَّة كانت تستقطبُ المئاتِ مِن أمراءِ الإغريقِ وأعيانِ المُدُن وخيرةِ شبابِها، تَعَمَّدَ الحضورَ إلى الأولمب ليُراقِبَ بأمِّ العَينِ كلَّ ما يجري هناك، متسَقِّطاً أخبارَ المشتركين، وراصداً نتائجَهم ليصطَفيَ مِن بينِهم للأكاديميا طلاّباً مميَّزين.

* * *

وفي غمرةِ الانشغالِ في باحاتِ الأولمبيا بالتَّحضيرِ للحَدَثِ الرياضيّ الكبيرِ، لَفَتَته كوكبةٌ مِن المنظِّمين يتداولون في شؤونِ المباريات والمتبارين، ويستَبِقونَ في نِقاشِهم الساخنِ النتائجَ مسترسلينَ بإطلاقِ الترجيحاتِ والتوقّعات.

وبينما كان يحاولُ الاقترابَ مِنهم، استرعَتْ انتباهَه ثُلّةٌ مِن الشبابِ على مقربةٍ مِنه كان يتمحوَرُ اهتمامُهم ويتركَّزُ كلامُهم على استعدادِ كلٍّ مِنهم لمواجهةِ استحقاقه الوشيك. فدنا مِنهم مُحَيّياً ثمَّ ما لَبِثَ أن اكتشفَ انتماءَهُم جميعاً إلى طبقةِ النبلاء، وتحدّرهم من سُلالاتٍ عريقة، ومِن بينِهم كان أيضاً حفيدٌ مِن أحفادِ "أوليس" (Ulysse)، ولم يفتْهُ التعرّفُ إلى بعضِهم مِن خلالِ تخاطبِهم بالأسماء.

لاحَظَ على وجوهِهِم علاماتِ الإعجابِ بشابٍّ مِن بينهم طويلِ القامة، عريضِ المنكِبَين، ضامرِ الخَصر، مفتولِ العضلات، فأثارَ ذلك الشابُ فيه فضولاً دَفَعَهُ إلى السؤالِ عنه فإذا هو جرماتينوس الذي فازَ منذ أربع سنواتٍ بسِباقِ العَرَبات، أكثر السِباقاتِ أبَّهةً ومهابةً، وإذا هو بالتالي، الذي يتأهَّبُ في هذه السنةِ أيضاً لِخَوضِ التجربة مرَّةً جديدة، وإحرازِ فوزٍ جديد.

ولكن سرعانَ ما أخَذَتْ تتكَشَّفُ بعضُ الفضائح والعيوب، ولا سيَّما عندما راحَ الشَّابُ هذا، يتباهى بإنجازهِ العظيم، على الرغم من رغبةِ الحكَّام الدنيئةِ في تجييرِ فوزِهِ المحَقَّقِ إلى أميرٍ آخر كان ينافسُه في اللَّفِ والدوران اثنتَي عشرة مرةً حولَ المِضمارِ الأولمبي.

كان سِباقُ العرباتِ هو الأهمّ، وكان يحظى باهتمامٍ استثنائيٍ لأنَّه الوحيد الذي يتوقفُ فيه ترجيحُ سائقٍ على آخر على رأيِ الحكَّام، وكان لهذا السِباق تأثيرٌ شِبهُ حاسمٍ مِن ضِمنِ السِباق الخماسي.

ولذلك كان أصحابُ العربات يلجأون، بعض الوقت، إلى رشوةِ الحكَّام هؤلاء لأغراضٍ ترويجيَّةٍ تسويقيَّة، إذ يتوقَّفُ على الحلولِ في المراتبِ المتقدِّمةِ اجتذابُ الأثرياء والملوك وغيرهم مِن المقتدرين الطامحين بل الطامعين بامتلاكِ أفضل الخيول.

وفجأةً يُخَيِّمُ الصمتُ على المَشهد، فلا يعودُ أفلاطون ولا المحيطون به يسمعون سوى قرعِ الطبولِ آتياً مِن بعيد، وآخذاً بالتصاعدِ كلَّما ازدادَ الطبَّالون اقتراباً مِن منصَّةِ التتويج، إيذاناً بالاحتفالِ بتنصيبِ بطلٍ أولمبيٍّ جديد.

رؤيةُ الأبطال كانت تُذَّكِرُ أفلاطون بأيَّامِ شبابِه، كما كانت تُجَسِّدُ فيه الإرادةَ وتوَطِّدُ العزمَ على استقطابِهم، والعبورِ بهم مِن ميادينِ الرياضةِ إلى مضاميرِ الحكمةِ والفلسفةِ والفِكر.

وإنْ هي إلّا لحظاتٌ حتى وجدَ نفسَه مُندفعاً بقوةٍ نحو شَّابٍ تسكنُهُ الحَميَّةُ، وتبدو على وجهِه بوضوحٍ ملامحُ حماسةٍ استثنائيَّة.

كان هذا الشابُ ينتظرُ على أحرَّ مِن الجَمر، إعلانَ اسم الفائز في سباقِ العربات، وكانت سحنتُهُ توحي بأنَّه مِن بلادٍ غير بلاد الإغريق.

الوقت الذي استغرقَ تفكيرَ أفلاطون لا في الوسيلةِ بل في الحيلةِ التي تساعدُه على استجلاءِ حقيقة هذا الغريب، لم يكن طويلاً، إذ دنا منه، ودَفَعَهُ بكِلتا يَدَيه متظاهراً بالتعثّر، ثمَّ استغلَّ الحادثَ العابرَ مَدخلاً للتواصلِ والحِوار.

قالَ أفلاطون وعلاماتُ الأسفِ باديةٌ عليه:

– آسفٌ يا عزيزي، أرجو أن تعذرني، فقد أفقَدَني التعثُّرُ التوازنَ، وجَعَلَني أتسبَّبُ لك بالإزعاج.

– لا بأسَ، لا بأسَ، يا سيِّدي. عذرُكَ مقبولٌ، قالَ كالوباي وهو يهمُّ بالانتقالِ إلى مكانٍ آخر.

فاستمْهَلَهُ أفلاطون قليلاً وقال:

– الدَّاعي أفلاطون.

– اسمي كالوباي.

– وهل أنتَ مِن المشاركين في الألعاب؟ قالَ أفلاطون محدِّقاً إلى كالوباي تحديقةً طويلة.

– لا يا سيِّدي، الأميرُ أشنار نجلُ ملِك بيبلوس (إيهاب مُلك) ووليُّ عهدِه، هو المشارك، وأنا هنا في صحبتِه.

وسكتَ كالوباي قليلاً، آخذاً نَفَساً عميقاً وتابع: "ولكن، لن أخفيَ عليكَ أنه كان بودِّي يا سيِّدي، لو لم ترفض اللجنةُ الأولمبيَّة طَلَبي، أن أكونَ في عِدادِ المشاركين. حظُّ أشنار أفضلُ من حظّي وأتمنّى أن يجتازَ سِباقَ العرباتِ ليستطيعَ أن يربحَ السِباقَ الخماسي".

وأضافَ بنَبرَةٍ عالية: "وعندها ستكون المفاجأة الكُبرى".

– ومتى ينطلقُ السِباق؟ سألَ أفلاطون.

– بعدَ قليل، أجابَهُ كالوباي موضِحاً، فقط مجرَّد الوقت الذي يستغرقه اجتيازُ المسافة القصيرة التي تفصِلُنا عن المدرّجات.

– هل استطاعَ صديقُكَ الأمير أشنار أن يبتاعَ الخيولَ الفُضلى ليتمكَّن من الفوزِ في السِباق؟

– استطاعَ أشنار أن يبتاعَ جَوادَين بجزءٍ مِن نقودِ الفضَّةِ البابليَّة التي بحوزتِه. لكنّ اتّكالَ الأمير أشنار ليسَ على الجيادِ بقَدْرِ ما هو متَّكِلٌ على مهارَتِهِ في قيادةِ العربات.

بدت على أفلاطون ملامحُ الشَّكِ ولم يُرِدْ أن يُطيلَ الحديثَ كي لا يفَوِّتَ على نفسِهِ الاستمتاعَ بسِباقِ العربات، رغم امتعاضِهِ ممّا كان يسودُ لِجانَ التَّحكيمِ مِن فسادٍ مستشرٍ فَيُسخِّرونَ أنفسَهم لأهلِ السلطةِ والمال.

لذلك، متجاوزاً قَرَفَهُ من إقحامِ الرياضة في لعبةِ المالِ والسلطة، احتلَّ مكانَهُ على المدرّجات إلى جانبِ كالوباي.

أخذَ الغُبارُ يتصاعَدُ في الجوّ على وقعِ سنابكِ الخيول، وبدأ الدورانُ المثيرُ حولَ المضمار.

وحدَها الجيادُ المدرَّبَةُ بمهارةٍ أو المَقودةُ بمهارةٍ أكبَر، تستطيعُ أن تشاركَ في هذا السِباق.

كان مشهدُ العرباتِ المتعدّدةِ وهي تمخرُ عُبابَ الحَلْبة في غايةِ الإثارةِ والإمتاع. إلّا أنَّ أفلاطون لم يكن لينسى أن متعَتَهُ الظاهرة تخفي وراءَها متعةً مِن نوعٍ آخر، هي متعة السعي الدؤوب: نقلُ النبلاء الرياضيين المُجلّين إلى مِضمارِ الفلسفةِ والفِكرِ والمعرفة.

السِباقُ الذي كان قد بدأ والشمسُ قرصٌ حارِقٌ، بَلَغَ نِهايتَه وهي غائِرةٌ في الشَفَق، مُسجِّلاً فوزاً ساحِقاً للأمير أشنار، فوزاً قُوبِلَ بالدهشةِ والذهول، إذ لا أحَدَ على الإطلاقِ كان يتوقَّعُه بسببِ الظروفِ المعاكسةِ التي أحاطَتْ بابتياعِهِ الجوادين وباشتراكِهِ في السِباق. ولعلَّ هذا كان عامِلاً إضافياً حمَلَ أفلاطون على التساؤل:

– كيف استطاعَ أميرٌ مِن بيبلوس، هذا الغريبُ عن أثينا، أن يربحَ السِباق؟

لم يكنْ تساؤل أفلاطون هذا إلّا من قبيل تجاهلِ العارفِ بأنَّ مهارةَ أشنار الداخليَّة هي التي أغنَتْهُ عن مهارةِ جوادَيه، ووفَّرَتْ عليه الكثير من المشَقّاتِ التي واجَهَها سِواه في شِرائِهم جياداً جاهزةً لخَوضِ غِمارِ السِباق.

بعدَ سِباقِ العرباتِ حانَ موعدُ المبارياتِ المتتالية التي تؤلِّفُ بإجماعِها السِباقَ الخماسي.

مَن يفُزْ بالسِباق الخماسي يَحُزْ أهمَّ وأبرعَ انتصارٍ في كل الألعابِ الأولمبيَّة.

حاولَ أشنار أن يكونَ نفسَه، أي ألّا يقومَ سوى باستغلالِ دهشة المتبارين المصدومين، منذ لحظاتٍ قليلة، بالنتيجةِ التي أحرَزَها في سِباقِ العربات. كان يُدرِكُ أن سُمعَةَ الرياضيّ الكبيرة

تحوطُهُ بهالةٍ مِن الهيبةِ تساعدُهُ على الانتصارِ بجهدٍ يسيرٍ في مقابل الجهدِ الكبيرِ الذي يبذلُهُ المنافسون.

وينجحُ أشنار في كسبِ السِباقِ الخماسي، أي في كلِّ المباريات، إلّا واحدةً منها وهي رميُ الرمحِ الذي حلَّ فيه أميرُ "إيتاك" في المرتبةِ الأولى وأشنار في المرتبةِ الثانية.

وأمّا في رميِ القرص، فقد أحسَنَ أشنار الالتفافَ حولَ نفسِهِ ككتلةٍ مطّاطيَّة، وبَسَطَ يدَهُ اليُمنى كأنَّه يُصَوِّبُ نحو الأفقِ البعيد، فطارَ القرص، وحَطَّ عندَ حدودٍ لم يبلغها قرصُ أحَدٍ سِواه.

وأمّا في الدأبِ الطويلِ والمصارعة، فكانَ المَجالُ أمامه رحباً ليستعرِضَ صِفاته الجسديَّة ليُبرِزَ قدرته وتفوّقه على مَن عَداه.

وأمّا أفلاطون فكان شاهداً متمتِّعاً ومذهولاً من انتصاراتِه المتتالية، فَعَبَثاً كان يحاولُ إخفاءَ دهْشَتِه به، وكبْحَ فَرَحِه بموهبتِه الجديدةِ الواعدة.

وفيما كانت الأبواقُ تصدع، والطبولُ تُقرَع، كان يجري تكريمُ أشنار وسْطَ أجواءِ الابتهاجِ وموجاتٍ مِن التصْفيق. وكان أفلاطون لا يزال إلى جانبِ كالوباي يُراقبُ مِن بعيد، ويترقَّبُ بفارغِ الصَبرِ اللحظةَ الحاسمةَ التي يلتقي فيها البطلَ المكلَّل، ليُلقي شبَكتَه ويظفرَ للأكاديميا بصَيدٍ ثمين.

كان أشنار قد أثارَ إعجابَ أفلاطون وأخذَ يحظى أكثر فأكثر باهتمامِه، ولا سيَّما بعدما أدركَ أنَّه وليُّ عهدِ ملِك بيبلوس، المدينة الرائعة المتربِّعة على الشاطئِ الفينيقيّ، والتي تُثيرُ حسَدَ الإغريقيين بنجاحِها التجاريّ وإتقانِ فنون صبغ الأرجوان وصنع الزجاج ومهارة حِرَفها بمعدنِ النحاس.

وكان أفلاطون يتحيَّنُ الفرصَ السانحةَ لاجتذابِ أشنار. وشاءَ حسنُ طالِعِه، بعد نهارٍ طويلٍ مِن الانتظار، أن تتحقَّقَ أمنيتُه. فما إن انتهَتْ مراسمُ التَّكريمِ وهمَّ أشنار بالنزولِ عن المنصَّةِ حتى طنَّ صوتُ كالوباي في أُذُنِ أفلاطون يستحِثُّهُ قائلاً: هيّا، يا سيِّدي، الفرصةُ الآن مؤاتيةٌ فلنَغتَنِمها.

وانطلقا معاً سريعَين نحوهُ ليُدرِكاه عند أقدامِ المنصَّةِ مغموراً بالمهنِّئين.

وفي الوقتِ الذي كان فيه كالوباي يضمُّ أشنار مُهَنِّئاً أَخَذَ يُعرِّفُهُ إلى أفلاطون. كان أفلاطون يبسطُ يدَهُ لمصافحةِ أشنار مُعَبِّراً عن اعتزازِهِ به وبأمثالِه، ومُمَهِّداً لِحوارٍ متشَعِّبٍ طويل بقوله: "عندما كنتُ في سنِّكَ لم أكنْ بسرعتِك ومهارتِك".

لاحظَ أفلاطون أنَّ أشنار طرِبَ لإطرائِهِ فتابعَ وهو يتفرَّسُ في عينَيه:

– الانتصاراتُ الرياضيَّة، غالباً ما تُغري بالمجدِ الباطل، وتجعلُ أصحابَها يُبهَرون بمناسباتِ التكريم.

– كلا، يا سيِّدي، أنا لستُ كذلك! أجابَ أشنار مُنكِراً.

ثمَّ أردَفَ بحماسةٍ ظاهرةٍ قائلاً:

– أنا أريدُ أن أحوِّلَ انتصاريَ الجسديّ إلى انتصارٍ من نوعٍ آخر، روحيّ وعقليّ.

هذا الكلامُ أدهَشَ أفلاطون، فعَجِبَ كلَّ العَجَبِ مِن سرعةِ انتقالِ أشنار وارتقائِه من مستوى العضلاتِ والقَدَمَين إلى مستوى الرأسِ والعقل.

فقاطَعَه وقال:

– لَن تَجِدَ هدفك، يا عزيزي إلّا في النشأةِ التي تؤمِّنُها لكَ الأكاديميا. وحدَها الأكاديميا كفيلةٌ بتحقيقِ طموحك.

رأى أفلاطون في عينَيْ أشنار استعجاباً وسؤالاتٍ وشعرَ بأنَّه وجدَ الفرصةَ السانحةَ للحديثِ عن الأكاديميا فأردَف:

– الأكاديميا هي المكانُ الأمثَلُ لتنميةِ الأجسام والعقول تنميةً متساوية. فقد خصَّصتُ في منهَجِها حيِّزاً لبرامج التربيةِ البدنيَّةِ يُوازي الحيِّزَ المُخَصَّصَ لبرامج التربيةِ الفِكريَّةِ والبحوثِ الروحانيَّة.

ثمَّ استطردَ أفلاطون موضِحاً:

– أنشأتُ الأكاديميا حديثاً لأمثالِك، وأشرَفتُ بنفسي على ترتيبِها، وتنظيمِها، وتجهيزِها، وتحديدِ مَهامِّها، وهي اليوم تتأهَّبُ لاستقبالِ الفوج الأوّل من الشَّبابِ التوّاقين إلى العِلم، والفضيلة، والإصلاحِ، لإعدادِهِم وتأهيلِهِم لفنِّ الحُكم.

كان أشنار منذ بَدءِ رحلته يبحثُ عن المُطلَق، المُطلَق بفوزِهِ الرياضيّ بأهمِّ ألعابٍ في العالم: الأولمبياد. كما كان توّاقاً ليستمعَ لفلاسفةِ الإغريق في كلِّ عالَمِ البحرِ المتوسطِ فيختزنَ ممّا لدَيهِم من فِكرٍ وفلسفة.

ولِبُرهةٍ غابَ عنه مجدُ انتصارِه في السِباق الخماسيّ وحَرِصَ على مواصلةِ الحِوار، فسأل:

– وما شروطُ الانتسابِ إلى الأكاديميا؟ هل يُفترَضُ بالغريبِ مثلي المثولُ أمامَ لجانٍ فاحصة؟

فطمأنَهُ أفلاطون قائلاً:

– لا، يا أشنار، مع تحفُّظي الكاملِ على وصفِ نفسِكَ بالغريب، الأكاديميا تُرَحِّبُ بالجميعِ أيّاً كانوا. إنَّها معبدٌ لنموِّ الفِكرِ والعقلِ، وليسَ في معبدِ الفِكرِ فَرقٌ بين أصيلٍ ودخيل.

– إذاً ماذا يتوجَّبُ عليَّ لكي أكونَ جزءاً مِن هذه المغامرةِ الرائعة؟ سألَ أشنار لِشَغَفِه بأن يُكوِّنَ صورةً واضحةً لدَيه.

فأجابَهُ أفلاطون مبتسماً:

– فقط أن تكونَ مستعدّاً للنقاشِ والحِوار.

– أفهمُ من كلامِكَ يا سيدي أنَّ الأكاديميا مجّانيَّة، سألَ أشنار.

فردَّ أفلاطون موضِحاً:

– إنّها مجّانيَّةٌ ولكن يتعيَّنُ على التلاميذ أن يَتَدَبَّروا معيشتَهم وحَسْب. ولهذا السبب، ستُصادِفُ فيها طلّاباً نبلاءَ أو أمراءَ أثرياءَ وطلّاباً مِن العامَّة.

وتابع:

– ما قلتُهُ لا يعني أنَّ الانتسابَ إلى الأكاديميا سيكون محصوراً بالأمراء والأثرياء. إنَّ جلَّ ما أقصدُهُ هو أنَّ على المنتسبين الفقراء أن يسعوا إلى تحصيلِ قوتِهم، وتأمينِ مصروفِهم، مِن خِلالِ بعضِ الأعمالِ الإضافيَّةِ التي يستطيعون ممارستَها في بعضِ الساعاتِ مِن الليلِ أو من النهار. سوفَ يُمكِنُهم العملُ بصِفَةِ مُساعدين لمعلِّمي الأكاديميا... وعندَ ذلك، يا أشنار، قد يتساوى في الأكاديميا الغنيّ والفقير.

هنا تذكَّرَ أفلاطون أنَّ مُحاوِرَه ذو مَوقعٍ رفيعٍ في بِلادِه، فاستطردَ قائلاً:

– هدفُ الأكاديميا الأسمى هو إنضاجُ الفِكرِ والأداءِ عند المنتسبين إليها، وتلقينُهم مبادئ السياسةِ وأصولَها، ليُحسِنوا إدارةَ شؤونِ الحُكمِ عند ارتِقائِهم إلى سُدَّةِ المسؤوليَّة واضطلاعِهِم بها.

وكان لهذا الاستطراد وقعٌ عظيمٌ في نفسِ أشنار لأنَّه جاءَ جواباً عن سؤالٍ كبيرٍ كان يهمُّ بطرحِهِ على أفلاطون منذ لحظاتٍ مستفسراً عن دورِ الأكاديميا في إعدادِ أولياءِ العهودِ سياسيّاً ليبلوا البلاءَ الحَسَن عندَ تسلُّمِهم بعض زِمامِ الأمور.

ولكنّ السؤال الذي طالما ألحَّ على أشنار وهو:

– هل تستطيعُ الفلسفةُ أن تُجنِّبَني يوماً خطرَ الانشطار بين سياسةِ الحُكمِ البابليّ وضروراتِ التجارةِ مع مصر والفراعنة مِن أجلِ اقتصادِ بيبلوس؟

إنما تعمَّدَ أشنار إغفالَه في حِوارِهِ مع أفلاطون، آمِلاً أن توفِّرَ له الأكاديميا في المستقبلِ القريبِ الجوابَ المُقنِعَ عن هذه المُشاطرةِ التي طالما أقلَقَته منذ كان يُراقبُ قراراتِ والِدِهِ (إيهاب مُلك).

كان الحديثُ كلُّهُ يجري على مرأىً ومَسمَعٍ مِن كالوباي، فاطمأنَّ كالوباي إذذاكَ إلى توجُّهِ صديقِه، ورَجَّحَ أنَّه سيخرجُ مِن تفاصيل السياسةِ التي أغضَبَته وأنهَكَته، والمتمثِّلةِ في دأبِهِ على المقارنةِ بين التأثيرِ البابليّ والفرعونيّ في مدينتِه، وتأثيرِ العداءِ والجفاءِ بين بيبلوس وأثينا عاصمةِ الإغريق، وقرَّرَ، مطمَئِنّاً إلى توجُّهاتِ أشنار الجديدةِ التي لا شكَّ تُشبِعُ نهمَ أشنار إلى المُطلَق، أنَّه صار عليه العودة إلى بيبلوس.

وهكذا كان على كالوباي أن يغادرَ أثينا ويُبحِرَ إلى بيبلوس حاملاً إليها الإكليلَ الذي ضُفِرَ به جَبينُ صديقِهِ في الأولمب، لتحتفلَ بيبلوس بالنصرِ المُبين.

وكان على صديقِه أشنار أن يُلازِمَ أثينا ليلتحقَ بالأكاديميا، الموجودة على مقربةٍ مِن أثينا فيُكابِدَ فيها مشقّةَ المعرفةِ ويخوض، بعدما خاضَ مغامرةَ البطولة، مغامرةَ العقل.

في إحدى الخلوات، وقبيلَ التحاقِه بالأكاديميا، أحبَّ أشنار أن يزدادَ معرفةً بأفلاطون وإحاطةً بشخصيَّتِه، قالَ له:

– أريدُ أن أعرِفَكَ عن كثب، وأنا متشوّقٌ لقراءةِ سيرتِك مِن خلالِ حديثِك. ماذا لو تدلُّني على الطريق؟ كيف بدأتَ مشوارَك مع سقراط؟ لماذا قتلوه؟ وأنتَ، أيّها المعلّمُ الكبير، لماذا فرَرت مِن أثينا، مأوى الشياطين؟ لماذا؟...

فقاطَعَه أفلاطون قائلاً:

– اسمعْ يا أشنار، الطريقُ إلى المعرفةِ محفوفةٌ بالصِّعاب. لن يتيَسَّرَ لك أن تعبرَها دفعةً واحدة. الطريقُ هذه لا تَسلك خطّاً مستقيماً، إنَّها كثيرةُ التعرّج، وفيها الكثير مِن المطبَّاتِ والمنزلقات. إنها أشقُّ وأخطرُ من السياسة.

وتابعَ الفيلسوفُ قائلاً:

– هل تودُّ أن تستمعَ إلى أسطورةِ أهلِ الكهفِ التي كتَبْتُها لتيسيرِ فَهمِ مَقولة المعرفة؟

شعَّ في عينيْ أشنار نورٌ ممزوجٌ بالغِبطةِ ولم يكشِفْ لأفلاطون أنَّ أسطورتَه الشهيرةَ كانت قد بَلغَته في بيبلوس، وقال:

– بكلِ سرورٍ يا أفلاطون.

– إذاً استمعْ إليَّ جيداً:

المسألةُ هي مسألةُ الصراع بين اليَقينِ والوهم.

واعلَمْ أنَّ هناك فرقاً بين الشمسِ كما هي، وتصوّرِنا للشمسِ وإحساسِنا بها وموقفِنا منها؛ وأنَّ هناك فَرقاً بين حقيقةِ الشيءِ وتصوّرِنا له، وبين الحقيقةِ والوهم؛ وأنَّ كل إنسانٍ يعيشُ في كهفِه، أي في عالَمَين: الجزئيّ الحقير والنسبيّ الصغير والمتغيّر، وهو العالَم الذي نُطلِقُ عليه اسم عالَم الوهم. إنَّه عالمُ التغيّرِ والاستحالةِ وفسادِ الأشياءِ وانتهائِها التدريجيّ وانحلالِ عناصرها. فإن سَنحَت لهذا الإنسان فرصةُ الخروجِ مِن كهفِهِ السحيقِ هذا، أفلا يصبح بمقدورِه، برأيِك يا أشنار، معانقة المعرفة ومواجهتها؟

– هذا أغلب الظنّ، يا أفلاطون.

– أيقوى على هذا التحدّي برأيِك أم يفضِّلُ أن يبقى قابِعاً في ظلماتِ الكهفِ الدامسة؟

– لا... سيكونُ فيه قوَّة للخروجِ من كهفِه نحو نورِ المعرفة.

– إذاً تتبَّع معي تفاصيل هذه الأسطورة.

تخيَّلْ رجالاً يعيشون في كهفٍ تحت الأرضِ تطلُّ فُتحَتُه على الضوء، ويليها مَمرٌّ يُوصِلُ إلى الكهف، وهناك ظلَّ هؤلاء القوم منذ نعومةِ أظفارِهم، وقد قُيِّدَتْ أرجُلهم وأعناقهم بأغلالٍ بحيث لا يستطيعون التحرّك مِن أماكِنهم، ولا رؤيةَ أيّ شيء سوى ما يقعُ أمام أنظارِهم، إذ تعوقُهم الأغلالُ

عن الالتفاتِ حولَهم برؤوسِهم، ومِن ورائِهم تضيءُ نارٌ اشتعلتْ عن بُعدٍ في موضعٍ عالٍ... السجناءُ في موقِعهم هذا لا يَرون شيئاً غير الظلالِ التي تُلقيها النارُ على الجدارِ المواجهِ لهم مِن الكهف، وبين النارِ والسجناءِ طريقٌ مرتفعةٌ مشابهةٌ لتلك الحواجز التي نجدُها في مسرحِ العرائس المتحرّكة.

– إنّي أُتابِعُكَ بشغفٍ يا أفلاطون... أكمِل.

– وهذه الطريقُ المرتفعةُ تخفي اللاعبين، وهم يعرضون ألاعيبَهم.

– نعم.

– وتصوَّر يا أشنار الآن، على طولِ الجدارِ الصغيرِ، رجالاً يحملون شتّى الأدوات الصِناعيَّة، تشملُ أشكالاً للناس والحيوانات وغيرهما صُنِعَت من الحجرِ أو الخشب أو غيرِها مِن الموادّ، فماذا تستنتجُ يا أشنار؟

– أستنتجُ أنَّ السجناءَ في موقِعِهم هذا لا يَرون من أنفسِهم ومِن جيرانِهم شيئاً غير الظلال التي تُلقيها النارُ على الجدارِ المواجهِ لهم من الكهف.

– حسناً... ودعني أُضِفْ أنَّه إذا أمكَنَهم أن يتخاطبوا، فأغلب الظنِّ أنهم سيعتقدون أنَّ كلماتِهم لا تُشير إلّا إلى ما يَرونه من الظِلال، وإنْ كان هناك أيضاً صدىً يتردَّدُ مِن الجِدارِ المواجهِ لهم أفلا يظنّون، كلّما تكلَّمَ أحدُ الذين يمرّون مِن ورائِهم، أنَّ الصوتَ آتٍ مِن الظلِّ البادي أمامهم؟

– بالطبعِ، يا أفلاطون.

– جيّد يا أشنار! هؤلاء السجناء إذاً لا يعرفون من الحقيقةِ إلّا ظلال الصور. والآن تأمَّلْ ما الذي سيحدثُ تلقائيّاً إذا أطلقنا سراحَ واحدٍ مِن هؤلاءِ السجناء وأرغمناهُ على أن ينهضَ فجأةً، ويديرَ رأسَه، ويسيرَ رافعاً عينيه نحو النور... فماذا سيحدثُ حينذاك يا أشنار؟

– سينبهرُ إلى حدٍّ يعجزُ معه عن رؤيةِ الأشياء التي كان لا يرى لها سوى الظلّ مِن قَبْل.

– أحسنتَ، يا أشنار! هذا دليلٌ إضافيٌّ إلى أنَّ منهجَ أستاذي ومُلهمي سقراط مصيب. فالحوارُ مع طالبِ المعرفةِ يحوّلُه إلى فيلسوف. وها أنتَ تخطو خطواتك الأُولى باتِّجاهِ الفضيلةِ والحكمة. ولكن فلنَعُدْ إلى هذا المنبَهِر، ماذا تظنُّه يقولُ إذا أنبأَهُ أحدٌ بأنَّ ما كان يراهُ مِن قَبْل مجرد وَهْم، وبأنَّ رؤيتَه الآن أكثر دقَّةٍ لأنَّه أقرب إلى الحقيقة؟ ماذا سيكون ردّه؟ ولنفرِضْ أيضاً أننا أريناه مختلف الأشياء التي تمرُّ أمامه، ودفعناه تحت إلحاحِ أسئلتِنا إلى أن يذكرَ لنا ما هي... ألا تظنُّه سيشعرُ بالحريَّة؟

– بالطبع، يا أفلاطون.

– ألن يعتقد أنَّ الأشياءَ التي كان يراها مِن قَبل، أقرَب إلى الحقيقةِ مِن تلك التي نُريهِ إيّاها الآن؟

– بالتأكيد!

– ولنفترض أنّنا اقتدناه رغماً عنه، ومَضينا به في الطريق الوعرة صعوداً ولازَمناه حتى يواجهَ ضوءَ الشمس. ألا تظنُّه سيتألمُ وسيثورُ لأنَّه اقتيدَ على هذا النحوِ بحيث إنَّه عندما يصِل إلى النور تنبهرُ عيناه مِن وهجِه إلى حدٍّ لا يستطيعُ معه أن يرى أيَّ شيءٍ ممّا نسمّيه الآن أشياءَ حقيقيَّة؟

– هذا صحيحٌ مِن دونِ أدنى شكّ، يا أفلاطون.

– إنه يحتاجُ في الواقع إلى التعوّدِ التدريجيّ قبل أن يرى الأشياءَ في ذلك العالَم الأعلى والأرقى والأسمى. ففي البداية يكونُ أسهَل الأمور أن يرى الظلال، ثمّ صورَ الناسِ وبقيّةَ الأشياءِ منعكسةً على صفحةِ الماء، ثمّ الأشياءَ ذاتها، وبعد ذلك يستطيعُ أن يرفعَ عينَيه إلى نورِ النجومِ والقمر، فيكون تأمُّلُ الأجرامِ السماويَّةِ وقبّةِ السماءِ ذاتِها في الليلِ أيسَرَ له من تأمُّلِ الشمسِ وَوَهجِها في النهار... بل كما هي ذاتها وفي موضِعِها الخاص. وبعد ذلك سيبدأ بتأمُّلِ الشمس كما هي على حقيقتِها، وسيصِلُ إلى أنَّ الشمسَ هي أصل الفصولِ والسنين، وأنها تتحكَّمُ في كلِّ ما في العالَمِ المنظور، وأنَّها بمعنىً ما، علّةُ كلِّ ما كان يراهُ هو ورفاقُه في الكهف.

لا شكّ يا أشنار، في أنَّه سيرى الشمسَ أولاً، ثم سيجادلُ من أجلِها، فإذا ما عادَ بذاكرتِه بعد ذلك إلى مسكنِه المظلِم القديمِ تحت الأديم، فإنَّه سيبتغي مشاركةَ الحكمةِ التي استجَدَّتْ عليه بفعلِ ارتقائِه هذا، مع رفاقِه الذين ما يزالون سجناء تحت الأرض. ألا تظنُّهُ، يا أشنار، سيغتبطُ لذلك التغيّرِ الذي طرأ عليه ويرثي لحالِ زملائِه في المَسْكنِ القديم؟

– أظنُّ ذلك، يا أفلاطون.

– أنا أعتقدُ، يا أشنار، أنَّه إذا ما كانت لديهم عادة إضفاء مظاهر الشرَف والتكريم بعضهم على بعض، ومنح جوائز لصاحبِ أقوى عينين تَريان الظلالَ العابرةَ، وأقوى ذاكرة تستعيدُ الترتيبَ الذي تتعاقبُ به أو تقترنُ في ظهورِها، أتظنُّ أنَّ صاحبَنا المذكور ستتملَّكُه رغبةٌ في هذه الجوائز؟

– بالطبعِ لا.

– بالتأكيدِ لا، يا أشنار! فلن يَحسُدَه أبداً مَن اكتملت لهم ألقابُ الشرف ومظاهر القوَّة بين أولئِك السجناء!

سيشعرُ بما شعرَ به "أخيل" عند "هوميروس" بأن يفضِّلَ ألفَ مرَّة أن يكونَ على الأرضِ مجرّد خادم أجير عند فلاّح فقير، وأن يتحمَّلَ كلّ الشرور الممكنة ولا يعود إلى أوهامِه القديمة أو العيش كما كان يعيش مِن قَبل... أليسَ كذلك؟

– هذا ما أنعَتُه بالحقيقة، يا أفلاطون.

– تصوَّر معي، يا أشنار، ماذا يحدثُ لو عادَ صاحبُنا واحتلَّ مكانَه القديمَ في الكهف، ألَن تنطفئ عيناهُ من الظلمةِ حين يعودُ فجأةً مِن الشمس؟ فإذا كان عليه أن يحكمَ على هذه الظلالِ مِن جديد، وأن ينافسَ السجناءَ الذين لم يتحرَّروا مِن أغلالِهم قَطّ، في الوقتِ الذي تكون عيناهُ فيه لا تزالانِ معتمَتَين زائغَتين، وقبل أن تعتادا الظلمةَ، وهو أمرٌ يحتاجُ إلى بعضِ الوقت... ألَن يسخروا منه؟

– هذا أقلُّ ما يمكن أن يفعلوه نظراً لِوضعِهم، يا أفلاطون.

– ألَن يقولوا إنَّه لم يصعَدْ إلى أعلى إلّا لكي يفقِدَ بصَرَه؟

– بالتأكيد.

– ألَن يقولوا إنَّ الصعودَ أمرٌ لا يستحقُّ مِنا عناءَ التفكيرِ فيه؟

– صحيحٌ.

– فإذا ما حاولَ أحدٌ أن يحرِّرَهم مِن أغلالِهم ويقودَهم إلى الأعلى، إلى النور، أفلَن يُسيئَهم هذا، بل ربما يحاولون قتلَه؟

– أصبتَ، يا أفلاطون.

أخذَ أفلاطون نَفَساً عميقاً، وتابع:

– عندما كنتُ شاباًَ، برعتُ وأبدَعتُ في الشِعرِ والموسيقى، وتفوَّقتُ في البَلاغةِ، وأتقنتُ الرياضيات، وصارعتُ في الألعابِ البرزخيَّة، وحاربتُ في معارك ثلاث، حزتُ جائزة الشجاعة، وحظيتُ بإعجابِ الشباب والبنات.

اسمي الحقيقي هو "أرستوقليس"، وأفلاطون لقبٌ لُقِّبتُ به، وهو يعني صاحبَ المنكبَين العريضَين، والبنيةِ الممتلئةِ القويَّة. وقد قُيِّضَ لي، وأنا في العقدِ الثاني مِن العمرِ، أن أتعرَّفَ إلى شيخٍ أوتيَ مِن الطلاقةِ في الكلامِ، والعمقِ في الفكر، والشجاعةِ في القلبِ ما كان يحفِّزُنا على الإصغاءِ إليه، ويستثيرُ فينا الفضولَ المعرفيَّ لإغداقِ الأسئلة عليه.

منذ ذاك الحين، تفتّحَت أنوارُ أقوالِه في ذهني، فمزَّقتُ قصائدي، وهجرتُ الرياضة، وتخلَّيتُ عن متعِ النساء، وتبعتُهُ وبقيتُ ملازماً له.

وتوقَّفَ فجأةً، ثمَّ أطلَقَ تنهيدةً عميقة، وقال:

– كنتُ مُعجَباً بفلسفتِهِ لأنَّه كان يُمَثّل، بالنسبةِ إليّ، نقيضاً للسفسطائيّين الذين تخصّصوا بتدميرِ المعرفة، مُضَحّين بالجوهرِ مِن أجلِ القشور.

– وهل استمرَّتْ العلاقةُ بينكما طويلاً؟

– حتى موتِه، بل حتى أروع نهايةٍ لحياتِه.

– ألم يكنْ بإمكانِه النجاةُ بنفسِه؟ سألَ أشنار.

– الفيلسوف، أجابَ أفلاطون بكلِّ ثقةٍ واعتزاز، همُّه أن تنجوَ أفكارُه، لا أن ينجوَ جسدُه. أَلَمْ تهرب أنتَ مِن أجلِ المعرفة؟ كان بإمكانِك أن تبقى في بيبلوس أميراً متوَّجاً على منصَّةِ المَجد والشهرةِ والملذّات، ولكنَّك تنازلتَ عن كلِّ شيء، وتشبَّثتَ فقط بفكرةِ البحثِ عن المعرفة. إنّك تشبهني يا أشنار. فأنا نبذتُ حياتي السابقة، وتمسَّكتُ بسقراط. سقراطُ الذي رأينا بوادر الاتجاه الإلهي في فلسفتِه. سقراطُ الذي اتّخذَ مِن العبارةِ القديمة "اعرف نفسَك بنفسِك" التي كانت مكتوبةً على معبدِ "دلفي" شعاراً له وقاعدةً لفلسفتِه، والذي دَحضَ آراءَ السفسطائيين، وبيَّنَ أنَّ للأخلاقِ أسُساً ثابتةً قائمةً على توحيدِ الفضيلةِ والمعرفة. سقراطُ الذي سحَرَني، هَتكَ الحجبَ، وكشفَ سرَّ الإنسان. سقراط هذا جعَلَ أثينا قويَّة بقوَّةِ عقيدتِها وحقائقِها فخانَتْه، واقتادَتْهُ إلى المحاكم بتهمةِ الإلحاد، أفظعِ التُّهم وأبعَدِها عن الانطباقِ عليه، وأنزَلَتْ به عقوبة الإعدام.

– هل صحيحٌ أنَّه أقامَ هيكلاً للحكمةِ والفضيلة؟ قالَ أشنار مستفهماً.

فأجابَه أفلاطون:

– لم يستطعْ تجسيدَ ذلك، لأنَّ حكومة الفوضى لا تجد نفعاً في الفكر. إنها تخشاه وتحاربُه.

حيث تسودُ الفوضى تسودُ المصالح وينتفي الفكر. وحيث يحكمُ الجمهورُ تغيبُ الحقائق، وتظهرُ الغرائز.

الكثرةُ لا تولِّدُ الحكمةَ والمعرفة، بل تولِّدُ الكارثة، والجنون، والعنف، والفساد. مدينةٌ غابَتْ عنها الحقيقةُ والعدالةُ هي سجنٌ للمواطنين أجمعين.

أليسَ مِن السخافةِ بمكانٍ أن يحكمَ الناسَ خطباءُ يستثيرون المشاعرَ بخطبٍ طنّانةٍ كالطبولِ الفارغة، رنّانةٍ كالأوعيةِ النحاسيَّةِ الجوفاء؟!

مقاليدُ الحُكمِ يجب أن تكونَ في أيدي الحُكماء، في أيدي الفلاسفة، لأنَّهم وحدهم يُرشدون المجتمعَ إلى الخيرِ والعدالة، ووحدهم يُدرِكون معنى الحقِّ والخير، مهما تحاملَ القائلون.

فيما كان أفلاطون يثيرُ مسألةَ الحُكماء، كان أشنار يتذكَّرُ مدينةَ بيبلوس، ويتساءَلُ في نفسِه: أين بيبلوس مِن الفلسفةِ والفلاسفة؟ أليستْ ضحيَّة مصالح متضاربة بين الفراعنة والفرس؟

ويرثي لحالِ أبيه، مردِّداً:

– مسكينٌ أبي. الميزانُ الذي يحملُه لا يشبه ميزانَ الحكمةِ والعدل. إنه ميزانُ تاجرٍ يزن مصالحَ إمبراطوريّتَين ليُبقي مدينتَه على قَيدِ الحياةِ تعيشُ نبلاً. همُّه كلُّه محصورٌ بإنقاذِ مدينته بأيِّ ثمن، حتى لو أدَّى ذلك إلى فقدانِ الهويَّة والنفس والكرامة.

ويستعيدُ في ذهنِه صورةَ ممثّل الفرعونِ وهو يكلّلُه بالغار، فيعاودُه مرَّةً جديدة الشعورُ المرُّ بالذلِّ والهوان.

في هذا الوقت كان أفلاطون لا يزال يتابع، فقاطَعَهُ أشنار سائلاً:

– ولكن ما المحطَّة الأبرَز في أسفارِك؟

– ثمَّة محطّتان: الأولى تارونتا، والثانية سرقسطة. فعندما قصَدتُ أن أبني في أثينا سياسةَ العِلمِ والفضيلة، وسياسةَ العدالةِ الاجتماعيَّةِ والفرديَّة، أخذتُ أفتّشُ عن مِثالٍ حيٍّ وجدتُه في تارونتا حيث كان صديقي "أرخيتس" البيثاغوري مِثالَ الحاكمِ الكامل، بتولّيهِ قيادة مدينتهِ سبعَ مرّاتٍ بوسائل ديمقراطيَّة انتخابيَّة، ونجاحه نجاحاً باهراً في تحقيقِ الحُكم المِثاليّ وإرسائِه، وفقَ أفكارِهِ وفلسفته، على أسسِ العدالة والحريَّة والسعادة.

وشاءَت الأقدار أن تُشركني في محاولةِ إصلاحٍ سياسيّ وأخلاقيّ، فَقَيَّضَتْ لي أن أتعرَّفَ إلى صهرِ ملِك سرقسطة الطاغيةِ "ديونيسيوس"، وأن أتلَّقى دعوةً مِنه إلى سرقسطة لأساعدَه في توجيهِ سياسته إلى العدلِ والفضيلةِ والحريَّة. وقد لبَّيتُ الدعوة، ظنّاً منّي أنّي سأحقِّقُ هدفي السياسيَّ في بلادٍ غريبةٍ تمهيداً لتحقيقِه في أثينا.

سألَه أشنار:

– وما كانت النتيجة؟

فهزَّ برأسِه وقال:

– مفارقاتُ الحياةِ في سرقسطة كانت مضربَ مَثَلٍ في الفسادِ الأخلاقيّ والسياسيّ.

السفسطائيّون الذين كانوا يؤمّون البلاطَ هناك، كانوا يشجّعون الفساد، ويغذّونه حبّاً بالإثمِ وطمعاً بالمال. و"ديونيسيوس" الذي كان يتمنّى أن أكونَ في بلادِه ليستفيدَ مِن وجودي، ويستغلَّ شهرتي الواسعة في بلادِ اليونان، ويظهرَ أمام الشعب، وسائرِ الطغاةِ الآخرين بمظهرِ الحاكمِ الفيلسوف، لم يتحمَّل تأثيري الإيجابيّ في صِهرِه، فتنكَّرَ لي وله على السواء. كان "ديونيسيوس" هذا متمسّكاً بنمطِ حياةٍ قِوامه الإقبال على الشراهة في النهار، وعلى العهارة في الليل.

– وماذا فعلتَ إذاً؟ قالَ أشنار.

– غادرتُ وعدتُ إلى هنا، إلى حيثُ انطلقتُ مؤمِناً إيماناً عميقاً بأنَّ الإصلاحَ السياسيَّ مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً وجوهريّاً بالاصلاحِ الأخلاقيّ، أخلاق الحكّامِ أولاً، ومِن هنا، وجَّهتُ عقلي وقلبي ومالي إلى تربيةِ الحكّام.

اسمَعْ يا أشنار، السياسةُ امتدادٌ طبيعيٌّ للأخلاق، لذلك واجَهْتُ السفسطائيّين الذين يعتبرون الأخلاقَ مِن اختراعِ الضعفاء. الأخلاقُ والانصياعُ للعدلِ لَيْسا من أجلِ حمايةِ الضعيف مِن جبروت القوي. السلطةُ برأيي، يا أشنار، حقٌّ شرعي للجميع وليسَتْ شَرَفاً لغنيٍّ أو قديرٍ أو متسلِّط. إحرازُ السلطة، في محصَّلة الأمر، إنما يكون بقوّةِ العقلِ لا بقوّةِ الغاب. وأنا لا أستطيعُ تشريعَ القرارات الظالمة للدولة أو لصاحبِ السلطة فيها. أنا أنادي بدولةٍ تُعاقِبُ المجرمَ لا البريء، وتكافئُ

الخيّرَ لا الشرّير، وإذا لم يتمّ ذلك، فإن المقاييسَ تفسدُ في الدولةِ والمجتمع، وتصبحُ الأمور عاليها سافلها.

– ولكن أين سلطةُ الشعب مِن كلِّ ذلك يا أفلاطون؟

– يا عزيزي، إنّ دولةَ الحقِّ صورةٌ مكبّرةٌ للفَرد، لأنَّ غاية الأخلاق هي الدولة لا الفَرد. وبمعنى آخر، إنَّ الفَردَ عبارةٌ عن صورةٍ مصغَّرةٍ للدولة، والدولةُ هي الهيكلُ الضخمُ لهذا الفَرد. وبما أنَّ العقلَ في الفَردِ يُعتَبَرُ أعظم القِوى جميعاً، لذلك يجب أن تكون الفلسفةُ هي القوَّة الحقيقية في توجيه الدولة، ويجب أن يكون رئيسُها فيلسوفاً، لأنَّ العدالة في الفَردِ وفي الدولة لا يمكن أن تتمَّ ما لم يبسط العقلُ نفوذَه وحُكمَه.

– وهل تتوافرُ هذه الصفات في الأفراد، يا أفلاطون، أم المطلوبُ توافرُ مواطنين من الدرجةِ الأولى يمتلكون صفاتٍ خاصّة ممنوحة لهم وممنوعة على الآخرين؟

– صدَقت، يا أشنار. إذا كنتَ ترى أن الشعبَ مصدرُ السلطات فأنتَ مُخطئ لأنَّ الديمقراطيَّة على هذا النحو يمكن أن تحملَ في طيَّاتِها دكتاتوريَّةَ الأكثريَّة. حتى الديمقراطيَّة، يا أشنار، يمكن أن تحملَ في ممارستِها بذورَ الطغيانِ والتعصّب والظلمِ إذا لم تستنِرْ بصيرةُ الحكّامِ بالقوانين العادلة والحكيمة.

لم يصدِّق أشنار ما يسمع! صعقَتْهُ المفاجأة، وأخذَ يُردِّد في أعماقِه:

– أنا لا أزال في أوَّلِ الطريق. هذه أوَّلُ رحلةٍ لي، فإلى أين ستقودُني المغامرة؟! لستُ أدري.

في الأكاديميا

بالرغمِ من الحيرةِ التي تكتنفُه، عادَ أشنار من أولمبيا إلى أثينا حيثُ وَدَّعَ رفيقَه كالوباي وكلَّفَهُ برسالةٍ ينقلُها إلى أبيه وأمِّه.

في أثينا أصبحَ أشنار قابَ قوسٍ أو أدنى من الأكاديميا التي كانت قد بُنِيَتْ على ملعبِ أكاديموس وفي قرية "كولونا" (Colone) التي تُعدّ من ضواحي مدينة أثينا.

وعند وصولِهِ أمامَ مدخلِ الأكاديميا، قرأَ أشنار العبارة المنقوشة على جبينِ مَدخَلِها:

"لا يدخلنَّ أحدٌ إن لم يكن مهندساً".

وارتبَكَ ارتباكاً شديداً وراحَ يسألُ نفسَه: ما الحكمةُ التي جَعَلَتْ أفلاطون يشَجّعني على الانتساب، وأنا الجاهلُ بالهندسة، وغريبٌ عن عالمِ المهندسين؟

وعَبَثاً كان يبحثُ لسؤالِهِ هذا عن جوابٍ فَلَبِثَ حائراً في أمرِه، إلى أن تجاوزَ عتبةَ المدخلِ متحدِّياً الشعار المنحوت على ساكفِ المَدخَل.

وبعد خطواتٍ في بهوِ الأكاديميا صادَفَ في أحدِ الممرّات رجلاً في خريفِ العمر، توحي ملامحُهُ أنّه من العاملين، فاستأذَنَهُ أشنار مستوضِحاً معنى العِبارة.

الرجلُ هذا كان "أودوكس" (Eudoxe)، معلّم الرياضيات في الأكاديميا. قرأ فوراً على وجهِ أشنار ما يختلجُ في داخلِهِ من تردّد وحيرة، فاستجابَ "أودوكس" فوراً لطَلَبِهِ وقال:

– أن يكون الإنسانُ مهندساً، فذلك لا يعني أبداً أن يُتقن بالضرورة فنّ الهندسة. المقصودُ بالمهندس، يا عزيزي، هو مَن يُراعي في تفكيرهِ انسياب الأسباب والنتائج وَفْقَ منطقِ العلوم الهندسية.

واستنتجَ ناصِحاً:

– لِذا، عليكَ أن تطمحَ هنا إلى امتلاكِ تِقنيّاتِ التفكير المنطقيّ التي هي في تسلسلِها تُشكِّلُ في حقيقةِ أمرِها تقنيّاتٌ هندسيّة.

وأضاف:

– الهندسةُ هي أوّلاً، وقبلَ أيّ شيءٍ آخر، أسلوب تفكيرٍ يعتبرهُ معلّمُنا أفلاطون الأسلوبَ الأفضَل والأمثَل الذي يجب أن يقودَ قرارات مَن يُمارس الحُكم.

هذا التوضيحُ بدا لأشنار كافياً، بل اللحظةُ القصيرةُ هذه كانت حاسمةً بالنسبة إلى حيرتهِ فشعَرَ بمحدوديّةِ قدراتِه، وبالتحدّي المستحَبّ الذي تفرضهُ عليه، والمتمثّل في مدى نجاحِهِ في تخطّي ذاتِه، والتدرّج في الارتقاءِ وصولاً إلى هدَفِهِ الأسمى.

وليعيَ، في الوقتِ عينِه، أنَّ الحياةَ المشتركةَ في الأكاديميا كفيلةٌ بتحفيزِهِ على البحثِ وبتحريكِ فضولِهِ إلى معرفة المُطلَق وبتنميةِ الفضيلة في سلوكِه.

وقد كان على أشنار بعد ذلك أن يقضيَ أسوةً بسائرِ زملائِه، فترةً خصَّصَتْها الأكاديميا للتأقلم والانتظام في الجوِّ العام قبلَ المباشرةِ بتطبيقِ مَنهَجِها وبرامِجِها المقرَّرة.

وفيما كان يذرع ممرّات الأكاديميا جيئةً وذهاباً، متوقِّفاً عند كلِّ مكوّنٍ من مكوّناتها، وتَفصيلٍ من تفصيلاتِها، قادَهُ أحَدُ الممرّات إلى الباحاتِ الخارجيّة، وشدَّ ما كانت دهشته هناك، عندما وجَدَ نفسَهُ، وهو لا يزال في أوّل الطريق، يتأهَّبُ ليخطوَ الخطوة الأولى، بين مجموعةِ أقرانِه، عُرِفَ منهم "إيبونيكوس" (Eponicus) و"كاليكلس" (Calicles)، و"بوليمارك" (Polymarque)، يتحلَّقون حولَ أفلاطون ونخبة مِن جهابذةِ العِلمِ والفِكرِ والفلسفةِ في اليونان.

كان أفلاطون قد استفاضَ، قبلَ وصولِ أشنار، في الإجابةِ عن أسئلةٍ كثيرةٍ وُجِّهَتْ إليه حولَ اللّذة، والألم، والفضيلة، والعدالة، والسعادة.

وكانَ قد حذَّرَ من لذَّةِ الشَهوة لأنَّه يعتبرُها موتاً متكرّراً للفضائل عند الناس، تُغذّي الرغائب فيهم، وتنمّي الآلام، ولأنَّ إشباعها لا يروي الظمأ بل يضاعف شعورهم بالحرمان.

وميَّزَ بعدَ ذلكَ أفلاطون بين لذَّتَين: لذّةِ الجَسَد، ولذّةِ العقل. فاعتبرَ الأولى عابرةً ولا تلبث أن تنقلبَ مرارةً وشقاء، والثانيةَ متجدِّدة، دائمة، ومتزايدةً كلّما ازدادَتْ المعرفة.

وخَلَصَ إلى أنَّ بعضَ الفلاسفة يعتبرون أنَّ شيئاً من الألمِ النافعِ لذّةٌ في ذاتِه. ثمَّ دعاهم إلى الحكمة، فضيلةِ القوَّة العاقلة، وأُولى الفضائل على الإطلاق، محدِّداً شروط بلوغها، ومتبيِّناً كيف تشكِّلُ المعرفةُ الحقّة قيمة الحقّ مصدراً لفضيلةِ الفضائل.

كذلك توقّفَ عند الانسجام والتناسب وكيفيَّة تولُّدهما من الذات، رابطاً بين مفهومَي التناسب والعدالة، وشارِحاً كيف تكون العدالة، ومتى تكونُ أخلاقيَّة أو اجتماعيَّة، مشترطاً للثانية وجود الأولى وتولّي الحكماء الفلاسفة مقاليد الحُكم.

هنا انهالَتْ على أفلاطون أسئلةٌ تبحثُ عن أسبابِ يقينِهِ وتبحثُ عن الشعورِ الحقيقي والدائم في الإنسان.

فَعرَّجَ أفلاطون مِن ثمَّ في حديثِهِ على السعادة موضِحاً خريطةَ الطريقِ إليها، ومؤكِّداً أنَّ القفزَ إلى قمَّةِ الفضائل الإنسانيّة بل الفوز بهذه الفضيلة، يمرُّ بالتمرّسِ بالعادات الحسنة المفيدة حتى بلوغ التأمّل العقلي، ليَخلُصَ في النهاية، إلى الربطِ بين فكرةِ العدالة ومبدأ السعادة، كما بين السعادة ومبدأ الفضيلة، وربطِ كلِّ الفضائل مجتمعةً بمبدأ الخير.

وبانضمامِ أشنار إلى الحلقة، دوَّى صوتُ أفلاطون في أذنَيهِ يقول:

– إنَّ الذي يركِّزُ فِكرَهُ وعقلَهُ على الأشياءِ الأساسيَّة، لا وقتَ لدَيه لينظرَ إلى توافِهها والسوافِل، أو تأخذه الغيرةُ أو الحَسَد، أو يستبدَّ به العداء في الصِراع مع هذه الأشياء، وانعكاساتِها، لأنَّ عينَهُ متَّجهة دائماً إلى المبادئ الثابتة المستقرَّة.

فقالَ أشنار و"إيبونيكوس" معاً مستفسرين:

– وما هي المبادئ الثابتة، يا معلِّم؟

أجابَ أفلاطون:

– هي أن يُبادرَ الإنسان، بادئَ ذي بدء، إلى التخلّصِ مِن عبءِ العادةِ على سلوكِه.

ولئلّا تبقى الإجابةُ مقتضبةً، أضافَ مؤكِّداً:

– إنَّ للعادةِ على كلِّ شيءٍ سلطاناً؛ وسلطانُ العادةِ موروثٌ يُكبِّلُ الإنسان، ويُعطيهِ يَقيناً مزيَّفاً، وشعوراً خادِعاً، بأنَّ عادتَهُ تعكسُ الحقيقة، فيما هي لا تعكس غيرَ الخيالِ والأوهام.

وفيما كان بعضُهم يتأهَّبُ لطرحِ أسئلةٍ جديدة، انسَحَبَ أفلاطون معتذِراً، ليَرأسَ اجتماعاً تحضيريّاً كانَ قد دعا إليهِ وحَدَّدَ له هذا التوقيت.

وأخذَتْ تتكرَّرُ اللقاءاتُ والِحواراتُ مع أفلاطون وغيرهِ من المعلّمين الذين هم بدورِهِم من أساطين المعرفة، فتزيدُ أشنار شوقاً إلى اليوم الذي يُعلِنُ فيه أفلاطون افتتاحَ العامِ الدراسي وتبدأ الدِراساتُ في صلبِ الأمور.

ويدورُ الزمن، وتنقضي فترةُ التأقلمِ على عجلة، ويوافي اليوم الذي يجدُ أشنار نفسَهُ في صبيحَتِهِ في إحدى قاعاتِ الأكاديميا وسطَ كوكبةٍ من رِفاقِهِ الراغبين في خوضِ المغامرة الفكرية. وأمامهم أفلاطون كان اعتلى المنبرَ مُحاطاً بأفرادِ الهيئة التعليميَّة ليوجِّهَ إليهم خطبةَ الافتتاح. وخاطَبَ التلاميذَ قائلاً:

أيّها الأكاديميّون،

أرحِّبُ بِكم ترحيبَ الصديق في الأكاديميا التي أنشأتُها على رجاءِ أن نُضيءَ بواسطةِ تعاليمِها قَبَساً في الظلام الذي أخذَ يهبِطُ على أثينا، ويلُفُّ سائرَ مُدُنِ اليونان.

انتسابُكُم إلى الأكاديميا يشكّلُ في حَدِّ ذاتِهِ تحدّياً! أطلَقتموهُ على أنفسِكم بأن تَرقوا بوسائل العقل والفضيلة إلى قيادةٍ أفضَل للمجتمع وبالأخَص ترقية أنفسِكم بالذات نحو الفضيلة الأسمى.
أدعوكم إلى الاغتسالِ بأنوارِ الفلسفة والعقل، وإلى الخروج من عتمةِ الكهف، والتحرّر مِنَ الشعورِ بالقصور.
مَن مِنكم يتَطَلَّع إلى الذين يتحمَّلونَ مسؤوليّة الحُكمِ اليوم، ويعتقد أنَّ كلاًّ مِنهم يحمي بعضَكم مِن تحمُّلِ المسؤوليّة، فيبقى عاجزاً عن استخدامِ ذكائِهِ وإلّا برعايةِ الآخرين؟
وُلِدتُم أحراراً، والطبيعةُ بحُسنِ تدبيرِها مَنَحَتكُم القدرة على الانعتاقِ من تأثيرِ الآخرين، وعلى تكوينِ أفكاركم بمَعزِلٍ عن أيِّ رعايةٍ أو وصاية.

أيّها الأكاديميّون،
نحنُ هنا مع معلّمِي الأكاديميا، لتنشأوا على الحريَّة، ولتَتَعلَّموا كيف أنّ إنماءَ عقولكم يجعَلُكم تَعتَمِدون على ذواتِكم، وكيف تواجِهون المسؤوليّات بوعيٍ وقوَّة.
نحن نأملُ من تعاليمِ الأكاديميا أن تجعلَكم مستقلّين، قادرين، متحرّرين، مُبدعين، لا خاضعين قَلِقين خائفين.
لا تَظنّوا أن قيودَ المجتمع وقوانينَها تَحميكم مِن متاعب الحريَّة ومآزِقِها ومسؤوليّاتِها، ومِن احتمالاتِ التيهِ والضلال. ولا تظنّوا، هنيهةً، أنها تَمنَحُكم الشعورَ بالأمانِ والاستقرار.
وَحدَهُ الذهنُ الكسولُ يَجِدُ في القيودِ والقوالب الجاهزة راحةً تَقيهِ مشقَّةَ الاختيار، وتُجَنِّبُهُ مخاوِفَ الاستقلال.
التقيّدُ، أيّها الأعزاء، سَهلٌ، أمّا الحريَّة فخطِرة.
سَهلٌ هو التقيّدُ لأنه رَصْفُ الطريقِ واضحةَ المعالِمِ لا يضِلُّ فيها المَرءُ ولا يَتيه.
وخَطِرَةٌ هي الحريَّة لأنها تَتَضَمَّنُ مغامرةً فَرديّةً يُجازِفُ فيها المَرءُ، مِن جَرّاء قرارِه، براحتِهِ وكيانِه، ولأنَّها بالتالي تتركُهُ وحيداً بإزاءِ عشراتٍ مِنَ الطُرق يَتَعيَّنُ عليه أن يختارَ مِنها ما يُلائمُ ظروفَهُ ويُرضي طموحاتِه.
والصعوبَةُ هنا تَكمُنُ بالتخلّي عن الطرقات التي لم يختَرْها.
القيودُ تصادِرُ إرادتَكم الحرَّة وتحمِلُكم على الاستسلام.
متى نرى السوادَ الأعظمَ مِن الناس يستمتِعونَ بالنور، ويخرجون مِن الظلمة، متى نتَحَرَّرُ من نيرِ الاستبدادِ الفِكريّ؟
متى نسلكُ الدربَ الذي عبَّدَه لنا سقراط فَنَتَسلَّقَ صعوداً مِن حالةِ الغُبارِ إلى حالةِ النقاء، ومِن حالةِ الَرتابةِ إلى حالةِ الحَراك، ومِن حالةِ الإذعانِ إلى حالةِ التمرّد والعصيان؟

أيّها الأكاديميّون،
هناكَ أهدافٌ عامّةٌ للتربية والتنشئة، أحدُها تحقيقُ العدالة العُظمى التي تضمنُ سعادة الفَرد وخيرَ المجتمع.
وهدفُنا نحنُ في الأكاديميا يكتَسِبُ، بالإضافة إلى اندراجِهِ في إطارِ الهَدَفِ العامّ هذا، خصوصيّتَهُ مِن تدريبِ الذين أعَدَّتْهم الطبيعةُ للوظائف العامة، على فنِّ الحُكم.
ولأنَّ القدرة الطبيعيَّة هي المِعيارُ في توجيهِ المتدرِّب، وفي تحديدِ نوع التدريب، فقد جعلنا الانتسابَ إلى الأكاديميا مَشروطاً بامتلاكِ قدراتٍ طبيعيَّة تُخوّلُ المنتسبين إليها أن يصبحوا مِن قادةِ الرأي في المجتمعات.

أيّها الأكاديميّون،

لقد تعلَّمْتُ وَخَبرتُ، من الماضي، أنَّ الابتعادَ عن الحقيقة يَقودُ إلى أخطاءٍ مُكلِفَةٍ وجسيمة.

لقد وَقعنا في خطأ جسيم، أنا ومعلّمي سقراط، عندما ابتعدَ كلانا عن الحقيقة، عندما والَيْنا حكومة الثلاثين التي فَرَضَتْها اسبرطة علينا تحت ضغطِ الاحتلال. ابتَعَدنا عن الحقيقة لأنَّ عواطفنا فقط تجاهَ "كريتياس" و"شَرميد" اللذين كانا جزءاً مِنَ الحكومة التي فَرَضَتْها اسبرطة جعَلَتنا نواليها.

لقد تَعلَّمْتُ وخَبرتُ أيضاً أن الشَطَطَ عن الحقيقةِ، قد يتجاوزُ الأفراد أحياناً، ليُطاوِلَ الشعبَ بأسرِه. فما كان أبعدَ شعب أثينا عن الحقيقةِ عندما خَذَلني ثلاثَ مرّاتٍ على التوالي في الانتخابات!

أيّها الأكاديميّون،

إنَّ الفلسفةَ والتأمّلَ ضروريان، ولكن يجب ألّا تَقِفوا حياتَكم عليهما لأنَّ الغايةَ من الفلسفةِ والتأمّلِ هي حُسنُ السياسةِ التي، أولاً وأخيراً، ليستْ إلّا عِلمَ ممارسةِ الحريَّات.

انحدِروا من الفلسفةِ والتأمّلِ إلى الحياةِ العَمليّة، إلى مشاركة الشعب في حياتِهِ وهمومِهِ وآمالِه.

لا يهمُّ الشريعة عندي أن تعيشَ النخبة في الدولة لِذاتِها حياةً سعيدة، بل يهمُّها، ومن بابٍ أَولى، أن يعيشَ الشعبُ سعيداً.

المجتمعُ لا يَعمَلُ على تكوينِ النخبة لكي تُوَجِّهَ أعمالَها إلى كمالِها، بَل لكي توَجِّهَها إلى كمالِه.

نحنُ سوفَ نُعِدُّكُم للدولة، لا لأنفسِكم.

نُعِدُّكُم لتكونوا حُكّاماً وقادةَ رأي.

نأمُلُ أن نُثَقِّفكم ثقافةً عامّة أكمَل وأفضَل وأسمى مِن ثقافةِ الآخرين، لِتُصبِحوا قادرين على جَعلِ الفلسفةِ والفضيلةِ في خدمةِ السياسة.

الشرطُ الأساسُ لِتُصبحَ الدولةُ الفُضلى واقعاً على الأرض أن يعودَ كُلٌّ مِنكُم، بعد أن يتخرَّج، إلى مجتمعِهِ ويعيشَ فيه فيدفعهُ إلى حالةِ الرقيِّ ليستطيع أن يمارسَ ديمقراطيّة حقّة.

ليست الديمقراطية مجموعةَ قوانين وقواعد، إنَّما الديمقراطية يرقى إليها الشعبُ بواسطةِ الفضيلة والعقل والثقافة. خَصِّصوا معظم حياتِكم للسياسة، ولا ترفضوا الحُكم، لئلا تُمَهِّدوا الطريقَ أمامَ الجهّال والأشرار والنفعيّين للوصولِ إليه والتسلّط عليه.

أيّها الأكاديميّون،

لا إكراهَ في التعليم، لأنَّ الإكراه يُميتُ في كُلٍّ مِنكم معنى الحريَّة.

ولا حَيِّزَ في مناهِجِنا ملحوظاً لِقِصَصٍ مثل قِصَصِ هيزيودوس وهوميروس؛ لأنَّ هذه القِصَص لا تروي الحقيقة بل تمرُّ إلى جوانبِ الحقيقة وتَروي المُحتمَل فقط فتُفسِدُ الضمائر، وتُغذّي الميلَ إلى النزاعِ والخصومةِ والثأرِ وتَشحَذُ الأخْيلةِ بالأوهام.

أيّها الأكاديميّون،

سنعتَمِدُ مِن بين الطرائق التعليميَّة، لإثارةِ الفكرِ وتحريكِه، الطريقةَ الحِواريّة التي اعتمَدَها معلّمنا سقراط في تعليمِ تلاميذِه. كان يَطرَحُ الأسئلة عليهم ويستَمِعُ إلى أجوبتِهِم، ويُصَحِّحُ الفاسِدَ منها، ويستَدرِجُهم من مرحلةٍ إلى أخرى حتى ينتهي بِهم إلى الغايةِ التي يُريد.

فَبِالحوار يرتفعُ العقلُ مِن المَحسوسِ إلى الماهيَّة، ومن أسفلَ إلى أعلى، وبه يَهبط.

وسنحرصُ على أن نسلكَ معكم سُبُلَ البحث عن الحقيقة ليُدرِكَ كلٌّ مِنكم الحدَّ الأبعَد منها، لأنَّ الحقيقةَ الكاملة المُطلقة هي بالطبعِ عصيَّةٌ يستحيلُ أن يُحيطَ بها أحدٌ.

وهنا تَحينُ التفاتةٌ إلى أشنار، فيلاحظُ من ردَّةِ فعلِهِ وامتعاضِهِ أنَّ الكلامَ على الحقيقة لم يَقَعْ منه موقِعَ الرضى والقبول، ولكنه يتابع:

أيّها الأكاديميّون،

سيتعهَّدُكم هنا أعلامٌ كِبار كلٌّ مِنهم يُشَكِّلُ مَرجعاً في مجالِهِ ويتولّى تعليمَ الفلسفةِ كـ"زينوقراط" بينما يقودُكُم عبرَ الفكرِ الهندسيّ وعلومِ الرياضيات "أودوكس".

ستتعلّمون الهندسة من حيث هي أسلوبُ تفكير يتعذَّرُ من دونِها البحثُ عن الحقيقة بطريقة مجدِيَة. وستتعلَّمون الفلسفة بشقَّيها النظريّ متمثِّلاً بأصولِ البرهان والفِكر السويّ، والعمليّ متمثِّلاً في أساليب الحُكم وأصول السياسة، كما ستتعلَّمون أيضاً المنطق من حيث هو تحليل العِلمِ إلى مبادئه وأصوله، وأداةٌ فكرية تعصمُ عن الخطأ في التفكير والاستنتاج.

وإرضاءً لأصدِقائنا السفسطائيين سنُخصِّصُ حيّزاً محدوداً لِعلمِ البيان.

إن كلَّ ما يساعدكم في البحث عن الحقيقة ستتعلَّمونه، لأنَّ البحثَ عنها هو الأسلوبُ الأفضل والأنجَح في التدرّب على فنّ الحُكم.

أيّها الأكاديميّون،

إذ تحتضنُكم الأكاديميا اليومَ طلاّباً، نأملُ أن تُطلقَكم غداً فلاسفة جديرين بالحُكم، وبإرشادِ المجتمع إلى الخير والعدالة.

وإنّي على يقين أنكم قادرون بعدَ التخرّج، على أن تستَنيروا بالأنوارِ المختزنةِ فيكم، وتُنيروا بالأنوار المنبثقة منكم، فتوفِّروا للشعبِ المقوّمات الضرورية لممارسة الحريَّة.

وجودُكم في الأكاديميا يشَكِّلُ بحدِّ ذاتِهِ تحدّياً لذاتِكم ولكلِّ ما يروجُ في أروِقَةِ الحكّام من أثينا إلى إماراتِ الإغريق بكامِلِها. أُمنيتي لكم ولنا أن نكونَ على مستوى هذا التحدّي، وأن تتركوا يوماً الأكاديميا وفيكم الفضائل الضروريّة والروحُ الكاملة للبحثِ عن الحقيقة، هذا البحث الذي مِن شأنِهِ أن يقودَكم إلى دروبِ الحريَّات.

* * *

كان التلاميذُ جميعاً مندهشين من التأثير الذي أحدَثَه فيهم كلامُ أفلاطون. وكان أشنار، في تلك الأثناء، مُطرِقاً يتجاذبُه سؤالان أساسيّان: لِمَ دعوةُ أفلاطون إلى الإقبالِ على السياسة، والقبولِ بالحُكم؟

فاجأَتْهُ هذه الدعوة لأنَّ سياسة أبيه في بيبلوس جعلتهُ ينفرُ من "الواقعيةِ السياسيَّة"، ويزهدُ في الحُكم.

أكثر ما حيّره هو طرح أفلاطون بأنّه على الدراسات أن تكون متوجِّهة دوماً إلى البحثِ عن الحقيقة، وأنّ مِن المنطقِ أن يخوضَ الإنسانُ مِن أجلِها مغامرةَ العقل، وأن يَمضيَ في البحثِ عنها، رغم موقفه الواضح في إعلانه أنَّ الحقيقةَ المُطلقة لن يُدركَها أحَد.

وبينما كانت الحيرةُ تنهشُ أشنار تقدَّمَ منه أفلاطون، واقترحَ عليه التوجّه معه إلى الباحة الخارجيّة، للتَحدّثِ قليلاً في الهواء الطَلْق.

وهكذا قادَتْ أشنار خَطواتُهُ إلى هيكلِ "أبولون"، فهيكلِ آلهة الشعر، فإلى الحوشِ الفسيحِ حيث تنتشرُ تماثيل صخريّة متعدّدة تمثِّلُ آلهة الإغريق.

توجَّهَ إليه أفلاطون سائلاً:

– رأيتُكَ امتعضْتَ هنيهةً عند إلقائي كلمةَ الافتتاح.

أجابَ أشنار، ولعلَّهُ أرادَ أن يستَدرِجَ أفلاطون إلى الكلام فقال مُعَبِّراً عن إعجابِه:

– ما كان أبلغَ خُطبَتَكَ، يا معلّمي، هذا اليوم!

– شكراً لكَ يا أشنار.

وَهَمَّ أفلاطون بالمتابعة، لكنَّ أشنار قاطَعَهُ مُستَدرِكاً:

– لقد رأيتَني مُمتَعِضاً عندما صَرَّحتَ بأنّ الحقيقةَ المُطلقة لن يُدركَها أحدٌ. أين تكمُنُ الحقيقة المُطلقة يا معلِّم؟

فقالَ أفلاطون مُجيباً:

– كثيرون اعتقدوا أنَّ الحقيقة كامنةٌ في الشمسِ التي تسطعُ بنورِها علينا وتَكشِفُ حقيقة الأمور، ولذلك ألَّهَ المصريون الشمسَ وعَبَدوها تحت اسم الإله "رع" (Ra). وبعَد ذلك، قامَ أحدُ الإغريقيين واسمُهُ "إيكاريوس"، فصَنَعَ لنفسِهِ جَناحَين مِن شمعِ العَسَل، واستعانَ بِهِما فطارَ في الهواء نحو الشمس للبحثِ عن سرِّ الحقيقة. وما إن اعتلى حتى ذابَ شمعُ العَسَل وسقطَ "إيكاريوس" مِن عَليائهِ واحترَقَ وانحَدَرَ مُتَرَمِّداً إلى الهاوية.

اندهشَ أشنار مِن هذا الكلام وسأل:

– وَمَن يدلُّنا على الحقيقة يا معلِّم؟

فنظرَ أفلاطون إليه وقال:

– إنهم الفلاسفة والحكماء الذين يتخطّون بعقلِهم واقِعَ الأمور إلى أصولِها ليَجِدوا شيئاً من الحقيقةِ لأنَّ الحقيقة تهربُ مِن العاداتِ المتداولة وسْطَ الصخبِ والضجيج، ويُكتَشفُ وجهٌ مِنها بالتأمّل، والصمت، والعزلة، والسكينة. أفهمُ رَغبتك في البحثِ عن المُطلَق لكنْ يا أشنار، عليكَ أن تسيرَ نحو المُطلَق، وليس بالضرورة أن تُدرِكَه.

وأردفَ أفلاطون قائلاً:

– الناسُ يَعشقون الربوبيّة والسلطة وتَبهرهم مظاهرهما. وصاحبُ السلطة كثيراً ما يبتعد عن الحقيقة، ويعرف أن يعيشَ أكذوبةً مؤقّتة، ولكنَّه يُمَنّي النفسَ بديمومتِها. صاحبُ السلطة غالِباً ما يُصدِّقُ الأكذوبة التي اخترَعَها. واعلَم يا أشنار، أنَّ صاحبَ السلطة الذي لا يواسي إخوانَهُ وهو في عزِّهِ، يخذُلُهُ إخوانُهُ وهو في فاقَتِه.

وتابعَ أفلاطون مشيراً بإصبعهِ نحو تماثيل آلهة الإغريق وقال:

– أترى يا أشنار كلَّ هذه الآلهة؟ لماذا تعتقد أنَّ الآلهة كَثُرَت في النفوس؟ لأنَّ كلّاً مِن هذه الآلهة لا يُدرِك إلّا وجهاً من وجوه الحقيقة ولا يُدرِكها بكامِلِها. ولو أحدٌ مِنها أدرَكَ الحقيقة بكامِلِها لاعتلى فوق الآلهة وأصبحَ الإله الوحيد، ولانحصرَتْ الألوهية به دونَ سِواه فأغنانا عن كلِّ ما عَداه.

مِن جوابِ أفلاطون هذا، فَهِمَ أشنار مغزى ما وَرَدَ في الخُطبة الافتتاحية عن الحقيقة وسُبُلِ البحثِ عنها، وأخَذَ يُقَدِّرُ حجمَ المخاطر المُحيطة بالبحثِ عن إدراكِ الحقيقة المُطلقة التي لم يستطعْ أحَدٌ مِن الآلِهة أن يُدركَها. لكنَّ الحُكم الكبير الذي يدفَعُهُ إلى المُطلق ويُلهِمُ نفسَه، كان يشحَذُ عزيمتَهُ على اقتحامِ المسالك الشائكة ومجابهةِ الصِعاب.

* * *

وبعدَها بدأ أشنار الدراسةَ في الأكاديميا، يتخلَّلُ أيامها حِواراتٌ عديدة بين الأكاديميّين وأفلاطون بالذات.

وفي أحدِ الأيام، اقتربَ التلامذةُ من المعلِّمِ وسألَهُ أشنار بعد أن تذكَّرَ ما وَرَدَ على لسانِ المعلّم من تشجيعٍ على ممارسةِ العملِ السياسيّ فقال مُستفسِراً:

– وما تجربتُكَ أنتَ، يا معلّم، في العملِ السياسي؟

فأجَابَهُ بهدوء:

– كنتُ منذُ حداثَتي أصبو إلى العملِ السياسي، وكنتُ أنتظرُ بفارغِ الصَبرِ بلوغي السِّنّ التي أُصبِحُ فيها قادِراً على ذلك.

آنذاك، كانت الهيئة الحاكمة عندنا هَدَفاً لنَقمَةٍ شاملة، فَشبَّتْ نيرانُ ثورةٍ أطاحَتها، وتسلَّمَ زمامَ الحُكمِ نُخبةٌ مِن المواطنين، كان بينهم عددٌ مِن أصدقائي وأقاربي. كنتُ دَعَمتُها لأنّني اعتَقَدتُ في البَدءِ أنّهم سيُحسِنونَ سياسةَ الدولةِ فيَرفعون الظُّلمَ عن الشعب ويحكمون بالعدل. ولكن سُرعانَ ما خابَ أمَلي وأملُ أهلِ الفِكر، فلمّا رأيتُ الفَساد، والمظالِم، والمآسي، شعرتُ بِكُرهٍ شديدٍ للسياسة، فاعتَزَلتُها.

ثمَّ سَكتَ قليلاً، وأردَف:

– رحتُ أتأمَّلُ في هذا الوضعِ الشاذ، وكنتُ كلَّما تأمَلّتُ في الشرائعِ والعاداتِ الحاضرة، وتقدَّمتُ في السِنّ، نما فيَّ إدراكٌ بأنَّ إدارةَ الدولةِ غايةٌ في الصعوبة، وأنّي عاجِزٌ، إن لم أتلقَّ المساعدةَ مِن فريقِ عمَلٍ ومِن الأصدقاء، والدعمَ مِن المُخلِصين، عن إصلاحِ السياسة والأخلاق؛ وأنَّ وجودَ الأصدقاء والمُخلِصين هؤلاء قد باتَ أمراً عسيراً للغاية في ظِلِّ الابتعادِ عن الأصالة، وإهمالِ التقاليد.

– وهل استَسلَمتَ للواقِع؟ سألَ أحدُ التلامذة.

– طبعاً لا! لمّا رأيتُ أنَّ القوانينَ والأخلاقَ قد بَلَغَتْ مِن الفَسادِ حَدّاً بعيداً، وأنَّ كلَّ شيءٍ انحَرَفَ عن خَطِّه، أخذتُ أتَرَقَّبُ فرصةَ الإصلاح، ولكن أدرَكتُ أخيراً أن السياسات الحاضرة في وَضعٍ يستحيلُ إنقاذها، مِن غيرِ استعداداتٍ قوية وظروفٍ مؤاتية، فأخَذتُ أُثني على مَن يَتبَع الفلسفةَ الحقيقيّة، وأُجاهِرُ بأنَّها وحدَها القادِرة على أن تُرينا وَجهاً مِن الحقيقة وتقودَ الطريقَ في الحياةِ الاجتماعية والفَردية على السَواء.

وهنا تَذَكَّرَ أشنار جيداً ما قالَ له أفلاطون ذاتَ يومٍ ومُفادُه: لن تنجوَ البشريَّة مِن وَيلاتِها ما لم يحكُمْها أهلُ فِكرٍ يتكوَّنُ في الحكّام بعد اتّباعِ الأساليب الفِكريّة للهندسةِ والخطوط العامَّة للفلسفة.

وأشنار لا يزالُ متعطِّشاً إلى مَعرِفَةِ المزيد عن الحقيقة.

بعدَ كلِّ الحِوارات المتعدِّدة التي جرَتْ وتَخلَّلَتْ بينَ درسٍ وآخر، كان أشنار، في تلك الأثناء، يَتَتَبَّعُ بِدقَّةٍ مُعلّمَهُ مُعجَباً بتفاعُلِهِ الإيجابيّ مع سائليه، وبراعتِهِ في ردودِهِ عليهم، وفي إخراجِ هذه الردود بأسلوبٍ سَلِسٍ ولغةٍ راقية.

وكلَّما أطرَقَ مُفكِّراً، ارتَسَمَتْ في ذِهنِ أشنار صورةُ بيبلوس، فيُطلِق تنهيدةً عميقة، ويتذكَّرُ، بالمقارنة مع لغة معلّمِه، اللغة القاسية السائدة في بيبلوس، والرائجة على ألسِنةِ أهلِها وتجّارِها، والاستعلاء على ألسِنةِ مُمَثّلي الفراعنة الوافدينَ مِن مصر.

وفي أحدِ الأيام، بينما كانَ أشنار شارِداً يتأمَّل، نَبَّهَهُ صوتُ أفلاطون يقول:

– أينَ أنتَ، يا أشنار؟

فأجابَهُ أشنار بأسَفٍ شديد:

– اعذرني، يا معلّمي، كنتُ شارِداً بعض الشيء.

– لا بأس في ذلك، يا عزيزي، ما دُمتَ تَتأنّى في ما تقومُ بِه. أنا فقط أحذّرُكَ مِن التسرّع ومِن البَحثِ عن المستحيل. اسألْ نفسَكَ دائماً عن جودَةِ ما أنجَزتَ، لا عن الوقتِ الذي استَغرَقَهُ الإنجاز. الناسُ لا يُبالونَ بالوقت، بل بِكَيفيّةِ صَرفِه، وقد لا يأبَهون دائماً للكميَّة بل للنوعيَّة.

– لكنّ هذا لا يمنعني مِن الخَجلِ أمامك، قالَ أشنار.

فأجابَهُ أفلاطون:

– لا، يا عزيزي! قمَّةُ الخَجل أن يخجَلَ المرءُ مِن نفسِهِ لا مِن غيرِه. مُرتاحُ الضمير لا يمنعهُ المعيّرون مِن الاعتدادِ بنفسِه، ومُثقَلُ الضمير لا يحرّرهُ المادحون مِن الشعور بالخَجل. فلا مِرآةَ أنصَع مِن مِرآةِ الذات. الإنسانُ ينظرُ في مِرآةِ ذاتِهِ ليرى الانعكاس الواضح لحقيقة أعماقِه.

– ولكن متى يجب أن نتدَّرَبَ على هذا الانعِتاق؟ سألَ أشنار.

أجابَهُ أفلاطون:

– هناك آباءٌ متسيّبون ينشأُ أبناؤهم على الخوف، والخُبث، والتحايُل، والرياء، وهناك آباء يُكسِبونَ أبناءَهم عادةَ التسيّب، فينشأ أبناؤهم على أهوائهم وأمزجَتِهِم مُنتَهِكين مبادئَ الأخلاق، لا يَفونَ بوَعدٍ أو يَبرّون بعَهد.

فما حصانةُ أبناءٍ كهؤلاء في المستقبل إذا أصبحوا بدورِهم مربّين أو معلّمين أو قادةَ رأيٍ في المجتمع ضدَّ الرضوخِ والتزلّفِ والإذعانِ طمَعاً بمالٍ أو سلطةٍ أو جاه؟

أفلا يشكّل هؤلاء خَطراً على القوانين، ويمهّدون للفوضى والظلم والاستبداد؟ أوَليسَ حَريّاً بالإنسانِ أن يخجَلَ مِن نفسِهِ حين ينزَلِقُ بسلوكِهِ إلى هذا الدرْكِ السحيق؟

شبابُ هذه الأيام يعشقون الرفاهية، وأراهم في شوارع أثينا، وخارج شوارعها أحياناً، مُغرَقين في المتَع، مُنتَهكين قواعدَ الآداب.

أراهم يحتقرون السلطة، ويتهكَّمون عليها مِن دونِ أن يتجرَّأوا على الثورةِ ضدّها. لقد نَسوا كيف ولماذا ماتَ سقراط رافضاً الانصياع والرضوخ لقانونٍ جائر، على الرغم مِن العروض والصفقات التي أُغدِقَتْ عليه ليُهَرَّبَ مِن سِجنِه.

الشَّبابُ، هذه الأيام، لا يحترمون أهلَ الحِكمة والخِبرة، وينشَغِلون بالثرثرةِ الغليظةِ عن العملِ الجدّي الدؤوب.

سألَ أشنار مُستَنكِراً:

– وهل يجوزُ أن نضعَ الشبابَ كلّهم في خانةٍ واحدة؟

ألا يجتازُ بعضهم مسافاتٍ شاسعة تاركين وراءَهم المقاعد، ومُتجشّمين الأخطار الكبيرة، لتكديس المعرفة، وتسلّقِ سلّم الحِكمة؟!

– ها نحنُ مِن جديد، أجابَ أفلاطون وعلامةُ الانشراحِ باديةٌ عليه، أمام شابٍ طَموح مُغرَم بالمُطلق، تركَ ذويهِ ومُلك أبيه سَعياً وراء أهدافٍ يصبو إليها.

– نعم، يا معلِّم، صَدَقت، قالَ أشنار، ثمَّ أردفَ مؤكِّداً:

– لقد تركتُ كلَّ شيء، وقصدتُ اليونان طَمعاً بحيازة بطولةٍ في الألعاب الأولمبيَّة، وبعدها تعرفّتُ إليكَ فصرتُ مَشغوفاً بتلقّي العلوم التي يمكن أن أتلقّاها في الأكاديميا وخاصة الاجتماع بكبار مفكريّ اليونان، وأحاديثُكَ المتكرّرة عن الحقيقة جَعلتني أبحثُ عنها إلى أبعَدِ مدىً مُمكن. وأمّا الآن، فقد خَبِرتُ منكَ ومِن المعلّمين في الأكاديميا قمَّة ما أستطيع أن أُدرِكَهُ مِن غيري، والآن ماذا عن اليونان؟

– ألا تعتزُّ بالسلطةِ التي يهيّئها لكَ والدُكَ؟ سألَهُ أفلاطون مُستَغرِباً.

فأجابَهُ أشنار:

– أعتَزُّ بِوالدي، وبِوالدي فقط. أمّا شؤونُ المملكةِ فذاك أمرٌ آخر.

– ولماذا يُقلِقكَ همُّ ممارسة الحُكم؟ هل تخشى أن تقودَكَ ممارسةُ الحُكم إلى الظلمِ والطغيان؟

سؤالُ أفلاطون الأخير هذا جَعَلهُ يلتزمُ الصمت. بدا عليه كأنَّهُ يتأنّى في اختيارِ كلماتِه، ولكنَّه كان أعجزَ مِن أن ينبسَ ببنتِ شفة. كان فقط يُطلِقُ آهاتٍ حزينة مِن فيهِ ويتساءَلُ في نفسِه:

– ماذا أقولُ لأفلاطون؟ هل أقولُ له إنَّ ما دفَعَني إلى المغامرةِ والبحثِ عن المُطلَق هو ثورتي الداخليَّة ورفضي الانصياع لِما تُمليهِ عليَّ مصالِحُ المملكة؟

هل أعترِفُ له بأنَّ والدي قد بالَغَ في الطاعةِ للبابليّين والفراعنة معاً، ولو مُغَلِّفاً إيَّاها أحياناً بالظروفِ القاهرة، وأحياناً أخرى بأولَويّةِ الاستقرار وضرورات الاقتصاد لمدينةِ بيبلوس؟

هل أقولُ له إنَّ بيبلوس ممزقةٌ بين شهيَّة بلاد بابل وشهيَّة مصر، وإنَّ ثقافةَ ممارسة السلطة فيها تقومُ على استرضاءِ الأقوى والتصفيقِ للمنتصر؟

وكأنَّ أفلاطون استطاعَ أن يكشفَ أو أن يقرأ في تنهّداتِ أشنار ما يدورُ في خَلَدِه، فقالَ مُحاوِلاً نقلَ الحِوارِ مِن الخاصّ الممنوع إلى العامّ المُباح:

– ألا يجبُ أن نُضيفَ، يا أشنار، أنَّ المُقلِقَ في ممارسةِ السلطة هو البحث المستميت عن الثروة بوَصفِها أحَد مصادِرِها الأساسية؟

السؤالُ هذا وقَعَ على أشنار وقوعَ الصاعقة.

كلُّ ما كان يقولُهُ أفلاطون عن اللّهاث وراء السلطة كان يسمعُه هو في بيبلوس خَلفَ جدرانِ القصر المَلَكيّ وأبوابه الموصَدة تارةً، وفي باحاتِ القصرِ الفسيحة تارةً أخرى. فَلاذَ بالصمت.

وأمّا أفلاطون فلَم يقطَع عليه صمتَه.

كان يريد أن يمنحَهُ فرصةً للاختلاء بنفسِهِ والتفكيرِ عميقاً في حقِّهِ بَل الوَعد المقطوع له بِوراثةِ المُلك، وفي ما آلتْ إليه أحوالُ المملكة.

وكان يريد في الوقت نفسِه، إنجازاً في الأكاديميا عجِزَ عنه في سرقسطة فتكون تجربتُهُ مع أشنار، إذا نَجحَت، تعويضاً بالنسبةِ إليه عن تجربتِه الفاشلة مع "ديونيسيوس" ملك سرقسطة.

* * *

مكثَ أشنار في الأكاديميا سحابةَ سنَتَين، أُتيحَ له في خلالِهما التعرّف إلى نخبةٍ من العلماء والفلاسفة والمفكّرين، والتعمّق في غير فرعٍ من فروع المعرفة.

وكانت مشاركاتُه المُثمِرة في الحِواراتِ والأنشطة، ونجاحُهُ المتواصل، وتفوّقُهُ الظاهر، وشغفُهُ بالبحثِ الدائم عن الحقيقة، محطَّ إعجابِ معلّميه به، ولا سيَّما أفلاطون الذي قرَّبَهُ مِنه فَعَجَمَ عُودَه، وتفقَّدَ مقدرتَه، وتابَعَ تقدُّمَه، وأشرفَ إشرافاً مباشراً على نموّه وتدرّجِهِ صعوداً في سلّمِ المعرفة العِلميَّة، والعقليَّة، والسياسيَّة، والأخلاقيَّة، والروحيَّة.

أثناءَ بعض الاستراحات مِن البحثِ والدرس، كان أشنار يتنزَّه ما بين "كولون"، حيث الأكاديميا وبين أثينا. وكان يلتقي في هذه النزهات ببعضِ المفكّرين والفلاسفة في الوقت الذي كانت فيه حِواراتهُ مع أفلاطون وتعاليم الأكاديميا لا تزال تتفاعلُ حيَّةً في ذِهنِهِ ومخيِّلتِه.

التقى أشنار في يومٍ مِن الأيام بشيخٍ تكَلَّمَ معه، ولاحَظَ مِن حديثِهِ أنَّه مِن كِبارِ المفكِّرين والفلاسفة، وهو يقضي أيامَهُ بالتطوافِ في محيطِ أثينا.

سألهُ أشنار عن اسمِهِ فكان "أوراكلس" (Oracles)، إغريقيٌّ لكن غريبٌ عن أثينا.

عرَّفَ أشنار عن نفسِهِ وسألهُ عن رأيِهِ في ما يخصُّ الحقيقة:

– وكيف يا "أوراكلس" تبحَثُ عن الحقيقةِ وقد عَجِزَ عن إدراكِها آلهةُ الإغريق بأجمَعِهم، ولا يُدرِك كلٌ مِنهم إلّا وَجهاً مِن وجوهِ الحقيقة؟

أجابَهُ "أوراكلس" بتواضع:

– إنَّ الحقيقةَ المُطلقة لا تكمن في الشمسِ ولا تكمن في مخيِّلَةِ آلهةِ الإغريق، إنَّما الحقيقةُ المُطلقة موجودةٌ في هيكلٍ مُخَصَّصٍ لها. وهذا الهيكل في حاضرةٍ يسودُها حافِظُ الحقيقةِ المُطلقة.

– أينَ توجَدُ هذه الحاضِرة؟ سألَ أشنار.

أجابَ "أوراكلس":

– الواقع أنني لم أستطِع أن أراها، بَل رأيتُ في بعضِ الليالي النورَ الذي يشعُّ مِنها وهو بلا رَيب وَهجُ الحقيقة. إنَّما هذه الحاضرة موجودةٌ شرق بابل، وهي عصيَّةُ المَنال، تحوطُ بها أسوارٌ

عاليةٌ جداً، وتحوطُ بالأسوارِ غابةٌ كثيفةٌ لا تستطيع حتّى الزواحِفُ دخولَ هذه الغابة لشدَّةِ كثافَتِها. وأعتقدُ أنه لا يستطيعُ بَشَرٌ الوصولَ إليها.

نمَّى حديثُ "أوراكلس" في أشنار الرغبةَ الكامِنة في إدراكِ الحقيقة المُطلقة إذ عَلِمَ أنها موجودةٌ في حاضرة. وأخذَ كلامُ "أوراكلس" يتفاعلُ حيّاً في ذهنِهِ ومخيِّلَتِهِ حتّى وافى موعِدُ التخرّجِ مُنهياً مرحلةً طويلةً من التطوافِ المَعرفيّ والتأمّليّ، ومُعلِناً في نفسِ أشنار بدءَ مرحلةٍ جديدة عنوانُها البحثُ عن حاضرةِ الحقيقة.

وهكذا وُلِدَتْ رغبةٌ جديدة تشدُّهُ إلى المُطلَق: إلى هناكَ إذاً، إلى شرق بابل، إلى حاضرةِ الحقيقة والمَنال الأسمى.

العودةُ إلى بيبلوس

حانَ وقتُ الإياب.

الطريقُ إلى بيبلوس مفعمةٌ بشوقِ اللقاء، يخفِّفُهُ فراقُ المعلّم ومعلَّمو الأكاديميا وتشدُّهُ إلى العودةِ الرغبةُ في البحثِ عن سرّ شروقِ الشمس من البحر في قبرص.

أبحرَت السفينةُ مِن بلادِ اليونان، وعلى متنِها أشنار متوَّجاً بما اكتَسَبَ من فلسفةٍ وعلوم، مكلَّلاً بغارِ البطولة، فائزاً بالسباقِ الخماسيّ على سائرِ العدّائين الأبطال الذين توافدوا مِن مختلفِ الأصقاعِ اليونانيَّة إلى الأولمب.

على الشاطئِ القبرصيّ، تعجَّلَ البحث عن موضعٍ يطوي ليلتَه فيه.

أسئلةٌ كثيرة تزاحَمَتْ في رأسِه، وأرَّقته طوال الليل. وقُبيلَ انبلاج الفجر تذكَّرَ حواراً في الأكاديميا بين هيبياس وأفلاطون، يبدأ بتأكيد هيبياس أنَّ العرف السَّلفيّ يمنع اللاقيدايمونيين (Lacédémoniens) [1] مِن تغيير قوانينِهم، أو تلقين أولادِهم تعليماً مختلفاً عن المألوف، فَوجَّهَ إليه سؤالاً:

– هل يعرفُ الحقيقةَ السَوادُ الأعظمُ مِن الرجال؟

– لا بالتأكيد.

الحوارُ هذا فاجأهُ فيه انفصام الحقيقة، وجعلَه يستنتجُ أنَّ الحقيقيَّ في مكانٍ هو غير ذلك في مكانٍ آخر، ولغير سببٍ مِن الأسباب. كما حَمَلَهُ على سحبِ هذا الاستنتاج على ظاهرةِ الشروق والغروب، فأخذ يتساءَل: كيف تُشرق الشمس مِن بيبلوس مِن خلفِ الجبال ثم تغيبُ في البحر، فيما تشرق مِن البحر في قبرص وتغيبُ فيه؟! ليخلص، من ثَمَّ، إلى أنَّ الحقيقة في بيبلوس ليست حقيقةً في قبرص.

هكذا كان يبدو له الأمر، وهكذا كان ولا يزال.

كانت رحى الثواني تدور ببطءٍ شديد، لكأنَّها تعمَّدت طحن ما بقي له من صبر. ومع إطلالة الصباح، نهض ليبدأ تجواله في أنحاءِ الجزيرة مترصّداً موقع الشروق. وكعادة المتعطّشين إلى المعرفة اصطحبَ معه دليلاً طافَ به الشواطئ كلّها، ووجدَ نفسَه بعد شهرٍ تقريباً في نقطةِ الانطلاق. اكتشفَ بذلك أنَّ قبرص جزيرةٌ يزنّرُها البحرُ مِن كلِّ الجهات، وأنَّه لا بدَّ للشمس بالتالي مِن أن تشرق مِنه... أو أن تبدو كذلك!

ولكنَّه لم يطمئنّ كثيراً لهذا الاكتشاف، فارتأى أن يرصدَ ظاهرة الشروق من موقع آخر. وقرَّرَ تسلّق أحد الجبال القبرصيَّة. ومِن القمَّة هناك، رأى بالعينِ المجرَّدة أنَّ مطلعَ الشمسِ في بيبلوس وفي قبرص على السواء هو غير ما كان يتصوَّر. أبصرَها طالعةً مِن مكانٍ أبعد بكثير مِن قِمم لبنان. فقالَ في نفسِه: الشمسُ تطلُّ مِن مكانٍ يُتَوهَّم أنَّه قريب، ولكنَّه في الواقع، بعيدٌ وبعيدٌ جداً، وقد يكون مِن الجهة الشرقيّة مِن بابل.

تأكَّدَ لأشنار، بما شهدَه بأمِّ العينِ مراقِباً مِن علُ، معطوفاً على ما قالَه له الفيلسوفُ اليونانيّ الغريب، أنَّ حاضرةَ الحقيقة تقعُ شرق بابل، وأنَّها هي ينبوعُ الشمس، ومصدرُ الضوءِ المعرفيّ الأزليّ الساطع. هَنِئَتْ نفسُه بهذا الاكتشاف العِلميّ الجديد، وراحَ يستعدُّ لمواصلةِ رحلة العودة.

ويبلغُ بيبلوس خبرُ إيابه. نقلَه بحَّارةٌ فينيقيّون كانوا قد رأوه برفقةِ الدليل يدورُ حولَ الجزيرة. فطفقوا ينتظرون على أحرَّ من الجمرِ إطلالتَه، ويستحثّون عجلةَ الزمن لتسرِّع دورتها مختصِرةً المسافة، ومُبطِلةً حساب المكيال فيها والمقياس.

وكم كانت مفاجأة أشنار عظيمةً عندما اقتربتْ سفينته من بيبلوس ورأى شاطئَها الرمليّ، وقد تحوَّلَ شاطئاً بشريّاً يرفدُه البرُّ بمدٍّ من الناس تتدفَّقُ أمواجُه مِن كلِّ حدبٍ وصوب.

كان الأميرُ طوال فترة غيابه عن مدينته حديثاً طيّباً على الشفاه. تعدَّدتْ حوله الروايات والحكايات وحُبِكت الأساطير، ونُسِبَتْ إليه أعمالٌ تدخلُ في بابِ الخوارق والمعجزات. كانت قد حُبِكت له سيرةٌ خياليَّةٌ نَسَجتها محبَّةُ الناس وثقتُهم به وبمواهبِه، وفرحُهم الغامر بإيابه.

ترجَّلَ مِن السفينةِ فتصاعَدتْ الهتافات بحياته، وانشطرَ مستقبلوه شطرَين ممهّدين له السبيل، فشقَّ طريقَه وسطهم، وأخذوا يتدافعون وراءه هازجين مزغردين.

بَدَت بيبلوس كأنَّها في عرس. ارتَدَت أزهى حلَلِها، وخرجت كلُّها لاستقبالِ عريسِها عائِداً مَن الغربةِ بعد غيابٍ طويل.

لقد أرادت باستقبالِه الحاشدِ والحارِّ أن تعبّرَ له عن إعجابِها ببطولتِه، واحترامِها لعِلمِه ومعرفتِه، وتقديرِها لدورِه في وصلِ ما انقطعَ بين الشعبَين الفينيقيّ واليونانيّ، وإعادةِ العلاقات إلى طبيعتِها بعد تأزّمٍ وجفاء.

وعلى وقعِ الاحتفالات الشعبيَّة في الخارج، بلغَ أشنار القصرَ الملكيّ حيث كانت العائلةُ المالكة، وإلى جانبِها كالوباي، في انتظاره.

وهناك كان اللقاءُ بالغ التأثير. عناقٌ طويل، دموعُ فرَح، دفقُ عطفٍ وحنان، أغانٍ وزغاريد، موجةٌ مِن الغبطةِ لعودةِ الابن والصديق.

طلَّتُه طردَت الهمَّ مِن عَيْنَيْ أمِّه، وأزاحت الغمَّ عن صدرِ أبيه، وزرعت الفرحَ في قلبِ صديقه.

كانت آثارُ التعبِ والأرَقِ والإرهاقِ قد أخذت تبدو ظاهرةً على وجهه، فأشارَتْ عليه أمُّه بالاستئذان للراحة، فاستأذنَ بلطف، وانسحبَ بلباقة، والمدينةُ التي كانت تشربُ نخبَ المناسبة، وتحتفلُ بها، لم ترتح من حدائِها وغنائِها إلّا عندما بلغَها خبرُ إخلاده إلى النوم.

نامت العائلةُ المالكة بعد يومٍ طويلٍ صاخب، ولم تستيقظ إلّا بُعَيدَ ظهر اليوم التالي. وفي المساء بَدَت كأنَّها على موعد، فقد التقَت عفواً مع أشنار في حوارٍ حميم.

أمُّه أحبَّت أن تستنطقَ قلبَه، وأبوه أن يستكشفَ عقلَه، أمّا هو فوجدَ في حضورِ أهله الدافئ ما شجَّعه على الكلام، فاستفاضَ في الحديثِ عن حواراته مع الفلاسفة، وما اكتسبَ مِنها مِن معارف أسهَمَت إسهاماً كبيراً في تشكّل وعيه، وإنضاج عقله، وإغناء فكره الفلسفيّ، كما تطرَّق إلى ما نسجَهُ مِن أوهامٍ حول مطلع الشمس، وإلى تبدُّدِ هذه الأوهام باكتشافِ مطلعها الحقيقيّ...

وكادَ يسترسلُ في الكلام لولا مقاطعة أمّه له. قالت:

– والآن يا بنيّ، بعد رحلة المعرفة، ما رأيك في رحلةِ العاطفة وغناء القلب؟ بناتُ أفقا في انتظارك. ستجد في أفقا متعة قلبك، كما وجدتَ في غيرِها متعة عقلك. عطشُ العقل إلى المعرفة، يا أشنار، يجب أن يتوازنَ مع عطشِ القلب إلى العاطفة.

واستطردَتْ قائلة:

– كيف وجدتَ صبايا أثينا؟ مَن يشبهن؟ بناتنا الجميلات أمْ حرائر أفقا الفاتنات؟

فابتسمَ أشنار، وردَّ بلطفٍ ووداعة:

– يومَ ركبتُ البحر، تركتُ قلبي ورائي، نسيتُه في بيبلوس. عقلي وحده كان محورَ الاهتمام...

لم تستسغ والدتُه الجواب، فعدَّلتْ قعدتها، والدمُ يحتقنُ في وَجنتَيها، وقالت له:

– الإنسانُ ليسَ عقلاً وحَسب، ولا قلباً وحَسب، الإنسانُ يا بنيّ عقلٌ وقلبٌ على السواء.

– وإرادةٌ أيضاً، قالَ الملكُ بحماسةٍ أظهرَته وكأنَّه كان يتحيَّن الفرصةَ لانتزاع الكلام، وتابع:

الإرادةُ هي التي تبرهن على مدى الصلابة والثبات في القناعة، والمصلحة في مباشرة العمل.

النظرُ في المسائل الفلسفيَّة، والبحث عن الحقيقة المُطلقة محفوفان بالخطر لأنَّ المَسار طويل، وهو بحاجةٍ إلى قلبٍ يتحسَّسُ العالم، وإرادةٍ تقرّر الاستفادة من المعرفة...

وصمَتَ الملكُ بُرهة، ثمَّ أسندَ رأسَه إلى يدِهِ المعروقة، وقال بهدوء:

– إنَّ البحثَ عن الحقيقةِ أمرٌ يساورُ ذوي النفوس الكبيرة. ولكنَّه يوحي بكبرياء مفرط، وقد يصبح غير مُجدٍ عندما يغدو كأنَّه حلم، أو عندما يكون استجابةً لرغبةٍ إنسانيَّة.

كان وهو يتكلَّم، يرصدُ ردَّةَ فعلِ أشنار، ولمّا لاحظَ أنَّه ليس لكلامِه الوقع الذي كان يتوقَّعه، ركَّزَ نظرَه على عينيه، وخاطَبَه قائلاً:

– أتعتقد، يا بنيّ، أنك سبطٌ مِن أسباطِ الآلهة؟ ألم تعرف ماذا حلَّ بإيكاريوس الإغريقي؟

– بلى أعرفُ أنَّ نِهايتَهُ كانت مأساوية، اعتَقَدَ أنَّ الحقيقةَ في الشمس. ثمَّ مَن قالَ إنَّ الحقيقةَ في الشمس؟

– الواقعُ يا بنيّ، هو حقيقتُنا. فلنفتّش عنها هنا.

المستحيلُ فنٌّ سهل، والممكنُ فنٌّ صعبٌ يبدو على أصحاب المخيّلة مستحيلاً. والحكمُ يا أشنار فكرةٌ تخدمُ مصلحةً أحياناً، وأحياناً أخرى مصلحةٌ تخدم فكرة. هذه عصارة خبرتي الطويلة. أنا إيكاريوس، ولكن بطريقة مختلفة. لي جناحان أحلّقُ بهما في الواقع: جناحُ العقل وجناح المصلحة. وإذا أسأتُ التقديرَ أقعُ في الخطأ الجسيمِ الذي يرتدُّ سلباً على أهلِ المملكة.

كان بودِّ أشنار أن يناقشَ أباهُ في آرائِه وأفكارِه ومواقفِه، ويواجهَهُ بسيلٍ من الأدلَّةِ والبراهين العقليَّة. كان بودِّه أن يثيرَ مسألةَ الشوقِ إلى المعرفة، وارتباط الإنسانِ بأهدافِه البعيدة، ولا بحاجاتِه الآنيَّةِ فقط، غير أنَّه أحجمَ عن ذلك كلِّه، مؤثراً الاعتصام بالصمت، ليتركَ لأبيه المجالَ رحباً للتمتُّعِ بلذَّةِ النُّصحِ والإرشاد.

وهكذا تابعَ الملك، فقال:

– المهمُّ يا بنيّ، أن لا تؤخَذَ بسرابِ الأمور، لأنَّ الإنسانَ كثيراً ما يجد نفسه مشدوداً نحو ما هو فوق الطبيعة. الإنسانُ غالباً ما ينجذب إلى أمورٍ كلّما حاولَ الاقترابَ مِنها فرَّت هي مِنه إلى أماكن قصيَّة، فرارَ ذواتِ الجناح.

في هذه الأثناء، تناهَتْ إلى الأسماعِ أصداءُ جَلبةٍ تحدثُ في القصر، فوقَفَ الملك قائلاً:

– لقد حانَ موعدُ العشاء...

كان قد دعا بعضَ خاصَّتِه ليشاركوا القصرَ فرحتَه العامرةَ بخمرةِ اللقاء.

ويستغلُّ أشنار انشغالَ ذويهِ بضيوفِهم ليطوفَ مع صديقِه كالوباي في أرجاءِ المدينة، ويُعِدّا معاً العدَّةَ لرحلةِ الغَدِ إلى أفقا نزولاً عند رغبةٍ أبدَتْها أمُّه، ولم تلقَ اعتراضاً مِن أبيه.

وفي الصباح، تزامَنَ وصولُ كالوباي إلى القصرِ مع وصولِ ممثّل الفراعنة، فهبَّ الملكُ والملكةُ مستقبلين، وأشنار وصديقه مودِّعين، فارتسمَ بذلك مشهدٌ اختلطَ فيه كلامُ التَّرحيب، بكلامِ الوداع...

[1]هم سكان ومواطنو اسبرطة المعروفون بنمطِ عيشٍ قائمٍ على الزهدِ والتقشّفِ والتدبير، وعلى الاختصارِ والاقتضابِ في كلِّ شيء حتى في الكلام، وعلى عدم الانفتاح والتغيير.

معبدُ أدونيس

بعدَ عودةِ أشنار بيَومَين قالت الملكةُ متوجِّهةً إلى كالوباي:

– ليذهبْ أشنار إلى معبدِ أدونيس بالقربِ مِن أفقا. هناك قد يتعرَّف إلى قلبِه. هناك تُدرِّبُه حِسانُ المعبدِ على ممارسةِ الحبِّ. يتعلَّقْنَ به، يُغوينَه، وقد يجدُ نفسَه منجذِباً إلى إحداهنَّ فيتعلَّقُ بها، ويحبُّها، إنْ خدَمَنا القدر، فيخرجُ مِن شَبَقِهِ العقلي، ويتحرَّرُ مِن سَعيهِ العبثيّ اللاهثِ وراءَ الحقيقة المُطلقة، وهي مستحيلة المَنال.

ولقد طلبتُ مِن كاهنةِ هيكلِ أدونيس أن تجهدَ لإيقاعِ أشنار في حبِّ إحداهنّ.

– هل السعادة في هذا المعبد؟ سألَ كالوباي.

– هذا المعبدُ قريبٌ مِن السماء، بعيدٌ عن الأديم. معلَّقٌ بين حورياتٍ يصْنَعْنَ المتعةَ، وصبايا نذَرنَ أجسادَهُنَّ لإشباعِ نَهَمِ الرجال، عِبادةً لأدونيس.

هناك في أعالي الجِبال، في مطرحٍ وحدها الغيوم تبلغُ مداه، ووحدَهم المتفوّقون يؤمّونَه. معبدُ أدونيس مِن الخَيال كأنَّه... إلّا أنَّه حقيقيّ في الوجود.

تكلَّمَ كالوباي مع أشنار عن معبدِ أدونيس وعَلِمَ أشنار أنها رغبةُ أمِّه، وإرادةُ أبيه.

وفيما كان أشنار يشدُّ الرِحالَ نحو أفقا، وبينما كان الخبرُ ينتقلُ مِن فَمٍ إلى أذنٍ ومن أذنٍ إلى فَم، بسرعةٍ تفوقُ اشتعال النار في الهشيم، كان المعبدُ وكلُّ مَن فيه يستعدُّ لاستقبالِ وليّ العهد يصحبُهُ صديقه كالوباي. أخذَ أشنار يفكِّرُ في نفسِه:

– أنفِّذُ رغبة أمِّي لكن لن تغويني حِسانُ أفقا، ولن تقفَ إحداهنَّ حاجزاً في طريقي لمغامرةِ الحقيقة ومتابعةِ البحث عن الحاضرةِ السِحرية.

بعد هنيهة، توجَّهَ أشنار إلى كالوباي وقال:

– حدّثني يا كالوباي! أرى قلبَك مرتسماً على وجهك، هل أنتَ سعيدٌ بالذهابِ إلى أفقا؟

– هل بدأنا الأسئلةَ يا أميري؟ طبعاً أنا سعيد! ولكن السعادة ليست في الكلام عنها، بل في التمتّع بها. السعادةُ لا تُقال، السعادةُ تُعاش.

– ولكنَّ السعادةَ الجسديَّة غيرُ السعادةِ الروحيَّة. الأولى مؤقَّتة وفانية، والثانية تنسابُ إليكَ مِن الوِصال بين العقل والروح، فإلى الحقيقة المُطلقة.

– أنا أفضِّلُ حواسي الخَمس وجموحَ المخيِّلةِ على سعي العقل وراءَ وَهمِ الحقيقة المُطلقة. الحقيقةُ، يا عزيزي، يُمكنُكَ أن تكتشفَها مِن خِلال الحبّ، ومِن الغَوص في التلذّذ بالعاطفة وبالجَسد.

تعجَّبَ أشنار من إصرارِ كالوباي فسألَه:

– قُلْ لي، يا كالوباي، كيفَ تراني اليوم؟ وكيفَ تنظر إليّ؟ هل أشبهُ أشنار الذي تسلّل، في الغَسَق، منذ أكثر من سنتَين مِن بيبلوس إلى قبرص ومِن ثَمَّ إلى اليونان؟

– الإنسانُ، يا أميري، لا يكون واحداً في كلِّ الحالات.

حقيقتُك يومَذاك هي غير حقيقتك اليوم. سِماتُ الإنسان متعدِّدَةٌ بتعدُّدِ أفكاره، وحقائقه، وأحاسيسه، ووقائعه، وأحداثه، وعمره، وزمنه، فأنتَ اليوم إذاً وبالتأكيد أشنار آخر. وعلى الرغم مِن كلِّ ذلك، تبقى أنتَ نفسك في كلِّ الحالات.

– ستصبح فيلسوفاً يا كالوباي! ذكَّرتَني بـ"غورجياس" السفسطائي، ومعكَ ستصبح الحقائقُ نسبيَّةً وتُعَبِّرُ عنها بصورةٍ لا يُتقِنها إلّا علماء البيان.

– بلى هي كذلك، أجابَه كالوباي جازماً. أنتَ الآن لستَ ما كنتَهُ بالأمس، وغداً قد تتعرَّف إلى نفسِك بطريقةٍ أخرى إذا احتضَنَتْكَ إحدى صبايا أفقا، وقد تمنحُهنَّ من جسَدِك ماءَ الحياة وخلودَ اللحظة، وذروةَ البلوغ، وتصبح أحداً آخرَ بعدَ ذلك.

طالَ الحديثُ بينهما فقرَّبَ المسافةَ واختصرَ الطريق.

بدَتْ أفقا كأنَّها على مرمى حجرٍ من بيبلوس، إذ لم يلبثا أنْ وصَلاها، ووجدا نفسَيهما فجأةً أمامَ مشهدٍ مثير.

العرائسُ ينتظرنَ الأمير أشنار، واعتَبَرْنَ أنَّ صورةَ الإله أدونيس تتجسَّد بجَمالِهِ. كنَّ ينتظرنَهُ بفارغِ الصبر. رحْنَ يتطلَّعنَ إليه، وفي نظراتهنَّ رغباتٌ تشبهُ العبادة. تأمَّلنَ مِشيَتَه، جسَدَه، طلَّتَه، هالةَ رأسِه، وحدقَةَ عينَيه، وكنَّ كلّهنَّ يُمنِّيْنَ النفسَ باستمالتِه وإغوائِه.

عرائسُ أفقا هؤلاء لسْنَ بنات هوى. إنهنَّ الهوى في ذاتِه يخدِمنَهُ وكأنهنَّ مِن سلالتِه. يقمنَ بأقدَسِ ما يعطيه الجَسد. يبتهلنَ في الليالي كي يتصاعدَ بخورُ اللذَّةِ مِن وِصالٍ لا يهدأ ولا يستكين فيُرضي الإله أدونيس.

عرائسُ أفقا تلك هنَّ بناتُ نبلائِها اللواتي نذَرْنَ أنفسهنَّ وجمالهنَّ لعرسٍ مؤقَّتٍ هو بحدِّ ذاتِهِ عبادةٌ لأدونيس.

على الرغمِ مِن مَظهَرِه، تملَّكَت أشنار حيرةٌ شديدةٌ بسحرِهِنَّ: كنَّ أمامَه شبه عاريات. ملاءاتٌ رقيقةٌ شفّافةٌ كأنَّها الظلال تغطّي قاماتهنَّ الفارعةَ الفائقةَ الجمال. تبرزُ من خلالِها النهودُ المتمرِّدة، وتَظهر الحلماتُ كأنَّها القُبَلُ مطبوعةً فوق البياض الثلجي.

خصورٌ مشدودة إلى سُرَرٍ كأنَّها أيقوناتُ الينابيع. وأوراكٌ ناهضةٌ لا تستريحُ إلّا عندما تصل إلى منابع الشهوة، وأفخاذٌ وارفاتٌ كأنَّها الطريق إلى الوجود... إلى كلِّ متعة... كلّ الليل.

أجالَ نظرَهُ في ملائكة الأجساد، وكمَّ عقلَهُ وتركَ لقلبِه أن يختار، فنظرَ إلى الأجمَل من بينهنَّ. تبحَّرَ فيها بكلِّ تفاصيلها، وسمَّاها في سرِّه إلَهاً. خرَّ عقلُه صريعاً أمامها. أفاقَتْ حواسُّه مِن سُباتِها. أرادَ أن يُثبتَ بالعَينَين ما رآهُ بالقلب، أرادَ أن يسمعَ صوتَها بأذنَيه، وفجأةً اشتهى أن يتذوَّقَ طعمَ رضابِها بلسانِه، أن يدسَّ مسامَّه في مساحةِ جسدها الغَضّ. أرادَ أن يأخذَها إليه بضمَّةٍ واحدة. ولاحَظتْ هي بِدورِها انعطافَه نحوها، فراحَتْ تذوبُ أمامَه مبديةً تعطّشها لملامسةٍ وتحرُّقها لعناق. هَيبَتُه ووسامَتُه مَنَحتاها نعمةَ الدَلال، ولمّا مدَّ يدَه ليصطحبَها تمايَلَت وتثنَّتْ، وبدأت خميرة الصبا تفورُ في جسدها، وتتقطّرُ منه حبّاً وشهوة.

– ما اسمُكِ؟ سألَها.

– اسمي مَيْسا، أجابَته، لكنّ اسمي ليس هو حقيقتي. حقيقتي ستكتشفها كلَّ يومٍ إن بحثتَ وعندئذٍ لكَ أن تسمّيني ما شئت.

كانتْ يدهُ لا تزالُ ممسكةً يدها، وقد تكونُ اليَدُ مَدخَل الإنسان إلى الإنسان. فلا أدفأ ولا أحسنَ مِن جِوارِ اليدَين.

كِلاهُما أخذَ يتخَيَّلُ أنه يلامسُ الآخر، ويضمُّه، فيقتربُ أحدُهما مِن قلبِ الآخر. وبعدَ هنيهة، دنا مِنها ليهمِسَ في أذنِها بعضَ الغزل وكانت أنفاسها كلهاثِ صباحِ الأرض الحارّة على خدِّه، وكان، وهو يتغزَّلُ بعينَيها، يتنشَّقُ رائحةَ وجهها، ويتأمَّلُ بتماوجِ شَعرِها.

سألَتْه:

– لماذا عينايَ، فقط عينايَ تستهويانِك؟

فقال:

– العينان، يا مَيْسا، هما المَدخلُ إلى القلب. مِن العينَين يُطلُّ أحدُنا على الآخر.

كانت أشعّة الانعطاف باديةً في عينَيها، وهما يتبادلان النظرات، قال لها متمنّياً:

– لو أستطيع أن أراكِ مرّةً أخرى بعد!

وكأنَّ مَيْسا كانت تترقَّبُ الأمرَ فقالت مِن غير تردّد:

– مرّةً، أم مرّاتٍ؟ بل كما شئتَ يا أميري بكل طيبةِ خاطر.

فتوافقا على اللقاء.

كانت مَيْسا تشعرُ لأولِ مرّةٍ باندفاعِها نحو رجلٍ وهي التي ما زالت تتمرَّدُ على إرادةِ الكاهنةِ الكبرى في معبدِ أدونيس، فرفضتْ أن تفعلَ ما كانت تتطلَّبُه طقوسُ معبد أدونيس وما تفعلهُ غيرها مِن الفتيات، مقدِّمةً حرّيتها الذاتية وعاطفتها على اتّباع طقوس المعبد، ناذرةً نفسها وجسدها للشخصِ المناسب الذي تصطفيه هي بملءِ إرادتها، وبمَعزَلٍ عن أيّ اعتبارٍ آخر، حتى لو إكراماً للإله أدونيس.

كانت تتصرَّفُ وفقَ شعورِها وإحساسِها بالأمورِ ولها رأيُها الخاص في مسارِ المرأة والحياة.

وأخذَ أشنار يحلمُ مفكِّراً حتى يوافي الموعد، فيَجِد مَيْسا بانتظارِهِ لتُنسيَه ذاته، وتُحوّلَهُ طفلاً بين ذراعَيها، بينما تُحَوّلُ ذاتَها إلى شجرةٍ وافرةِ التفاح، وتنظرُ إلى أشنار كعريسٍ يصلّي لها ويدخلُ روحَها لتمنحهُ الحبَّ والجَسَد.

عندَ اللقاء، اقتربَ مِنها أشنار وجذبَها إليه وأطبقَ على شفتَيها شفتَيه. فارتعشَتْ حسناواتُ أفقا عندئذٍ، وأدْركنَ أنَّ العذراءَ الوحيدة بينهنَّ قد بلغَت ذروة الحبِّ وسنَّ الرُشد.

كان لِقاؤهما يتكرَّرُ يوماً بعدَ يوم، وعاطفةُ أشنار تزدادُ وتكادُ تُنسيهِ هدفَهُ الأسمى.

وفي أثناءِ النهارات القصيرة، كان أشنار يرافقُ مَيْسا ويتجنَّبُ التقاء كالوباي. آثَرَ الإقامة الدائمة في أحضانِ حبيبتِه يرشفُ مِنها رحيقاً لم يتذوَّق كطعمهِ مِن قَبل. وشعورُه، وهو في أوج ارتوائِه، بأنه لا يزال بحاجةٍ إلى المَزيد فالمَزيد، جعلَهُ يكتشفُ أنَّ تغيُّراً طرأ عليه:

الحقيقةُ كما القلب كِلاهما لا نهاية له. نحن نطلبُ دوماً المزيد. فلا حقيقة تمنعنا من تجاوزِها، ولا عاطفة تحولُ دوننا ودون طلبِها هي نفسها مِراراً وتكراراً.

لازمَ أشنار مَيْسَا. لم يبرحْها. وكانت له مِن شفتَيها الملتهبتَين، ومِن جسدِها النضر مائدةٌ شهيَّةٌ لإطفاءِ شهوتِه الجمراء، وإخمادِ رغبات جسَدِه.

وذات صباح، فيما كان يتنزَّهُ في الأودية والبطاح، يتمتَّعُ بالأرضِ تنكشفُ عن صخرٍ تغلغلت في حناياه ألوانُ الشقائق والوزّال، بالأنوار والظلال العجيبة على جبين الجبل، بالسماء القريبة على بُعد، بالوشوشاتِ والهمساتِ بين الهواءِ وأوراقِ الشجر، وبعرائس أفقا المنتشراتِ كملائكةٍ من رخامٍ أخفَّ مِن النسيم، فيما كان يتمتَّع بكلِّ ذلك، غلَبَت عليه العواطف والانفعالات، وانتابَه إحساسٌ داخليّ غامضٌ دفَعَه إلى التعبير عن تجربتِه الجديدة بكلامٍ مختلف، فراحَ يُنشدُ بصوتٍ خافت:

أسمِّيكِ حبيبتي
أسمِّيكِ أنا عندما أذوبُ
وأصبحُ "أنتِ" عندما تذوبين
أيُّهما جَسَدُكِ
أيُّهما جَسَدي
عندما نقطفُ المتعةَ معاً

في فراشٍ من الغيوم
ترشّفيني ترشّفاً
ضمّيني إليكِ
أشرعي لي نافذةَ صدركِ
كلَّما انسكبْتِ فيَّ
أطلبُ زيادةً في حبّي
وكلَّما امتلأتْ كأسي
أتمنَّى لوَ تتَّسع أكثر
لتستوعبَ المزيد.

تَعَجَّبَ أشنار مِن انجرافِهِ العاطفيِّ وتَخَيَّلَ كيفَ قد تكون حاضرةُ الحقيقة وهي تبدو هدفهُ الأسمى، وأدركَ أنَّ صِراعاً بدأ يقومُ في ذاتِهِ بين عاطفتِهِ وبحثِهِ عن المُطلَق في حاضرةِ الحقيقة.

قَفَلَ أشنار راجعاً إلى حبيبتِه مَيْسَا. كانت قد استيقظت بُعَيدَ خروجه، ولمّا لم تجده قربها، لبثت تنتظره وحيدةً إلّا من القلق عليه. انفرَجَت أساريرها عندما رأتْهُ يُقبِلُ نحوها ويطبعُ قبلةً حارةً على شفتَيها. وراحت تداعِبُ شعرَه المنسرِح، وهي منحنيةٌ عليه، وقالت:

– أعرفُ أنَّك أمير، أعرفُ أنك الأجملُ بين الشباب. انتظرتُك من زمنٍ طويل، ولمّا عرفَ الجميعُ بقدومِك، نذَرتُ نفسي لأكونَ لك عروساً ما تشاء.

اقرأني يا أشنار بلهاثِك، يا مَن تُعرّي امرأةً تكتُبُك ببركانِ توهُّجِها وجَمْرِ أنوثتها.

صِرْ يا أشنار أنتَ الذي عَرَفتَ الآنَ نكهة الأنثى واكتشفتَ أمسيات أقحوانها البِكر، إنَّ كلّي نهَمٌ وانتظاري صَبرٌ نَفَد.

يا أميري، سليلَ الأمجادِ الساحقة، أَومِئْ إلى توقي. لوِّح لي بصولجان النَصر. اسحَبْ حسامَ آهاتِك من غمدِ الرغبة، وأشْعِلني جذوة نار. اكتبني بحطام أحلامِك وبدَفقِ دمِكَ الغائر في الشرايين.

أيُّ أريجٍ يعبقُ في نفسي، حين تحنُّ على شفَتَيَّ بقبلة، حين تَتَحرَّشُ قبلاتُكَ بِفَمي العذري!

دَعْ أناملَكَ تزاولْ شرَفَ العِشق ودِفءَ الحنان بِلا حدود.

لا تَخَف، يا أشنار، مِن أن أُطفئَ نارَك.

– أنا الآن أسيرُكِ يا مَيْسَا، قالَ أشنار، ولكن لا أدري متى أستطيعُ أن أتَغلَّبَ على عاطفتي ومتى تعاودُني الرغبةُ في التحرّر من قيدكِ الرائع. أنا مثلُكِ أيضاً، كِلانا مَنذوران، أنتِ للحبِّ والعاطفة، وأنا لِمعرفةِ المُطلَق.

يجب أن ألتقي بوَهجِ الحقيقة المُطلقة ليرقى قلبي إلى مستوى حبّكِ فيجعلني جديراً بكلِّ ما تُحيطينَ بي.

وأخبَرَها أشنار عن تجاربِه ومعلوماتِه.

فردَّتْ عليه مَيْسا بانفعالٍ عميق:

– مِن العَبَثِ أن تبحثَ عن الحقيقة المُطلقة بمَعزِلٍ عن حبِّكَ إذا كان حقيقياً، لأنَّ الحقيقة والحبّ مترابطان متكاملان. الحقيقةُ تغتذي مِن القلب، ويُعبَّرُ عنها بلغةِ القلب. وحدَهُ الحبّ يا أشنار، يدفعُكَ ويُقرِّبُكَ مِن الحقيقة المُطلقة.

وأردَفَت، وهي تتأمَّلُه:

– عندما تزدادُ توغّلاً في معرفة الحقيقة المُطلقة وعلاقتها بالإنسان، تزدادُ إدراكاً لأهمية الحب.

الإنسانُ كلٌّ لا يتجزَّأ. لا يمكن أن تستثني مِنه، لا مِن الجَسَد ولا مِن النفس. القلبُ هو جوهرُه. فإنْ وضعَ الإنسانُ جوهرَهُ في كاملِ وجودِهِ يصبحُ الإنسانُ الحقيقي متَّحِداً بالمُطلق.

ثم مالتْ بنظرِها عنه، وهي تقول:

– مُخطِئٌ كلُّ مَن يظنُّ أنَّ بإمكانِهِ إدراك الحقيقة المُطلقة وهو متجرِّدٌ مِن شعورِهِ الإنساني. الانغماسُ في الحبّ دافِعٌ لتسلّقِ المراقي ومعانقةِ الحقيقة.

أطرَقَ أشنار مفكِّراً وفيه يتصارعُ شغفُه بالمُطلق وحبُّه لمَيْسا، قال:

– أنتِ تحاولين الاستئثار بي، وَتَثْنِيي عمّا عقَدتُ العَزمَ عليه.

فأجابَتهُ بغنجٍ وتدلل:

– لا، يا حبيبي! أنا أحاولُ عبْرَ حبِّكَ لي، أن أدفَعَكَ لأقرِّبَكَ مِن هَدَفِك. صدّقني، لا يمكن للحقيقة إلّا أن تترسَّخَ بالجسَد، وترفعَه إليها مضمِّخةً إيّاه بعطرِ السموِّ الإنساني. ثمَّ مَن قالَ لكَ إنّني لستُ مَعنيّةً بهَدَفِك؟

الحقيقةُ تَشغلُني كما تَشغَلُكَ وربما أكثر، بعد ما رويتَ لي. ولأنني توّاقةٌ إليها، لذلك أصرُّ عليكَ ألّا تُفارقني. الحقيقةُ موجودة، إلّا أنَّ غشاءً فينا يمنعنا مِن إدراكِها. ولا يَرفع الغشاءَ إلّا المحبَّةُ والحبّ. وعندما يذهب الغشاء نتمكَّن مِن إدراكِ الحقيقة.

حبُّنا المتبادَل هو جسرُ عبورِنا كِلَينا إلى الحقيقة المُطلقة، ولا سبيل آخر سِواه.

وانتهَتْ إلى مخاطبتِهِ بصيغةِ الأمر قائلةً:

– أقلِعْ عن البحثِ عنها في مكانٍ آخر.

– السعادةُ التي أنشدُها، قالَ أشنار، كيف لي أن أحظى بها وأن يدومَ حبُّكِ لي، إذا أقلَعتُ عن سَعيي إلى الحقيقة؟

فهَزَّت برأسِها، وأجابَت:

– واهِمٌ أنت، يا أشنار. أنا فقط أُتَمِّمُكَ لينالَ كِلانا السعادة الحقيقيّة.

الحقيقةُ، إنْ لم تتَجسَّد، تفقِدْ كلَّ قيمتِها. أيُّ نَفعٍ تُجديه الحقيقة إنْ بَقِيَت نوراً ساطعاً هائِماً في الفضاء بعيداً عن الإنسان؟

السعادةُ يا أشنار، هي طعمُ الحياة بالمعنى الشامل لهذه الكلمة، وهي لا تتأتّى إلّا لِمَن يعرفُ نفسَهُ معرفةً تامَّة ويُرضي إنسانيّته، جوهراً ووُجوداً.

– السعادة، قالَ أشنار مُعَلِّقاً، قيمة. ومفهومُ القيمة هو أصلاً نابعٌ مِنَ الذات، ومتأثِّرٌ بها. إنَّه بالتالي متنوِّعٌ بتنوّعِ الأشخاص والمواقف، ومُرتبطٌ بتحققِ الأمنيات، وإرضاء السامية منها. فالشيءُ تُقاسُ قيمته بمقياسِ الرغبة فيه، والحاجة إليه. وأنا راغبٌ في الظفرِ بالحقيقة المُطلقة.

وَوَجَّهَ الكلامَ إلى مَيْسا، قال:

– ألا تُدركين أنَّ حبّي للكِ لن يكونَ على مرتبةِ عاطفتكِ لي ولن يسموَ إن لم يُدرِكْ الهدف المَنشود؟

أجابَته مَيْسا بعدَ أن أطلَقَت مِن صدرِها آهات ممزوجة بالألم:

– أنتَ تتصوَّر السعادةَ في طلبِ المعرفة. هل تعتقدُ أنَّ السعادةَ تكمنُ في المعرفةِ فقط ويمكنُها أن تكتملَ مِن غيرِ أن تتجَسَّدَ بالوجود؟ الحبُّ والصداقةُ أرقى أسرار الإنسانية، يمنحانِكَ السعادة، ويُمدّانِكَ بالشجاعة والإنسانية.

– أنتِ تنزلقينَ بي إلى هاويةِ لذّة الحواس، قالَ أشنار، أليسَ هناك وجهٌ آخر مُكمِّلٌ للسعادة والحبّ؟

كادَ أشنار أن يسترسلَ أكثر لولا مقاطعتها له بالقول:

– لا تَضِعْ يا أشنار في مثاليّةٍ مجرَّدة. ما يُميِّزُني عنكَ هو أنّني أتوقُ إلى الحقيقة التي تتوقُ إليها أنتَ، ولكن بشعورِ الوجود على قَدْرِ شعورِ الجوهر.

وسكتَ أشنار قليلاً، ثمَّ تعمَّدَ إنهاء الحِوار فجعَلَ يحدِّثُها عن معاناتِه في بيبلوس، وعن الشمسِ في قبرص، وعن الفلاسفةِ في أثينا، وعن وصفِ "أوراكلس" لحاضرةِ الحقيقة. كما أعرَبَ لها عن عزمِه على اكتشاف هذه الحقيقة. وبعدَ تنهيدةٍ عميقة، قال:

– لا أدري متى أستطيعُ تقوية إرادَتي للرحيل عن أفقا ومتابعة المغامرة للبحثِ عن حاضرةِ الحقيقة.

– الرَحيل؟! صرختْ مَيْسَا منفعلة، والدموعُ بدأتْ تسيلُ من عينَيها: ولكنّني أحببتُك مِن كلِّ جوارحي، ونذرتُ نفسي لك.

لا! لا! لن أدعَك ترحل عنّي! سنبقى معاً لننعمَ بالحبِّ المتبادل كما لم ينعم بمثلِه أيُّ عاشقَين في التاريخ.

كلٌّ مِنّا يا أشنار، قَبسٌ مِن الحقيقة، فلماذا لا نوجِّهُ حقيقتَنا نحو الحياة العَمَلية؟ نحو الأرض، نحو معاناة الناس؟

الحقيقةُ ليسَتْ مستقلّة عن الفِكر الذي يبحث عن إدراكِها.

الحقيقةُ تمدُّ جذورها في صلبِ الحياة. تتغذّى مِنَ التجارب لتُنمّي فروعها الوارِفة، وتظلّلَ الناسَ بِفَيئِها الرضيّ.

الحقيقةُ تَنبَعُ مِن الذات، ترقدُ في أعماقِنا، ولا تنفَصِلُ عنّا، وهي تتفجَّرُ عندما يطنُّ في ضميرِ الإنسان أنينُ المُعذَّبين في الأرضِ فيُحسِن إلى المُعوَزين ويُساعِد المساكين، ويَرفَع الحيفَ عن الضعفاء والمظلومين، ويُسهِم بتبديدِ القَلَق والبؤس والجوع واليأس.

وشَعَرَتْ هنا بأنَّه يتأهَّبُ للردَّ عليها، فاسترسَلَت قائلة:

– إنَّ تخفيفَ آلامِ الناسِ أرقى فنون السعادة الإنسانية. لماذا، يا أشنار لا ينظر أحدُنا إلى الآخر بنظرةِ العاطفة والمحبَّة؟ لماذا لا تُقبِلُ على ما يجعلُ الإنسانَ إنساناً في كلِّ أبعادِه وطاقاتِه؟ في جوهَرِهِ وفي وجودِهِ معاً.

الإنسانُ والحقيقةُ المُطلقة متلازِمان، إنَّهما مقياسان متكامِلان متفاعِلان للوصولِ إلى الحقيقة الكاملة.

علينا، يا أشنار، أن نرفضَ كلَّ ما يُشوِّه وجه الحقيقة الصحيح، أو ما يُنقِص إنسانيّة الإنسان.

صدِّقني، صدِّقني، الحقيقةُ حالةٌ في أجسادِنا، تنزلُ إلينا، تَتَشبَّهُ بِنا.

وما قيمةُ الحقيقة إن لم تَتَّخِذْ إحداثيّات الزمان والمكان، وتسكنْ في الأسماء والمجتمع والتاريخ؟

بقبلةٍ على شفتيها منَعَها أشنار مِن إكمالِ كلامها، ونهضَ لينزويَ في أحدِ الأركان مُستَسلماً لحلمٍ لازَمَه مِن زمان.

عادَ إلى دوَّامته، هو الذي ارتضى أن يظلَّ لقمةً سائغةً في فمِ العذاب.

كان القَدَرُ بسَطوَتِهِ القاهرة وحُكمِهِ الصارم يُنهِكُ مَيْسا، ويسحَقُها سحقاً، وأشنار كان يتحرَّقُ عاطفياً، ولكنَّه كان يَصُمُّ أذنَيهِ عن نداء الحبّ؛ كان كِبرياؤهُ أعنَف مِن عاطفتِه.

وكرَّتْ سُبحة الأيّام، فكان يوماً بعد يومٍ يزدادُ غرقاً في تأمُّلاته ولَهَباً في عاطفتِه.

لم تكن مَيْسَا تملكُ غيرَ الدموعِ والانتظار.

كان يخرجُ من مخدعِها ولا يعودُ إلّا في الهزيع الأخير من الليل، وكانت هي تغالبُ النعاس في كلِّ ليلة، ممنّيةً النَفس به، ولكنَّ النعاسَ كان يغلبُها دائماً فتنام.

كان بابتعادِهِ المتكرِّر والمقصود عنها كأنَّه يحاولُ أن يقولَ لها: "ليس هذا ما يعنيني. هناك أهمُّ منكِ يا مَيْسَا، أهمُّ منكِ بكثير".

ولمّا شَعرَتْ هي بالعَجزِ عن الاستئثار به، وأيقَنَتْ أنَّ كلامَها لن يُثنيَه عن هدفِه، سقطتْ على ذراعِه تجهشُ ببكاءٍ مريرٍ هو نجيعُ نفسها المقرَّحة النازفة.

كانت تردِّدُ في ساعاتِ وحدتها:

حبيبي سيرحل عنّي
من ذا يردُّ إليَّ سعادتي؟
أيُّ صحراء ستلبسُ جسدي؟
أيُّ رمالٍ ستغمرني بيباسِها؟
أيُّ تفاحٍ سييبسُ على شفتَيّ؟
ردّوا إليّ حبيبي
ردّوا إليّ سعادتي
سأنتظرُهُ
سأنتظرُ فجراً رأيتُه فيه
سأتصوَّرُه قربي
وأبدِّدُ نفسي بين يدَيه
وأختبئُ فيه
وأركنُ إليه
سأستعيدُ أيّاماً كانت لي معه
يتنحّى عنّي
كأنَّه أحبَّني لا ليحبَّني، بل ليحرقَني
ويرى كيف أحترق.

وسمعَها أشنار، ذات يوم، فراح يردِّدُ هو أيضاً في سرِّه ما كان ردَّدَهُ مرّات: "ليسَ هذا ما يعنيني".

ولمّا شعرَ بأنَّه آنَ أوانُ الحَسمِ صارَحَ مَيْسَا قائلاً:

– أنا أحبُّك، وقد يكونُ حبّي لكِ حبّاً يُجاوِرُ المُطلق. لِذا، أرغبُ في قضاءِ العمر معكِ، ولكنّني لا أقبَل أن أتوهَ عن هَدَفي بالبحثِ عن الحقيقة المُطلقة. جَعَلتِ منّي إنساناً مُشتّتاً، أعاني اليومَ صراعاً حادّاً بين شَغَفي بالبحثِ عن الحقيقة المُطلقة وعن حاضرةِ الحقيقة، وبين قلبٍ وعاطفةٍ يدعوانني إلى تغليب الإحساس والاستسلام للعواطف.

قاطَعَته مَيْسا فسألَت:

– ألا ترى أنَّ الحبَّ المُطلق هو الطريق الوحيد نحو الحقيقة المُطلقة؟ وكيف تعيشُ أنتَ بالذات الحقيقة المُطلقة متجاهِلاً حبَّكَ لي؟

– عليَّ أنْ أختار، والاختيارُ صعب. الحقيقةُ يا مَيْسَا، تناديني، ومنذ أن عَلِمتُ بحاضرةِ الحقيقة نَذَرتُ نفسي لألبّي النداء. إنَّما أنتِ تُقيمينَ فيَّ ما حييت. أريدُ أن أرنو اليكِ يا مَيْسا. فيا لشَغَفِ القلب كم يُدميني إذ يُعاندُ عقلي، ويا لبأسِ عقلي كم يقتلني إذ يصرعُ قلبي!

اغرورقت عَينا مَيْسا بدموعٍ وقالت بصوتٍ مهَدَّج:

– لِمَ لا نبحث معاً عن الحقيقة المُطلقة؟ ألا يتكاملُ حبُّنا، وهو الصراطُ الوحيد نحو الحقيقة المُطلقة...

رأت مَيْسا أنَّ أشنار أصبحَ بعقلِهِ بعيداً عن كلامِها فأخَذَت تُتَمتِم:

– يا تيّارات الزمان والمكان، غلِّفي عقلَ حبيبي، ودَعي قلبَه يبتّ المصير. دَعيهِ يقرِّر ولو مرَّةً فينسى وهمَ الحقيقة المُطلقة في صدري، دَعيهِ ينبض لي لعلَّنا نؤبِّدُ مكانَ اللقاءِ وزمانَ الوِصال.

وأضافَت:

– تتركني وحيدةً أمام صحراءِ أوهامي، أتفرَّسُ في نجوم السماء وهي تتلألأ في جدار الظلام الأكبر. أرفعُ هامَتي إلى السماء وألتَفِتُ مِن حَولي إلى أشجار أفقا فأراها عاريةً وحزينة. لا أحد سوى العصافير تشاطرُني وَحدَتي. هذه هي الحقيقة الأولى التي ستكتشفها يا أشنار بعد رحيلِكَ عنّي. حقيقةُ انفراط عقد الحب كانفراط الضباب في سماء الصيف الصافية.

قلْ لي: مَن يشاطرُني الفراشَ بعدَك؟ لِمَن أهِبُ جَسَدي بعدما ذاقَ طعم جسدكَ أو قلبي بعدما باتَ أسيرَ قلبكَ؟ قلْ لي أليسَ ما ترتكبُه ضَرباً من جنون؟ أليسَ عقوقاً أن تزرعني في جنَّةِ أفقا شجرةً يابسةً بعدكَ؟ أوليسَ تضحيةً بي من أجلِ وهمٍ تبحث عنه؟ هنا يا أشنار... هنا حقيقتُكَ وحقيقتي.

سأعطيكَ جسَدي الخالد، وأرهنُ روحي بروحِك، فلنكنْ واحداً نحنُ الاثنين.

ثم راحت تُنشد:

تسابقُني نفسي إليكَ
أحبُّكَ ما اتّسعَ الحبّ
لا أسمعُ شيئاً في الدنيا لا أسمعُه فيك
لا أرى شيئاً في الدنيا لا أراهُ فيك
لو أُعطيتُ أن أخلقَ رجلاً لنفسي
لما اخترتُ رجلاً سواك
أنتَ قطعةٌ نُزِعَتْ منّي
وضَعَكَ حسنُكَ في طريقي
وكان لي أن أختارَ

كان لكلامِ مَيْسَا أثرٌ أليمٌ في نفسِ أشنار، ولكنَّ عنادَه جعلَه يشدِّدُ الحصارَ على قلبِه، فهبَّ لساعتِهِ يودِّعُها بقولِه:

– إنَّ حبّي لكِ لا يسمو إلّا عندما تكتَمل حياتي في البحثِ عن الحقيقة المُطلقة. ثم غادرَ مخدعَها، فوقفَتْ تراقبُ طيفَه يتلاشى حزينةً وعاجزةً عن إطفاءِ النارِ المضطرمةِ في حنايا الصدر.

ولكنَّه لم يغادر أفقا ويواصل مشواره الشاقَّ الطويلَ قبلَ أن يوصي كالوباي بالعودة إلى بيبلوس مزوِّداً إيَّاهُ برسالةٍ إلى والدَيه. وفيما كان يصعدُ في الجبال كان والداه يفضّان رسالتَهُ ويقرآنها بلهفٍ وحزن، ثمَّ يطويانها بأسى وعصبيَّة مردِّدَين بصوتٍ واحد: مجنون! مجنون!

مع الناسِك

امتطى أشنار جوادَه، وانطلقَ مِن أفقا مصمِّماً على المضيّ في سبيلِه متخطّياً كلّ الحواجز والسُّدود.

سلكَ درباً شائكاً وعراً، يلتوي حيناً، ويضيقُ أحياناً، ولا يتَّسعُ في أيّ حين، وكان جوادُه يطأُ الصخر فيتطاير الشررُ مِن تحتِ قوائمِه، ويختزنُ اللّهب، وينفثهُ دخاناً من منخرَيه. كان إذا صَهَلَ أو حَمْحَمَ ترتجُّ الأوديةُ، وتهتزُّ الجبالُ، وإذا عدا في الوعر فكأنَّه يعدو في أهونِ السهول.

وكلّما قطعَ أشنار مسافةً طويلةً كان يتوقَّفُ قليلاً، ليرتاحَ هو، ويريحَ جوادَه، أو ليتذكَّرَ حبيبتَه مَيْسا، ولكن أنَّى لشَّابٍ مثلِه أن يعرفَ طعمَ الراحةِ ما دامَ دائم الانشغالِ بالتأمُّلِ والتَّفكير؟

حاولَ كثيراً استظلالَ الأشجار لينام، ولو لدقائق، متمدِّداً أو جالساً. ما أكثر ما كان يتعذّرُ عليه النوم! عيناهُ كانتا مشدودتَين إلى الشرق، تسرحان في المدى، وأفكارُه كانت تحبُكُ له أحلاماً متوتِّرةً ومتكاثفةً كخيوطِ العنكبوت.

مضى النهارُ إلّا أقلّه وهو يضربُ في الأرضِ على غير هدى، لا يدري إلى أينَ سينتهي به المطاف، فأخذَ طريقَ الجبل واتجَهَ نحو سهلِ البقاع، فإذا به أمامَ بحيرةٍ حيث اندفعَ مع جوادِه نحو الماء بعد أن كان قد أضناهُ التَعب.

وراح يستغلُّ هذه اللحظات ليستريحَ خلالها مِن عناءِ الطريق. وفجأةً تناهى إلى سمَعِهِ صوتٌ أجشّ يسألُ: مَن القادم؟

فاتَّجَهَ نحو مصدرِ الصوتِ وهو يردِّد: فارسٌ ضَلَّ الطريق، وهو لم يصادفْ بعدُ آدَميّاً واحداً في غاباتِ الأرزِ هذه منذ الصباح.

ولم يلبثْ أن وجدَ نفسَه أمامَ كوخٍ صغيرٍ يتكوَّمُ قربه ناسكٌ غَزَتِ الشيخوخةُ كهولَتَهُ فغارت مقلتاه، وتجعَّدت بشرتُه، وابيضَّت لحيتُه، وتفتَّحَ تحت شاربَيهِ فمٌ برزت مِنه أسنانٌ متنافرةٌ متناثرة.

لم يندهش أشنار مِن وجودِ ناسك، لأنَّه عَلِمَ أنَّ بعضَ حكماء فينيقيا عَمَدَ إلى النسكِ رغبةً في التأمّلِ والعزلة، قَرَفاً مِن المجتمع المادّي الذي سادَ المُدن. ترجَّلَ عن صَهوَةِ جوادِه، وقالَ وهو يدنو مِن الناسك:

– عليكَ السلام أيّها الشيخ الجليل.

– ليكن السلامُ باسمِ الخيرِ والحقيقةِ بقلبٍ صافٍ طَهور، أجابَه الناسكُ وعرَّفَه عن اسمِه "أرانون"، بعد أن رفعَ عينَيه. ثمَّ أردَفَ وهو يتفرَّسُ في وجهِه، ويُحدِّقُ مليّاً فيه:

– تبدو شديد الإعياء. ربما لم تأكلْ شيئاً طوال نهارِك. ألم تقُلْ إنّك لم تلتقِ منذ الصباح أحداً في الطريق؟!

– شكراً، أيّها الشيخ الجليل.

– ادخلْ إذاً كوخي، وخُذ قسطاً مِن الراحة فيه، ولنتشاطر معاً ما أعدَدْتُه مِن طعام. لن تحظى عندي بوليمةٍ عامرة، فلا لحمَ لديَّ ولا نبيذ، لا أطباقَ شهيَّة ولا توابل.

– بكلِّ سرورٍ وطيبةِ خاطر، أجابَ أشنار.

وعندئذٍ دخلَ كِلاهما الكوخ، وفيما كان أشنار يُجيلُ النظرَ فيه، ويتحرَّرُ بحركاتٍ صبيانيَّةٍ مِن رمحِه وخوذتِه، استرعت انتباهَهُ مطرةٌ في إحدى الزوايا معلّقةٌ بوَتَد، فوقفَ قربها مسدِّداً نظرَه إليها، ومردِّداً في سرِّه:

– لو أجرؤ! لو أجرؤ!

وإذ قرأ الناسكُ في نظراتِه ما يدورُ في خَلَدِه، بادَرَهُ وهو يشيرُ بإصبعِه إلى المطرة:

– تَصرَّفْ، إنّها لك.

فسارعَ أشنار إذْذاك فوراً إليها، وانتزعَها، وراحَ يعبُّ الماءَ منها بشراهةٍ ونهم.

– ما أعجَبَكَ شارباً! تبدو أشبه بطفلٍ رضيع، قال الناسكُ معلّقاً على المشهد.

– يمكنني أن أعبَّ بحيرة. كنتُ قد غادرتُ أفقا عندما لمحتُ بعدَ رأسِ الجَبَلِ وبعدَ غابةِ الأرز ساقيةً من بعيد، فتوجَّهتُ نحوَها، وجعلتُ حصاني يتحرَّكُ تحرّكَ المقيّد الراسفِ بأغلاله بخطواتٍ ثقيلة، لا لشيءٍ إلّا ليتضاعف عطشي، ثم بلغتُ البحيرةَ بجوارِكَ فألْقيتُ نفسي فيها بسلاحي وثيابي، وكنت أنضحُ عَرَقاً من رأسي حتى أخمصِ قدميّ، ورحتُ أراقبُ بأمِّ العين المياه تموجُ حولي، وتبلّلُ شفتيّ وتتسرّبُ عبرَهما إلى فمي كنبيذٍ بارد. آه ما أروع ذلك!

– بل ما أقبحه! قال الناسكُ بنبرةٍ حادّة، سيئٌ جداً، أيها الفارس، أن يفرِطَ الإنسانُ في إشباع رغباته، وإرضاء شهواته ونزواته. أنا تعلّمتُ كيف أخنق رغباتي، وأكبحُ شهواتي، وأميتُ جسدي، وأعزلُ نفسي لأربّي روحي.

لكنّ أشنار تعمَّدَ مقاطعته هنا، فتدخَّلَ قائلاً:

– قليلٌ من الشهوة، يا سيّدي، يشبعُ الإنسان. ماذا يَضيرُ المرءَ لو أكثرَ منها؟

ما كان أشنار ليقولَ ذلك لو لم يكن يدرك أنه في حضرةِ رجلٍ حكيم. وما كان ليَقودَهُ فِكرهُ إلى هذا لو لم يكن عقلُهُ يتذكَّر وما زالَ يشعر بالأيام التي أمضاها مع مَيْسا. وكان أشنار متعمّداً الخوضَ أيضاً في جدالٍ معه، متخذاً، كعادةَ معلّميه في الأكاديميا، موقفاً مؤيّداً للحياة الدنيويَّة، المدافع عن ملذّاتها ومغرياتها على حدِّ قولِ أفلاطون. ثمَّ أردَفَ قبْلَ أنْ يتلقّى الجواب ليبالِغَ بشهوتِهِ وكأنَّه يتحدّى الناسك ليدفعَه نحو الجواب:

– الحياةُ عندي أن أتنعَّمَ بما تقدّمهُ لي الدنيا، وما من سوءٍ أو خطأ في ذلك على الإطلاق.

– الجسدُ يشتهي ما هو قاتلٌ للروح، قالَ الناسك. الشهوةُ يا بنيَّ تقودُكَ إلى إشباعِ الجوع وإرواء العطش وبعد ذلك تُبقيكَ على جوعِكَ وعطشِك. وبعدها قد تصدّق وعدَها وتندمج فيها وهنا تكمنُ العبودية الأولى. وعندما تُشبِعُ شهوتكَ وتعودُ إلى جوعِكَ مِن جديد ترى أنَّها لا تفي بالوعد وتخدعُك وتخنقُ الحريَّة فيك، إلّا إذا كانت هذه فرصةً للوعي والخروج من الإدمان الذي تقودكَ إليه الشهوات.

وأردفَ الناسكُ متعجباً:

– يا لقلبك! إنه مسكونٌ بالشهوة، ولا يحتلُّ سموُّ الروحِ فيه سوى حيِّزٍ ضيّقٍ صغير.

راح الناسِكُ يُكثِرُ من ذمِّ الدنيا، ويُطيلُ في الحديث عن شرورِها وآفاتِها، وَيَفتَنُّ في تصوير غزائلها، فإذا هي نارٌ تُحرِقُ مَن يَلمِسُها. والإدمانُ خَصمٌ ألَدّ لا يرحَم، وسَرابٌ خادع، ونشوةٌ مؤقَّتة، وسلطانٌ زائل. والرجلُ الواعي جداً هو مَن يتخلّى عنها، ويعتزلُ الناس، وينطوي على نفسِهِ، ويأنسُ بوحدتِه، فيغتني بالحرمان.

ثم رفعَ رأسَه، وانعطفَ سائلاً أشنار بغضب:

– مِن أين أنت؟ هل أنتَ مِن بلادِ المنغمسين بالملذّات؟

– آه! صاحَ أشنار متعجِّباً. هذا أوَّلُ سؤالٍ توجّهُهُ إليّ. أنا من هذه البلاد بالذات، كنتَ بدأتَ تحيّرُني وتُثيرُ دهشتي. ما كان أغربَكَ مُحْجِماً عن طرحِ الأسئلة!

تنهَّدَ الناسكُ تنهيدةً عميقةً كأنَّه يُلقي بها حِملاً عنه على الأرض، وسأل:

– ماذا تقصد؟

فأجابَهُ أشنار والابتسامةُ تطفرُ إلى وجهه:

– أقصدُ أنك، حتى الآن، لم تكن فضولياً... لم تستفسرْ بعد عنّي... مَن أنا؟ لماذا أتيتُ إلى هذه الغاباتِ الموحشةِ المنتشرةِ على قمّة الجبل؟ لماذا؟ ألا يبدو لك هذا الأمرُ غريباً؟

– لا، على الإطلاق، ردَّ الناسكُ بعصبيَّةٍ وحزم، ثمَّ استعادَ رصانتَهُ ورباطةَ جأشه، وتابع:

– بِتُّ أعرفُ أنّك فتىً نزقٌ طائشٌ مفتونٌ بشبابه، وأنك أيضاً بأمَسِّ الحاجة إلى مَن يعلّمك الحياة الحقيقيَّة، حياة الروح، ويهديك سواء السبيل.

الدَّرسُ في الأخلاقِ والحياةِ لم يَرُق أشنار كثيراً. أحسَّ كأنَّ الصقيعَ يُبَرِّدُ جسدَه وَسطَ لهيبِ ذلك اليومِ الحارّ، وحاولَ أن يكظم غيظه، ويكتم انزعاجه، فقال مصطنعاً الهدوء:

– اسمي أشنار، أنا أميرُ بيبلوس، وابنُ مليكها ووليُّ عهدِهِ، وقد تخرَّجتُ في مدرستِها الحربيَّة...

ولكنَّ الناسك قاطَعَه، غير مبالٍ بما يقول:

– أرى أنَّك على الرغم من سنِّك، قد عرفتَ شيئاً وغابَتْ عنك أشياء.

بادَرَ أشنار بالكلام عن حاضرة الحقيقة وعن شغفِهِ بالوصولِ إليها فقال:

– إنَّ في العالمِ كنزاً مقيّداً مخبوءاً في هيكلٍ وسطَ حاضرةٍ مسحورةٍ تُحيطُ بها غابةٌ مسحورةٌ عصيَّةٌ حتى على الزواحف والحيواناتِ البريَّة. والكنزُ هذا فريدٌ عجيبٌ، بلّوريّ تتجسَّدُ فيه وتُدرَكُ بواسطتِه الحقيقةُ المُطلقة. إنَّ من يَراه تَنْفَتح عيناه وأذناه وعقله، ويصبح بإمكانِه أن يرى ما لا يراه سائر الناس، وأن يسمعَ ما لا يسمعونه، وأن يدركَ ما لا يدركونه، كما يصبح بإمكانِه أيضاً أن يفهَمَ لغة الطبيعةِ والكائنات. رؤيتُه كفايةٌ ونشوة، حياةٌ أفضل، ظمأ وارتواء، تقشّفٌ وغنى، تملّك واكتفاء. ولكن أُعطيَ لشخصٍ واحدٍ فقط، يكونُ على جانبٍ كبيرٍ من الحكمةِ والطهارة، أن يغزوَ هيكله، وأن يُنَصَّبَ حافظاً لها.

وأردفَ أشنار قائلاً:

– هدفي أن أستطيعَ أن أكونَ هذا الحافظ! أرجو أن تعذرَني لأنني كذبتُ عليك عندما زعمتُ أنّني ممتلئُ شهوة. وكيف أكون شهوانياً، يا سيّدي، وقد تخلّيتُ عن كلِّ شيء، المباريات، والأولمبيا، ومعلّمي، حتى عن أفلاطون نفسه، وعن مملكتي بيبلوس، وخيَّبتُ أملَ أهلي بي، كما دستُ على قلبي في أفقا لأمضي إلى أبعد من السعادةِ التي وفَّرَتها لي مَيْسَا هناك؟ أنا أعيشُ على أملِ بلوغِ الحقيقةِ المُطلقة. تخلَّيتُ عن الفلسفة وأفلاطون بل تخلَّيتُ عن كلِّ شيءٍ مِن أجلِها. هاجسٌ واحدٌ يسكنُني هو هاجسُ الظَّفَرِ بها، والقبضِ عليها.

ثمَّ توجَّه إلى الناسكِ سائلاً:

– هل تعرف أفلاطون؟ هل سمعتَ به، يا سيّدي؟

وكان يقصدُ من سؤالِه هذا أن يُبيِّنَ للناسكِ حجمَ تضحيته.

فأجابَه الناسكُ على الفور، وهو يعبثُ بلحيَتِه:

– أجل أعرفُه، سمعتُ عنه الكثير.

فلسفتُهُ نِظامٌ جامعٌ شامل، لا ينحصرُ بجانب واحد، أو منحىً واحدٍ مِن مناحي الوجود، بل يطاولُ الوجودَ بأسرِهِ مِن وراء الطبيعة، إلى الطبيعة، إلى الأخلاق والاجتماع. ومفهومُهُ للذَّةِ الحياة، موضوع حديثِنا، مفهومٌ لافت.

والحياةُ الفاضلة، في رأيِه، ألذُّ حياة، يخفُّ فيها الانفعال، ويتضاءَلُ الألم. وإنه يرى أنَّ للذَّةِ وجهَين: لذَّةَ الجَسَد، ولذَّةَ العقل. الأولى هاربةٌ سرعانَ ما تنقلبُ شقاءً ومرارة، والثانيةُ متجدّدةٌ دائماً تتزايدُ بتزايدِ المعرفة.

ويخرجُ أفلاطون مقيِّداً اللذّة بفكرةِ الخير.

واستدارَ الناسكُ إلى أشنار فاتحاً عينَيه، وقال بشيءٍ من السخرية والغيظ:

– ألم يكن لمفاهيم أفلاطون وتعاليمه أثرها في نفسكَ وفي مسلكك؟!

ومِن دون أن ينتظرَ مِن أشنار جواباً تابعَ فقال:

– وأعرفُ فوق كلِّ ذلك أنَّ أفلاطون فيلسوفٌ طوباويّ، حلِمَ بالجمهورية الفاضلة.

وبالهدوءِ والبساطةِ اللذين يتحلّى بهما عادةً الحكماء، تساءَل:

– أليسَ طوباوياً مَن يضع حياته في مهبِّ أفكارِه؟!

وأردفَ مقرّراً:

– أفلاطون يا بنيّ، ضلَّ، عندما كرَّرَ تجربتَه الفاشلة ثلاثَ مرّاتٍ على التوالي في الانتخابات. وضلَّ هو، وأضلَّ معلِّمَهُ سقراط أيضاً، عندما جعلته القربى يوالي حكومة الثلاثين التي فَرَضَتْها اسبرطة العسكريّة على أثينا الحضارية.

– أنتَ تظلمُهُ بحُكمِكَ هذا عليه، قالَ أشنار، وتابعَ موافقاً: أفلاطون، يا سيِّدي، هو الأنبل بين الناس. لقد علَّمَ دائماً البحثَ عن الحقيقة، وهو مدركٌ تماماً أنَّ الآلهة أنفسهم عاجزون عن بلوغ الحقيقة المُطلقة.

– إذاً، لو كنتَ تدري ماذا تعني الحقيقةُ المُطلقة لكنتَ عرفتَ كمعلّمك أنَّ بلوغَها متعذّرٌ عليك. ولو كنتَ عاقلاً رشيداً لما كنتَ تتخلّى عن شعبِك وتهمله لإشباع رغبة، أو إرضاء طموحٍ لديك. ألا ينمُّ ذلك عن أنانيّةٍ وكبرياء؟!

وأردَفَ الناسك، وقد لفَتَهُ انفعالُ أشنار قائلاً:

– اسمعني جيّداً! أنت كنتَ في الأكاديميا، وزَهِدْتَ في كلِّ شيء حاصراً همَّكَ بالحقيقةِ المُطلقة التي وقفتَ لها حياتك بفرحٍ عظيم. وأمّا أنا فشيخٌ طاعنٌ في السنّ، وقفَ حياته لحريَّةِ روحهِ التي لم تتحقَّق إلّا جزئياً. حريَّةُ الروح، يا أشنار، أشبه بالحقيقة المُطلقة. كِلتاهما صعبةُ المنال. لذلك أقولُ لك، وقد سألْتَني منذُ هنيهةٍ عن السبيلِ إليها: أقْلِعْ عن بحثِك هذا، وأَصغِ إلى نداءِ قلبك، وآمال شعبك. أصغِ إلى ذويك الذين يترقبونك ويقضُّ مضجعَهم القلقُ عليك. عدْ إلى أفقا، إلى حبيبتِك التي

آلمَها رحيلُك، وتتحرَّقُ شوقاً إليك. عدْ إلى بيبلوس التي تُعلِّقُ عليك الآمال العِراض، وتتطلَّعُ إلى غدٍ مشرقٍ على يديك.

– ولكنَّ الحقيقة الساميةَ موجودة، قالَ أشنار، ولا يمكن أن تحتجبَ باستمرارٍ عَمَّن نذرَ نفسَه لإظهارِ مجدها وإعلانه.

– مجدُ الحقيقة، أوضَحَ الناسك، ليسَ في متناول يَدِك، كائناً مَن كنت، يا أشنار. يتعيَّنُ على كلِّ إنسانٍ أن يبحثَ عن الحقيقة في ذاتِه. الحقيقةُ السامية تقضي بأن يلازِمَ كلُّ واحد، بتواضعٍ كلّي، المكانَ الذي اختارَه القدرُ له وأحلَّه فيه، وأن يقومَ بالمهمّةِ الملقاة على عاتقِه، مستسلماً لإرادة الآلهة. الآلهةُ هي التي تتولّى قدرَنا أفراداً وجماعات. وقد قضت الحقيقةُ بذلك لئلا ينقاد أوّل مغامرٍ وافدٍ لتخيّلاتٍ مفرطةٍ في طموحِها، يزوّدُه بها عقلُه التائه الشرود، فيظنُّ أنَّ الشمسَ والحقيقةَ في قبضتَيه، بفضلِه تشرقُ الشمسُ على الإنسانيَّة، وتلمعُ الحقيقةُ وتتوهَّجُ خارجَ الهيكلِ المخبوءة فيه.

– هل ظننتَ أنني أبحثُ عن الحقيقةِ مِن أجلِ السلطة؟ قالَ أشنار. لا! قطعاً لا! أنا لا أريدُ أن أكونَ سوى خادمٍ أمينٍ لها، أن أكونَ الأكثر تواضعاً لتتمكَّنَ الإنسانيةُ مِن أن ترى وتفهم.

فردَّ الناسك:

– ولكن أنتَ عيَّنتَ نفسَكَ بنفسِكَ لتولّي هذه الخدمة. وهذا، في حدِّ ذاته، ضربٌ مِن التعدّي. الناسُ كلُّهم، لا أنتَ وحدَك، مدعوّون إلى أن يكتشفوا مِن الحقيقةِ بعض وجوهِها. أمّا أن تبلغَ في ادِّعائِك هذا الحدّ، فذلك يعني أنكَ تُقصي نفسك عن طريقِها. ألم يقضِ التكبّر قضاءً غير مباشر على أعظم العقول اليونانية؟ ألم يقضِ على إيكاريوس وسقراط؟

قالَ أشنار:

– ولكنَّ الحقيقةَ المُطلقةَ موجودةٌ في هيكلٍ مسحور وسَطَ حاضرةٍ مسحورة. هذا ما أوضحَه لي الفيلسوف الإغريقي المسنّ أوراكلِس قبل هذا الحين. وإن كانت كذلك، أفلا يتعيَّنُ علينا أن نُميطَ اللثام عنها، ونكشفَها للناس، كلِّ الناس؟

إنَّها لمهمَّة كبرى يتحتَّمُ إنجازُها. ومَن يتولّى عناءَ إنجازِها إذا أحجم أو تلكأ مَن يشعر بأنَّه خُلقَ لها، وبأنَّه يمتلكُ للاضطلاع بها ما يُشترَطُ مِن صفاتٍ ومؤهّلات؟ هل تعتقدُ أنني لم أتكبَّد الكثيرَ مِن العناءِ والمشقّة في مسعاي؟ أهيمُ على وجهي شارداً في الغابات المهجورة، وحيداً لا رفيقَ لي آنسُ إليه إلّا هذا الجواد، ولا موسيقى تشنّف أذني سوى صهيلِه وهمهماتِه.

أهيمُ على وجهي مُقاسياً التعبَ القاتل، والعطشَ المضني وذكرى الحبيبة، والجهادَ المتواصل ضدَّ أشباحٍ تظهر في الليل وتختفي في النهار. أوَتظنُّ أنني كنت أقبل بتكبُّدِ هذه المعاناة كلّها لولا الحقيقة، والإصرار على اكتشافِها وكشفِها للناس؟

فأجابَهُ الناسكُ جازماً:

– لم يكن عليك أن تتحمَّلَ كلَّ هذا العناء. كان بإمكانك أن تلازمَ والدَيك، وتعيشَ مرَفَّهاً منعَّماً في كنفِهما حتى يؤول المُلك إليك، فتحقّق العدالة الصحيحة في شعبِك، وتكون دعامةً للضعفاء، وسنداً للفقراء، ومطيعاً للآلهة.

كلامُ الناسكِ جعلَ أشنار يستعيدُ في ذاكرتِه إحدى محطّات حياته، فقال:

– ربما، ولكنَّ قدَري قادني إلى ما أنا فيه، وجعلني أعاني ما أعانيه. فمنذ اللحظة التي عرفتُ فيها أنَّ الحقيقةَ المُطلقة محفوظةٌ في هيكل، وأنّها ليست في متناولِ البشر، جفَّ العالم دفعةً واحدة في عينيّ. جُوِّفَ وأُفرِغَ مِن كلِّ قيمة، ولم يعد يشدُّني إليه أيّ رابط، لا أب، ولا أم، ولا صديق ولا شعب، ولا حتى حبيبة.

فخاطَبَهُ الناسكُ قائلاً:

– الطبيعةُ خصَّتكَ بكلّ المؤهلات والمواهب، ولكنّك أردتَ الذهابَ إلى ما هو أبعد. أردتَ أن تجرِّبَ المستحيل، أن تفتّشَ عن أعمالٍ باهرة، وعن مآثر خارقة، وتجارب مثيرة. أردتَ بصورةٍ خاصة أن تستحقَّ الجائزةَ الكبرى التي تُمنح لأطهر الطاهرين. لعلَّ شيطاناً وسوسَ لك، وهمسَ في أذنيك مؤكّداً أنك أنت وحدك المخُتار. أرجوك، يا أشنار، أن تصغي إلى أصوات الآلهة، لا إلى صوتِ فتوَّتِك، ولا إلى أصوات فلاسفة أثينا. ثِق، يا بنيّ، بأنْ لا سبيل مشروعاً للإنسان سوى أن يكونَ عادلاً محبّاً ودوداً حرَّ الروح.

وهنا استفسرَ أشنار:

– إن كنتَ قد عزمتَ الجرأة على قيادةِ روحك إلى أبعد من قرارات الآلهة، وبتعبيرٍ آخر، إن كنتَ قد ألزمتَ روحَك حدود قراراتها، فلماذا إذاً تعزلها في منسك؟!

فأجابَهُ الناسكُ:

– لا حريَّةَ للروحِ ما دمْتَ محدوداً بإرادة الآلهة، محكوماً بها، لا تملك الشجاعة على تخطّيها.

سألَ أشنار مستوضحاً:

– ومَن تكون الآلهة هذه؟ بل ما شأنها جميعاً، وقد عجزت عن معرفة الحقيقة معرفةً كاملة؟ وهل باستطاعةِ المرء أن يرى أكثر من جانبٍ واحد من جوانبها؟

المعلّمُ أفلاطون قال: لو قُيِّضَ لي أن أدركَ الحقيقةَ المُطلقة، وأن أحيطَ بها، لأصبحتُ أنا الإله، وقضيتُ على تعدُّدِ الآلهة.

فأكَّدَ له:

– إنَّ غرورَك، يا أشنار، يتخطَّى كلّ الحدود! لعلَّ بودِّك أن تصبحَ أنتَ الإله الأوحد، لأنَّ الإله الواحد، وحده يستطيع أن يختارَ بدقَّةٍ بين الخيرِ والشر.

ولكنَّه نفى:

–كلا! كلا! أنا لا أتوخّى غيرَ اكتشافِها وإعلانِها للملأ. ولكنتَ مصيباً في اتِّهامي بالغرورِ لو كنتُ أريدُ الاستئثارَ بها، وحجبَها عن سواي...

فقاطَعَهُ الناسكُ قبل أن يتمَّ كلامَهُ لكأنَّه يريدُ أن يُنهي الحوار، قائلاً:

– أنا هنا أمامَك للمرَّةِ الأخيرةِ بمثابةِ دليلٍ أو إشارةٍ على مفترق طريقَين: طريقِ العزوفِ عن المُطلق، والرضوخِ للقاعدةِ المشتركة، والواقعيَّة، والسلام، وطريقِ المكابرة، واختيارِ الأسمى، والعزلة، والموت.

ولكن رغبةً من أشنار في مواصلةِ الحوار، سارعَ إلى القول:

– قلْ لي شيئاً، شيئاً واحداً فقط. سمعتُك تنصحُني، وأقدِّرُ نصحَك لي. إلّا أني أطلبُ منك أن تساعدَني. فاستجبْ لي، ودلّني على هيكلِ الحقيقةِ المُطلقة.

– لا، لا أرغب في ذلك، قال الناسك. أمرُ الهيكلِ لا يعنيني، ولا تعنيني معرفته، ولا معرفة موقعه.

– إذاً سأمضي، أجابَ أشنار.

– لتحفظْك الآلهة، وتساعدْك لأنَّك تضعُ نفسَك في مواجهةِ خطرٍ كبير.

– شكراً أيها الناسكُ الصالح.

– ولكن تناوَلْ طعامَك قبلَ الرحيل. ولنصرفْ ما بقي مِن الوقتِ معاً بممارسةِ الصمت.

إلّا أنَّ أشنار كان في جعبتِه كلامٌ كثير. فنظرَ إلى الناسكِ، وقال:

– أرجو أن تسمحَ لي بكلمةٍ أخيرةٍ قبل أن نفترق. أعتقدُ أنَّ وجهتي هي الوجهة الصحيحة، وأنَّ بَحثي لن يستغرقَ بعد مدَّة طويلة، وأنّني، لا محالة، بالغ الهدف مِن مسعاي.

– هذه هي عادتُكم، قالَ الناسكُ ساخراً، عادتُكم السيئةُ أنتم الأمراء الأحداث، تعتقدون دائماً أنَّكم قابَ قوسين أو أدنى مِن الهدف، تقضونَ حياتَكم وأنتم على احتكاكٍ به.

– لا، لا. أنا لستُ كما تظنّ مِمّن يعتقدون... أنا ممّن يسعون إلى الهدف، والآن أشعرُ باقترابِ موعد الصراع الأسمى.

هناك، ولا شكّ، مخاطر مروّعة تقفُ دوني ودون الهدف. أعرفُ ذلك. ولكنّني على الرغم مِن كلِّ شيء، بالغُه. سأبلغه متخطّياً كلَّ ما يعترضُ سبيلي إليه. سأشقُّ طريقي كما يشقُّ الحطَّابُ طريقَه وسطَ الغابة.

– ها أنتَ، على أيِّ حال، مستعدٌّ ومعَدٌّ لجبهِ ما يتهدَّدُك مِن أخطار، قالَ الناسكُ ذلك مشيراً إلى سلاحِ أشنار.

– إنَّكَ يا أشنار، بعد مشقَّاتٍ كبيرةٍ وطولِ عناء، وجدتَ هدَفَكَ الساطعَ وحقيقتَكَ المُطلقة، ليتَبَيَّنَ أنَّ تطلّعاتِكَ تنحصرُ بها وتُعارِضُ مناعاتِكَ وتُجافي طموحاتِكَ وتخيِّبُ آمالَ أهلِك. هل تُجدي التوبةُ

بعدها أو ينفعُ النَدَم؟ ربما العودةُ عن سبيلٍ مستحيلٍ هي فضيلة.

فأجابَ أشنار مؤكِّداً استعداده:

– والحقيقةُ ستكون هي الجائزةَ التي ينالُها أشجعُ الشجعان.

وردَّ عندئذٍ الناسكُ قائلاً:

– هكذا إذاً، اصقلْ سيفَك، واشحذْ رمحَك.

وبنبرةٍ لا تخلو مِن السخريةِ تابع:

– ولكن قلْ لي، يا أشنار، ما رأيك إذا خدعَك حلمُك، فلم تصادفْ حول هيكلِ الحقيقة ما تتوجَّسُه مِن مصاعب وتخشاه مِن أخطار؟

أجابَ أشنار:

– الحلمُ يصدقُ إذا سعى الإنسانُ إلى تجسيده. أنا أعرفُ المصاعب. منذ نحو سنة قيل لي إنَّ هناك أهوالاً دون الهيكل تحميه، وتحمي الكنزَ المخبوءَ فيه. وقد وصفَ لي أحدُ الفلاسفة اليونان، يوم كنّا نتنزَّهُ في محيط أثينا، هذه الأهوال، وانقضت مِن ثمَّ سنةٌ كنتُ أتهيَّأُ فيها للصراع، وأحلمُ به من دونِ انقطاع.

أنا، أيّها الشيخ الجليل، خُلِقتُ لهذه الأخطار. أنتظرُها... بل أشتهيها. أنا، صدّقني، أعشقُها، وبدونِها ما أدراني؟ أُصابُ بخيبةِ أمل.

فهزَّ الناسكُ رأسَه، وقال:

– أنتَ أعدتَ بناءَ حاضرةِ الحقيقة على هواك. بنيتَها كما يناسبُك. ولكلٍّ مِنّا هيكله الذي يبنيه على هواه. أنت، يا أشنار، تخرَّجتَ في المدرسةِ الحربيَّة في بيبلوس. إذاً، أنت مقاتلٌ خطير. ويجب أن تكونَ تعلّمتَ في ما تعلّمت، أنَّ الخيالَ في الحرب مُدان، لأنه قد يخدع صاحبَه، وقد يكبِّده ثمناً باهظاً يبلغُ أحياناً حدَّ الهزيمة.

– ماذا تعني بذلك؟ قال أشنار متعجّباً.

– لا شيء، لا شيء. أفضِّلُ ألّا أفكِّرَ بالأمر. لا أريد أن أتعاطى بكلِّ هذه الأمور... فكلّما ازددتُ إصغاءً إليكَ ازددتَ حذراً من حاضرةِ الحقيقة. أنا رجلٌ أحملُ على كتفيّ ثقلَ أعوامي الثمانين، ولا طاقة لي على شيءٍ إلّا التنزّه في عالمِ الروح...

الصعوبة، يا أشنار، ليست في خوضِ المعركة، بل في تحقيقِ الهدف منها: معرفةِ الحقيقة. فهل أنت مستعدٌّ لتقبّل النتيجة، مهما كانت؟

– يبدو من سؤالِك أنَّك تملك سرّاً غامضاً لم تفصح عنه. أنت تكتمُ بعض المعطيات عنّي. أرجوك، أنبئني بما لديك.

فأطرقَ الناسكُ قليلاً، ثمَّ رفعَ رأسَه، وقال:

– أنظرُ إليكِ فأقولُ في نفسي: يا له من حدثٍ صغير! الحدثُ يرى باباً موصداً أمامَه، فيعدمُ كلَّ الوسائل حياله إلّا وسيلة واحدة هي الانقضاض عليه بالقوّة لخلعه. والآن، انظرْ إليَّ أنتَ بدورك. حدِّقْ بي جيّداً. مهما تكن معلوماتي عن حاضرة الحقيقة، فمحظورٌ عليَّ أن أطلعَكَ عليها. لا تمنِّ نفسَك إذاً بمعرفةِ أيّ شيءٍ منّي. لقد كنتَ وحيداً وشقيّاً، وستظلّ كذلك وحيداً وشقيّاً، يا أشنار.

وأرادَ أشنار أن يكيلَ له بالمكيالِ نفسِه فسأله:

– ألم تكتشف أنَّ عزلتَكَ تجعلكَ أنت أيضاً في وحدةٍ تامَّة؟

وكأنَّ الناسكَ كان مدركاً الجواب، فردَّ على الفور:

– أنا هنا أعيشُ في عزلتي مقتاتاً بالجذور والأعشاب، مغرقاً في التأمّل، أروّضُ جسدي، وأكتسي ثيابَ التقشّف. أنا من الناسِ الزاهدين الرافضين الذين تخلّوا عن كلِّ شيء، وتفرّغوا للعزلة. وحدتي هدوءٌ وتأمّلٌ وطمأنينة. وحدتي ليست صراعاً مع أحد، أو ضدَّ أحد. بوحدتي أقطعُ صِلَتي بالخارج، أنعطفُ نحو نفسي، أدخلُ إلى روحي، وفيها أعيش.

أنت يا أشنار، كالشمس في مطلعها لا تزال في بداية الطريق، ولأنَّك كذلك، فالخياراتُ كلُّها متاحةٌ لك، مفتوحةٌ أمامك. وأمّا أنا، خلافاً لك، فقد حسمتُ خياري.

– وماذا اخترتَ؟

– اخترتُ اليقين... إذاً الموتَ الهادئ.

– وما الخيار الآخر؟

– الحياة.

– الحياة؟ قال أشنار متعجّباً.

– الحياةُ هي أنت في مستهلِّ الطريق، ستخبط فيها فوراً غافلاً غاشماً وجاهلاً ما قد يعترضكَ مِن مزالقَ وفخاخٍ وغرائبَ ومخاطر، وكلُّ ذلك بسببِ سعيكَ إلى هدفٍ غبيّ مستحيل، وربّما مشؤوم قاتم.

– أهذا ما يقلقك، ويجعلك بعيداً عنّي، كارهاً لطريقي، وربما لي؟!

– الشهوةُ تُقلِق... دائماً تُقلق... فمنذ عشر سنوات، وأنا أعيشُ هنا وحدي. وقد نجحتُ في عزلتي، في تخديرِ العالم والطبيعة في ناظريّ، استطعتُ أن أجعلَ السهلَ دائم السكون، فلا اضطراب ولا هياج، والأشجارَ دائمةَ التعرّي فلا أوراق ولا أزهار ولا ثمار. وها أنتَ الآن تفاجئُني، حاملاً معكَ هذا الشيءَ الساحرَ الجذّاب، الشهوة المتمادية والبريئة. فإذا بالعالَمِ والطبيعةِ اللذَين كانا مخدَّرين في ناظريَّ يتنفّسان أمام ناظرَيك، وتدبُّ في أوصالِهما الحركةُ والحياةُ مِن جديد، وإذا...

قالَ أشنار مقاطعاً:

– لقد رأيتُ في اليونان إسبرطيين يمتطون جيادَهم، عابرين، والعَرَقُ يتصبَّبُ مِنهم. ورأيتُ أحدَ الصبيةِ الصغارِ يأتيهم بالماء في إناءٍ ليبرِّدَ غليلَهم، فيتلقَّفونه مِنه، ويُريقونه على الأرضِ مِن دونِ أن يكلِّفوا أنفسَهم عناءَ الالتفاتِ إلى الصبيّ الصغير. كانت أنظارُهم تتَّجهُ نحو الأفق، وكانت الشمسُ تلمعُ على خوذِهم بحيث يُهيَّأ للناظرِ إليهم أنَّهم يطاردونَها، وأنَّ بريقَها لن ينطفئَ أبداً ما دامت جيادهم مسروجة، وما داموا عطاشاً يواصلون السيرَ وعيونُهم مشدودةٌ إلى فوق. المشهدُ هذا أثارَ في نفسي شعورَين متناقضَين حيال الإسبرطيين هؤلاء: شعورٌ بالنفورِ مِنهم، وآخرُ بالإعجابِ بِهم حَداني إلى أن أتركَ كلَّ شيءٍ وأتبعَهم.

قالَ الناسكُ معلِّقاً على كلامِ أشنار:

– ما مِن مكانٍ في عالمِ الأوهامِ هذا يقودُ إلى الأفق.

ثمّ أضاف:

– أنا قتلتُ هذا العالمَ في عينيّ، ولا أفتِّشُ عن راحتي وسلامي إلّا خارجه. أفتِّشُ عنهما في روحي، في حياتي الداخليَّة.

– أنت قتلتَ كلَّ شيء... حتى روحَك، يبدو أنَّك جفَّفتَها مِن الجذور. أمّا أنا فسأبقى ثابتاً في موقفي، جادّاً في إنقاذِ الحقيقة حيث هي. إنَّ وهجَها الممغنطَ بسنائِها وبهائِها يجتذبُ دمي ويستدعيه. فسأجعلُ بهاءَها يتألَّق... سأغسِلُ بالنارِ المتصاعدةِ مِن بلّورِها حدقتَي عينيّ.

أُصيبَ الناسكُ بالذهول، فقالَ لأشنار:

– ما أمسَّ حاجتك إلى سكونِ الروح! يا لعَجَبي! تهجرُ واقعَ بطولةِ الأولمب، وتتعلَّمُ منطقَ الأكاديميا، وتزهدُ بالمُلك، وتكبتُ فؤادَكَ، لتبحثَ لاهثاً إثرَ الحقيقةِ المُطلقة، هدفِكَ الأوحَد!

الاختيارُ يا أشنار، مآلُهُ الحرمان ممّا بقي بعد الاختيار. وها أنتَ ترسمُ الطريقَ وتختارُ التوجُّهَ إلى الحقيقةِ المُطلقة وتمتطي جوادَكَ وتندفعُ محدِّقاً بنورِ الشمسِ الساطع، ولا تُبالي بجمالِ الطبيعة الذي يُحيطُ بك، وبروعةِ الأشياءِ التي على يمينِك ويسارِك.

أمّا بعد، فمَن غَرَفَ مِن مناهلِ أفلاطون فعليه أن يعلمَ هذا جيِّداً:

لا يُدرِك الحقيقةَ مَن يغفلُ ويتجاهَلُ ما يُحيطُ به أو يدورُ حولَه.

لا يُدرِكُ الحقيقةَ مَن يُهمِل سِحرَ الألوانِ وجمالَ كائناتِ الأرضِ وعظمةَ الماءِ والسماء، ولا يرى النورَ مَن لا يُدرِك الظلام عندما يحيطُ به.

فعلَّقَ أشنار بقولِه:

– لعلّي لن أعدمَه في ما بقي لي مِن عمل. وقد يكون هو الذي يُبقي عينيَّ منفتحَتَين.

وبتعليقِه هذا أنهى الحوارَ ونهضَ مودِّعاً.

فوقفَ الناسكُ عندَ ذاك، وقال:

– وداعاً، يا أمير! طريقُك مِن هنا، وكان يشيرُ بيدِه نحو الشرق.

بابل والتجربة الجديدة

الطريقُ إلى بابل طويلة، تتعرَّجُ وفقَ تضاريس الجبالِ والسفوحِ والسهول، ووفقَ منحنياتِ الروح، والرغبةِ في ضبطِ السير على إيقاعٍ بطيءٍ أو سريع.

وبابل ليست قريبةً إلّا في يقظةِ أشنار. اتّجهَ شرقاً. كان يلاقي الشمسَ قبل شروقِها، ويودِّعُها عند غروبِها، ويمضي كأنَّه السهم منطلقاً من قوسِ راميه ولمّا يبلغ الهدفَ بعد.

كان عندما يشعرُ بالجوعِ يقتاتُ بالأمَل. وعندما يهدُّه العطشُ يرتوي بالوعد. قاسى حتى كاد غيرَ مرَّة يسقطُ عن جواده. وفيما كان يبحثُ عن موطئِ راحةٍ ظليل، رأى دخاناً يتصاعدُ كثيفاً مِن سهلٍ بعيد، فأطلقَ العنانَ لجوادِه ممنّياً النفسَ بوجودِ حياة هناك.

وبلغَ السهل، فإذا به أمام موقدٍ أُضرِمَتْ فيه النار، وامرأةٍ عجوز مشغولة بتقميرِ العجينِ. كانت تبدو أشبهَ بكتلةٍ سوداء فُتِحَتْ مِنها كوّةٌ صغيرةٌ مستديرةٌ أطلَّت منها جبهةٌ عريضةٌ كثيرةُ الغضون، وعينان ضامرتان، وخصلةُ شعرٍ رماديَّةٌ تمرَّدَت على الوشاح. قدَّر مِن جلستِها، وظهرِها الآخذِ بالتقوّس، أنَّها أطلَّت على نهاياتِ العقدِ السادسِ مِن العمر، ولاحظَ عندما حيَّاها وفتَحَتْ فاها لتردَّ التحيَّة أنَّ أسنانَها فُقِدَت إلّا القليل.

نظرتْ إليه بحنانِ الأمّ، وقالت:

– يبدو التعبُ واضحاً عليكَ. ترجَّلْ يا بنيّ، أنتَ بحاجةٍ إلى راحةٍ وغذاء. وجهُك شاحبٌ يشوبُه الذبول.

ترجَّلَ أشنار، وربطَ جوادَه بجذعِ إحدى الأشجار، وهو يقول:

– رغيفٌ واحدٌ يكفيني.

ثمَّ دنا من السيدةِ العجوز مصافحاً، فصافحَته بيَدٍ، وناولَتْه بالأخرى رغيفاً يتوهَّجُ فيه لونُ الشبَع. أخَذَهُ مِنها باسِماً، ودهَنَهُ بقليلٍ مِن الزيت، وطفقَ يلتهمُه بنَهمٍ شديد. قال، وقد بدأتْ تلوحُ

على محيَّاه علامات الارتياح:

– شكراً، يا سيِّدتي. لن أنسى جميلَكِ ما حييت. وإذا كُتِبَ لي في مستقبلِ الأيامِ أن أمرَّ مِن هنا فسأعرِّجُ عليكِ حتماً لأهديكِ نبضاً مِن الحقيقة التي سأكتشفُها هناك في حاضرةِ الحقيقة.

– ماذا؟ سألت المرأةُ باستغراب. حقيقةٌ؟ حقيقةٌ في مقابلِ رغيف؟ ما هذه المقايضة الغريبة؟!

– أهديكِ أفضل، بل أثمنَ ما في الدنيا، قالَ أشنار.

– شكراً! خذْ قسطاً مِن الراحةِ قبل أن تواصلَ الطريق.

حاولَ أشنار أن يحدِّثَها عن بابل وحاضرة الحقيقة، وعن هواجِسِه وهمومِه، إلّا أنَّها ردَّته بلطفٍ قائلة:

– اعذرني، يا بنيّ، الكلامُ لا يُطعمُ خبزاً. أنا أعملُ جادَّةً ساعاتٍ طوالاً في الحقلِ والبيتِ والمرعى كي أسدَّ رمقَ عائلتي: زوجي وأولادي. ولا يتَّسع وقتي لِما تسمِّيه العقل والحقيقة وبابل. صدِّقني، لا وقتَ لديّ لذلك. إشباع الفم وملءُ البطن أهمُّ عندي من طنينِ الكلام عن مملكة، ذكّرْني باسمِها.

– مملكةُ الحقيقة.

– مملكةُ الحقيقة، ما شأني بها؟ أنا متفرِّغَةٌ لمملكةٍ أخرى. مملكتي يا بنيّ هي عائلتي، التي تحتاجُ منّي كلّ يومٍ إلى جهدٍ وعرق. مملكتي الصغيرة تجوعُ إذا لم يتأمَّن لها الخبزُ والطعام.

أطالَ أشنار التأمّلَ في ما قالته السيدةُ العجوز، وأخذ يقارنُ بينَه وبينَها فارتسَمَت أمامه صورتان متناقضتان: صورةُ الشَّاب المتوثِّب الذي لا يهدأ ولا يستقرّ، والمتطلِّع أبداً إلى أفقٍ لا يرى سواه، وصورةُ المرأة الواقعيَّة الملتصقة بالتراب، والمتشبّثة بواجباتها الصغيرة، والتي لا حقيقة عندها خارج مهمّة إطعام أولادها، وإشباع جوعهم بوسائل القوّة للاستمرار في الحياة. ثمَّ شرعَ يتساءَل:

أيُّ حياةٍ هي هذه الحياة؟

هل كُتِبَ لهذه السيِّدة أن تعيشَ بدونِ الحقيقة؟

وكيف تعيشُ بدونِها؟

هل تنتمي إلى عالمٍ غير العالم الذي فطرتُ عليه؟

أَلَيسَتْ حياةُ هذه المرأةِ هي حقيقةَ العَيش؟

أليسَتْ حقيقتُها هي الحقيقة؟ أم حقيقةُ الحاضرة هي الحقيقة؟ لماذا بدأتُ أشَكِّكُ في الهَدَف؟

أمّا السيِّدةُ نفسُها فكانت منهمكة به تفيضُ عليه مِن عطفِها وكرَمِها واهتمامِها، ما يجعلُ مِن زيارتِه الخاطفةِ لها متنفّساً حيويّاً يساعدُه على نفضِ غبار التعبِ عنه، ويجدّدُ نشاطَه وزخمَه وصمودَه في مواجهةِ وعورة الطريق. ولم يكن يعنيها شيءٌ مِمّا قالَه مِن قريبٍ ولا مِن بعيد.

كان يهمُّها فقط أن تعرفَ مَن هو، فقالت، وهي تنكثُ الرمادَ في الموقد:

– هلّا تعرّفني بنفسِك؟

ثمَّ استدارتْ لتسمعَ الجواب.

– أنا الأميرُ أشنار، ابنُ ملِكِ بيبلوس. تركتُ مدينتي بحثاً عن ضالَّتي: الحقيقة المُطلقة. قيلَ لي إنَّها شرق مدينة بابل. وقد قطعتُ مسافةً طويلةً وشاقة، وها أنا الآن هنا في طريقي إليها.

فضحِكتْ مِن قلبِها. ما أشدَّ ما كانت تحتاجُ إلى الضحكِ! وقالت:

– إنَّ للملوكِ وأبنائِهم أطواراً غريبةً. أنتم تعيشون دائماً في وهمِ التملّكِ والسلطة. تريدون... وتريدون... وتريدون... ولا تتوقّفون أو تكفّون عن طلبِ المُستحيل. ما أتعسَكم يا معشرَ الأمراء. أما كان مِن الأجدى لكم أن تزرعوا القمحَ في ممالكِكم، والأشجارَ في حقولِكم وبساتينِكم، والحبَّ في نفوسِكم، والخيرَ في حنايا قلوبِكم؟ أما كان من الأجدى أن تكونوا خدَّاماً لشعوبِكم بَدَلاً مِن أن تخدمَكم شعوبُكم في مغامراتِكم المستحيلة؟

لم يُدركْ أشنار في البدءِ المغزى مِن ضحكةِ المرأة العجوز. ولكنَّه باتَ يُدركُ الآن أنَّ وراءَ هذه الضحكةِ فِكراً يُثيرُ الدهشةَ والاستغراب. كانَ ظَنَّها، عندما كانت تخبزُ العجينَ امرأةً تفكِّرُ بأناملها ويدَيها وحسْب، أمّا الآن فقد أخَذَتْ أسئلةٌ كثيرةٌ عنها تتزاحمُ في رأسِه وتتردَّدُ على لسانِه. سألَها:

– مَن تكونين؟

قالت:

– أنا امرأة.

فابتسمَ ابتسامةً صفراءَ يُفهَمُ مِنها أنَّه لم يكنْ ينتظر مثل هذا الجواب، ثمَّ قالَ بشيءٍ من الحدَّةِ:

– لا، لا، قولي لي مَن تكونين. واضحٌ أنَّكِ امرأة. ولكن، لستِ امرأة فقط... كلامُكِ حتماً كلامٌ مختلف.

– اسمي "كيشار".

بلى، امرأةٌ أنا، وليس غير... لم أبرح يوماً هذا المكان. تجمعُنا حالةُ عشق. لا أضجر مِنه. أُعطيه ويعطيني. هذا التراب، وتشيرُ بيدِها إلى الأرض، جزءٌ مِن عائلتي. ومملكتي تتكوَّنُ مِن بَشَرٍ يعملون، ويصنعون كلَّ يومٍ كومةً مِن السعادة. إنَّنا نغزلُ ثيابَنا، ونُعِدُّ طعامَنا، ونبني بيوتَنا، ونحرثُ حقولَنا، و... نحلمُ، ونحلمُ، عندما تراقبُنا النجوم، بصباحٍ آخر. إنَّنا، يا أشنار، نعيش، والعيشُ هو حقيقتُنا.

– وبماذا تؤمنين؟

– بالحبِّ، كلُّنا هنا نؤمنُ بالحبّ. ومَن يؤمنْ بالحبِّ يعرفْ طعمَ السعادة. الحبُّ خبزُنا الآخر، ولا نشبع مِنه.

هنا أعادَت المرأةُ إلى أشنار صورةَ مَيْسا. فارتعشَ عند ذِكرِها وكادَتْ تدخلُ في مخيِّلَتِهِ سعادةُ الحبِّ التي ذَكَرَتْها المرأة لكن شدَّ جأشَه وفكَّرَ وَوَدَّ لو يمدِّد وقوفَه، ويُطيل مكوثَه هناك أياماً ليتعرَّفَ أكثر إلى وجهٍ مِن الحقيقةِ الجديدةِ الصغيرة، حقيقة هؤلاءِ البَشر في تلك الناحية، إلّا أنَّه أدركَ أنَّه ما كان ليمرَّ بتلك الناحية، لولا المهمَّة العظيمة التي نذرَ نفسَهُ لها، فتضاءَلَ أمامَها كلُّ ما عَداها مِن مَهمّات. فشكرَ للمرأةِ ضيافتَها، وسألَ لمعجنِها أن يظلَّ عامراً بالأرغفةِ الورديَّة، وانطلقَ مِن جديد نحو الشرق.

واصَلَ أشنار رحلتَهُ عبرَ الصحاري والرمول، وبعدَ وقتٍ طال، أدرَكَ إلى واحاتٍ خصبة، واقترَبَ مِن ضِفافِ نهرِ الفُرات فيما كان الضبابُ يغشى الأرضَ ويتغلغلُ بين الأشجارِ والأعشابِ والأزهار. وفيما كانت المسافةُ تقصرُ يوماً بعد يوم، بلغَ أشنار مفترقَ طريقَين. وإذا هو واقفٌ يستكشف، تراءَتْ له مِن بَعيد جماعةٌ من الناس، ظنَّ للوهلةِ الأولى، أنَّهم أشباح، وأحسَّ كأنَّ وَهجاً يلفحُ وجهَه.

كادَ يصرخ، لكنَّه تمالَكَ نفسَهُ في اللحظةِ الأخيرة.

حقيقةُ مَن رآهُم كانت، كعَينِ الشمس، واضحة جدّاً بِحضورِهِم المادّي أمامَه، فقرَّرَ أن يُعَرِّجَ عليهم لعلَّهم يَهدونَهُ فلا يضلَّ السبيل.

ولم يلبَثْ طويلاً حتى أدرَكَهم، فإذا هم ثُلَّة مِن شبابٍ وصبايا في مقتَبَلِ العمر، حَوَّلوا الطبيعةَ إلى عُرس.

بَدَوا كأنَّهم عراةٌ يطيرون. كانوا شفَّافين كالأرواح، يطوفون بخِفَّةٍ ورشاقة، وكان هو مُنتَشياً بِهم، وبرَقصِهِم إلى حدِّ الانخطاف.

ظنَّ أنَّ ما يُشاهدهُ هو طَقسٌ خاصٌّ بِهم، أو أسلوبُهم في التعبيرِ عن مشاعرِ الحبّ.

براعتُهم في التنكُّرِ والتَّخفّي جَعَلتهُ مأخوذاً بظاهرِ الأمور، وظاهرُ ما كانوا يمارسونَه بريء.

لم يَشكّ فيهم، ولم يَرتَبْ لأمرِهِم.

فقط كان ينظرُ إليهم نظرةَ مَن يريدُ أن يعرفَ مَن هم، لأنَّه لم يرَ مِثلهم مِن قَبل.

وكان يطرحُ أسئلةً كثيرةً على نفسِهِ حولَهم، ولكنَّه لم يبلغ بأسئلتِهِ الحدَّ الذي يجعلُهُ يُشَكِّك، أو يُسيء الظنَّ بِهم.

وقد يكونُ هذا ما طَمأنَهُم إلى انطلاءِ حقيقتِهم عليه، ويَسَّرَ لهم نَصبَ الأشراكِ وطَرح الشِباكِ لاصطيادِهِ.

بادَرَهم مُحيِّياً، فَرَدّوا التحيَّةَ عَليهِ بأحسَنَ مِنها.

ثمَّ طرحَ عليهم سؤالاً، مُستَفسِراً عن الطريق التي تَتَّجِهُ نحوَ الشَرق. فتهافَتوا عَليه مُتظاهرينَ بالاهتمامِ به، وأوكَلوا أمرَهُ إلى حوريَّةٍ مِن بينِهِم تنضَحُ رِقَّة، وتَفيضُ سِحراً وأنوثة، كانوا قد تواطَأوا معَها عَليه عندما رأوه مُقبِلاً عَلَيهِم مِن بَعيد. ثمّ راحوا يواصِلون الهَرجَ والمرج، ويَعقدون حَلقاتِ الرَقص.

أمّا هي فَدَنَتْ مِنه بلطف، وأخَذَتْ بيَدِهِ هامِسةً في أذنِه: اتبَعني، يا حبيبي.

قالَتْها بنَبرَةٍ غنجة، انفَرَجَت لها شفَتاهُ عن ضِحكَةٍ صاعدةٍ مِن القلب.

لقد شَعَرَ في تلك اللحظةِ بالذّات بإحساسٍ غريب.

شيءٌ في قرارةِ نفسِهِ كان يقولُ له: اتبَعها، يا أشنار، تَقيَّدْ بِما تُمليهِ عَليكَ. الهَدَفُ الذي تُغامِرُ مِن أجلِهِ على وشكِ أن يتحقَّق.

لم يكن يعرِف أنَّها مِن عالَمٍ آخر، وأنَّ حِساباتِها غير حِساباتِه.

لم يكن يعرِف أيضاً أنَّها مفطورةٌ على الكَذب، مسكونةٌ بالرِّجس، مطبوعةٌ على الشرّ.

كانت تُمَوِّهُ حقيقتَها ببراءَةٍ خادعةٍ تَشعُّ مِن عَينيها، وابتسامةٍ رقيقةٍ تظهرُ على شفتَيها، وطلاءٍ بَرّاقٍ مِن المشاعرِ والكلامِ المعسول.

وهكذا، كان أشنار طريدةً سهلةً لها. نجَحَت في تضليلِهِ ودَفعِهِ في الطريقِ المُعاكِس.

أشارت إلى الطريقِ التي تتَّجِهُ به جنوباً نحو بابل حيث اللذَّة الجَسديَّة، بدَلاً مِن أن تشير إلى التي تتَّجِهُ شرقاً نحو حاضرةِ الحقيقة، حيث قد يتحقق الهدف.

وينتصفُ أحد النهارات وهو في الطريق. يشتدُّ الحرّ. يُصابُ بالإعياء، وتتسارعُ دقّاتُ قلبِه. يُبصرُ مغارةً على بُعدِ أمتارٍ مِنه. تبدو له الأمتارُ القليلةُ الفاصلةُ بينه وبينَها أبعدَ من صحراء وأطولَ من يومِ جوع. يَصِلُ إليها بعدَ لأْيٍ. ولكن سرعانَ ما تتحوَّلُ نسائمُها إلى ريحٍ في هبوبِها لَفحُ قَيظ، فيغادرها بعدَ استراحةٍ قصيرة. يمشي والحرارةُ تكوي جلدَه، والعرقُ يتصبَّبُ مِنه، يُحرِقُهُ العَطش، يُضنيه المَسير. تظهرُ واضحةً علاماتُ الإغماءِ عَليه، يرى كأنَّه لا يرى. تخورُ قِواه، يدورُ حولَ نفسِه، يسقطُ مغشيّاً عَليه، ولا يفيق إلّا بعدَ حين.

يتلمَّسُ جَسَدَه. أصابعُه مِن خشب. شَفتاه مِن يباس. جبينُه مِن رمل. وجهُه مِن رماد. ينهضُ مِن وهدتِه بصعوبة. يرى ماءً يلتمعُ من بَعيد. يستنفرُ قِواه بل ما بقي مِنها، ثمَّ يمتطي جوادَه المتهالك مثله، يهمزُه فيتحرَّك. يمتدُّ المدى أمامَه مِن فَراغ. يلاحظُ أنَّه كلّما اقتربَ مَن الماءِ ابتعدَ عنه الماءُ. فيكتشف أنَّه يسيرُ مِن سَرابٍ إلى سَراب.

كادَ يَيْأس. المسافةُ لا تزال طويلة. الهدفُ السامي دونه جوعٌ وعطشٌ وضعفٌ وخوف... كيف يَقوى على المستحيل؟

وفيما هو يحدّقُ في البَعيد، يلمحُ صورةَ امرأةٍ تتعرَّى أمامَ الشمس. تلفحُ الشهوةُ جَسَدَها الغضّ، فلا تستيقظ في جسَدِهِ رغبة، ولا تنعش روحَهُ متعةٌ مِن فرطِ ما يكابده ويعانيه من تعبٍ وقلقٍ وعذاب.

ثمَّ يستمرُّ في طريقِهِ غيرَ آبهٍ بسرابِ النساء، كما استمرَّ فيها من قبلُ غيرَ عابئٍ بسرابِ الماء.

صحراءُ من رمالٍ كأنَّها أبديَّةٌ مِن أشعَّةٍ حارقة. يجتازُها جوادٌ بخطواتٍ متثاقلة، حاملاً على متنِه جَسَداً تكوَّمَ على نفسِه، وأضحى عِبئاً ثقيلاً عَليه. وفيما الجوادُ يخبُّ، يستبدُّ بأشنار الإعياء مجدَّداً، فيشعرُ بدوار، ويهوي مرَّةً أخرى مَغشيّاً عَليه.

يستيقظُ من غيبوبتِه. يَفْركُ عينَيه، ثمَّ يفتحهما على مدينةٍ عظيمةِ الشأن، تلوحُ له وراءَ كثبانٍ ومنبسطاتٍ مِن الرمال. يَلتَبِسُ أمرُها عليه أولاً، ثمّ لا يلبث أن يعرفَ أنَّ الطريقَ التي سلكَها تقودُ إلى الجنائن المعلّقة. ويتيقّن، عند ذاك، أنَّ الذين التقاهم على المفترق قد ضلَّلوه، ويتكشَّفُ له أنهم لم يكونوا ملائكة كما توهَّم، بل شياطين.

لم يستطعْ اعتلاءَ صهوةِ جَوادِه، فأمسكَ بلجامِه يقودُه، وراحا يمشيان إلى أن أدرَكَهما الصباحُ وهما عند إحدى ضفَّتي النهر.

عبَّ وعبَّ ملءَ جوارِحِه كميَّةً كبيرةً من الماء، لكأنَّه يريدُ أن يُطفئَ ببعضِها عطَشَ الأيامِ الماضية، ويختَزِنَ بعضَها الآخرَ تَحسُّباً لعطشِ الأيامِ الآتية. ثمَّ رفعَ رأسَه فأبصرَ مَشهداً عجباً على الضفَّةِ الأخرى مِنَ النهر.

ها هي بابل إذاً! قال.

ها هي مدينة حمورابي ومردوخ وسنحريب ونبوخذنصَّر!

ها هي المدينةُ التي تجاورُ حاضرةَ الحقيقة. ربما!

وها هم البابليّون يخرجُ بعضُهم للاحتفاء به... فَمَن تُرى دلَّهُم عَليه؟ أهو القَدَرُ أم شخصٌ ما مِنهم عَرَفَهُ فتبِعَهُ مِن بعيدٍ راصِداً خطواته حتى وقوعِهِ في مصيدةِ الشياطين؟ أم سِحرٌ في المدينةِ نفسِها، أم سَحَرَةٌ يكشِفون سرَّ القادمين إليها مِن قريبٍ أو بعيد؟!

لم يفهم هو السبب، بل نسِي كلَّ ما كان يقدِّرُهُ ويفكِّرُ فيه، حينما أقبَلَ الناسُ عَلَيه، وأخذوا يتدافَعون للتَّرحيبِ به بمظاهر الفرَح، عاقدينَ حلقاتِ الرقصِ والغِناء، ومُطلقينَ هُتافات التهليلِ والابتهاج، تقديراً له، وتعبيراً عن إعجابِهم بجرأتِه وفروسيَّتِه ومآثرِه.

وانفتحَت أبوابُ المدينةِ له. وفي الطريقِ إليها، استقبلهُ سِحرٌ مِن الجانبَينِ تتملّاه العينُ مفاتن، وآياتِ وَشْيٍ، وشلالاتِ نور، والأذنُ حفيفَ غصون، وخريرَ ماء، وترجيعَ طيور، والأنفُ ضوعَ شذا، ودفقَ طيب، وشميمَ عطور.

شعرَ كأنَّه في ما يشبه السماء.

جنائنُ من زمرُّدٍ عالِقاتٌ في الغَمام، تصِلُ الترابَ بأشعَّةِ الشمس. سحبٌ بيضٌ تتسلّقُ زرقةَ السماء. خضرةٌ ضاحكةٌ حالمةٌ تمتدُّ في الأفق. أشجارٌ باسقاتٌ يداعِبُ أوراقَها الهواء، فتهمسُ همساً، أو تلتَفُّ خجلاً، أو تتهادى تهادياً بين الجذوع. ممرّاتٌ معشوشبةٌ تحدُّها مِن الجانبَين أحجارٌ مختلفةُ الأشكال، وتفصلُها أحواضٌ تجري فيها المياهُ رقراقةً، ثم ترتفعُ عبرَ نوافير لتتناثرَ رذاذاً على التماثيل. ينابيع دافقة، وغِياضٌ باسقة، وأطايبُ عبقة. أجواقُ عصافيرَ تحطُّ وتطير، تتنقَّلُ وتشدو، باعثةً حركةً وأنساً بالتناغم مع أجنحةِ فراشاتٍ رافلةٍ بألفِ ثوبٍ وثوب.

لم يدرِ في أيِّ محرابِ جَمالٍ يُركِّزُ بَصرَه، ولا عند أقدامِ أيِّ هيكل زهوٍ يزرعُ قلبَه. ففي بابل تحلُّ الأماني غدائرها، وتنامُ الطيوب، تتنهَّدُ العطور تنهّداتِها الغراميَّة، وتتحوَّلُ الورودُ أشعَّةً سحريَّة. فيها نفحاتُ النسيمِ شوقٌ وهُيام، وتمايلُ الأفنانِ ودَلالُها نجوى آلهة الوحي والإلهام. فيها هيكلُ السحرِ وعَرشُ الشِعر.

كلُّ شيءٍ فيها ملوَّنٌ بالعطر، ومعطَّرٌ بالألوان.

ومع اقترابِ العتمة الأولى، رافقَ أشنار مستقبِلوه إلى مكانٍ لائقٍ كانوا قد أعدّوهُ له ليرتاحَ فيه مِن عناءِ السفَرِ الطويل. ثمَّ انصرَفوا إلّا واحدةً مِن بينِهم ذات وجهٍ يقرأُ فيه الصبحُ ضوءَه، وجبهةٍ كصفحةٍ تُخفي نصّاً مكتوباً، وشفتَين تُفصحان عن كلامٍ سريٍّ شهيّ، وصَدرٍ مشرَّعٍ للقاء، وقامةٍ ممشوقةٍ تُغري بإشباعِ الشَهوة على فراشِ المَلذّات.

انتظرَتْ هناكَ حتى حلولِ الظلام، ثمَّ دخَلَتْ عَليهِ بأنوثَتِها الكاملة، وابتسامتِها اللطيفة، وقَدِّها الرشيق، ووجهِها المُضيء، وبشرتِها الناعمة، ولهفتِها الحارّة، وصوتِها الدافئ، ونظرتِها المُفعَمَة بالشهوة والإغراء.

وفيما كانتْ تقتربُ مِنه بغنجٍ ودلال، وتتغَزَّلُ به معبِّرَةً عمّا يجولُ في قلبِها مِن عواطف حيالَه، محاولةً اجتذابَه، كان هو غارِقاً في شبهِ انخطافةٍ، تتزاحَمُ وتَتَداخَلُ في مخيِّلَتِهِ الصّوَر:

صورةُ مَيْسا الجمال الذي تحسُّهُ العينُ والأذنُ والعقلُ والقلبُ والخَيال، والصوتُ الرَخيمُ الذي يُضيفُ إلى جَمالِها بُعداً لا نهايةَ له مِن الحلمِ الساحر، والقصيدة البسيطة الجميلة المؤَثِّرة والمُثيرة.

وصورَتُهُ هو مع مَيْسا تُناديه، وهي تغرسُ رأسَهُ في صَدرِها، وتُلهِبُ شَعرَهُ بأنفاسِها، وتُعانِقُه، وتُداعِبُه، وتَعتَصِرُ وَجنَتَيهِ بيَدَيها الدافئتَين، وتستسلِمُ له مُغمضَةَ العَينَيْن.

وصورتُهُ مُنسَلِخاً عنها يَنشُدُ الحقيقةَ المُطلقة.

ولم يستيقِظْ مِن انخطافِهِ إلّا على صوتِ البابليَّة الحسناء تقول:

أنا مَوقدٌ لا يُطفأ

أنا شَفَةٌ مخبوءَةٌ فيها ألفُ قبلة

أتَغاوى

أجلسُ إليك
وأُرخي ذراعي عليك
أذِقْني فنّاً مِن فنونِ حسنِك
ودَعني أُبحِرْ في عينَيك

كانت تظنُّ أنَّه لن يقوى على مقاومةِ سِحرِها، بل سيضعفُ أمامَهُ فيستسلِم. ولكنَّها فوجِئَت به يتفرَّسُ في وجهِها، ويصيح:

– لا، لا، لن أقعَ في التَّجرِبة. لن أنزلِقَ إلى اللذائذ.

لقد تركتُ حبيبتي في أفقا. تركتُها تُداوي شوقَها إليَّ ببعضِ الأمَل في عودتي إليها مُحقِّقاً هَدَفي الأسمى، لِنُعانِقَ معاً الحياةَ والعالَم، ونجمَعَ الألوهةَ التي فينا في جَسَدَينِ يتَّحِدان بحبٍّ عارم، يَنتشي مِنه القلب، ويفرَحُ به العقل، فَنَكتَمِل كِلانا في مزمورٍ خالد.

وكانت مفاجأتُها أكبر عندما أخذَ يُنشِدُ بنَبرَةٍ عالية:

أعرفُ أنَّكِ جميلةٌ
وأعرفُ مَيْسا
مَيْسا
حِكايةُ حبٍّ لا تُنسى
عيناها مكانٌ لأمواجي
وأنا البحرُ
أفزعُ إليها
أتمدَّدُ ملءَ عينيها
رقيقةٌ هي
كنسمةٍ تتنهّدُ في نَسْمَة
نهزُّ الشوقَ وما زِلنا
فلا أكبادُنا تروى
ولا أقداحُنا تفنى.

كان لكلامِ أشنار وقعٌ أليمٌ عَليها، ولكنَّ كبرياءَها جعَلها تأبى على نفسِها أن تُسَلِّم بالعجز. ففتاةٌ مِثلُها يجب ألا يقومَ أيُّ عائقٍ دونها ودون أيّ شابٍّ تُريدُه.

وهكذا قرَّرَت أن تبيتَ ليلتَها عندهُ لعلَّ وعسى...

استلقَتْ إلى جانبِهِ بجَسَدٍ يفتَرُّ عنه الرداء، وراحَتْ تُمَلِّقُهُ بحُسنِها.

وفيما كانت تستنفِدُ وسائلَها كلَّها، الوسيلةَ تلوَ الوسيلة، كان هو دائمَ التأرجُحِ بين شهوَتَين: واحدةٍ تُدْنيهِ مِنها، وأخرى تقصيهِ عنها، فيرى فيها جَسَداً يابساً منفِّراً، لا يخرج مِنه أيُّ شعاع حياة.

وفي احتدامِ الصِّراع بين الشهوَتَينِ كانت الغلبةُ دائماً لشهوةِ العقلِ على شهوةِ الجَسَد.

لبِثَتْ شيطانةُ الجِنسِ تُحاوِلُ وتُحاوِلُ حتى تملَّكَها اليأس، فأحسَّت عند ذاكَ بأنَّ عالَماً أسودَ يُطبِقُ عليها، وانتَفَضَت غاضِبة، ثمَّ خرجَت مِن غير أن تودِّعَه، مُشَيِّعةً أحلامَها، بعينَينِ دامعتَين، مكسوفةَ الخاطر، كسيرةَ القلب.

وأمّا هو فقد ظلَّ، على الرغم مِن إعيائِهِ الشديد، مؤرَّقاً، تتقاذفُه الهواجسُ والأفكار، حتى غلبَهُ النعاسُ في الهزيعِ الأخيرِ مِن الليل.

ومع إطلالةِ الفجر كان على صهوةِ جوادِهِ يُغادرُ بابل، المدينةَ المسحورة باللذَّةِ والمتعةِ والجمال.

وكان في انتظارِه شرقٌ تمتدُّ فيه الصحاري والرِّياحُ إلى مدىً مجهول.

حاضرةُ الحقيقة

كان على أشنار أن يغادرَ بابل ويعودَ مِن حيث أتى. خرجَ مِنها وفي قلبِه ندَمٌ. يفكِّرُ تارةً كيف أخطأَ تجاهَ حبِّهِ مَيْسا فيغمرُه الخجل، وتارةً يفكِّرُ بهدفِه الأسمى: حاضرةِ الحقيقة، فيجتاحُه لَبس.

همزَ جوادَه، ومضى يُسابِقُ الريح. لم يكن له مفرٌّ مِن عبورِ الصحراء مرَّةً ثانية، ولكنَّه، مستفيداً من تجربةِ العبورِ الأولى، احتاطَ هذه المرَّة للكثيرِ مِن الأمور. راحَ يختصرُ بسرعتِه المجنونة كُثبانَ الرمال الذهبيَّة.

لم يفكِّر بالراحة، بل كانت الراحة تأتيهِ عفواً، كلّما بلغَ محطّةً تضطرُّه إلى التوقّف، ولو لحين. كان يلازمُه الشعورُ بأنَّ هدفَه يتخطّى التفكيرَ في نفسِه، وبأنَّ حياتَه الشخصيةَ قد تلاشَت في مسارِ مَسعاه، وكانت كلّ مسافةٍ يجتازُها، حافزاً له لاجتيازِ مسافةٍ أخرى.

المكانُ عنده لم يكن يكتسب تسميتَه، إلّا مِن مدى دنوِّهِ مِن الهدفِ أو بُعدِهِ عنه.

انتهى إلى المفرقِ الذي كان قد انطلقَ مِنه، في الطريقِ المؤدِّية إلى بابل، فلم يتردَّد في سلوكِ الطريق الأخرى المؤدِّية إلى الشرق. وفيما كان جادّاً في سبيلِه يقودُهُ شوقُهُ لبلوغِ حاضرة الحقيقة، تراءى له مِن بعيدٍ شعاعٌ قويّ، بدا مُنبعثاً مِن غابةٍ تحتلُّ رقعةً صغيرةً على الأرض. راحَ يقتربُ مِن مَطرحِ الضوء، وكان كلّما اقتربَ أكثر، ازدادَت مساحةُ الغابةِ اتِّساعاً، إلى أن امَّحَت حدودُها، وهو على بُعدِ أنفاسٍ مِنها، وأخذَت تتكشَّفُ على حقيقتِها، كثيفةً متداخلةَ الأشجار، متشابكةَ الأغصان، مترامية الأطراف.

قالَ في نفسِه: "لعلَّي قابَ قوسٍ أو أدنى مِن حاضرةِ الحقيقة".

كان قد تذكَّرَ عندما رأى الضوءَ مِن بعيد، الإشعاعَ الذي حدَّثَه عنه الفيلسوفُ الإغريقي أوراكلِس في جوارِ أثينا. والآن، وهو يرى الغابةَ مِن قريب، تذكَّرَ الغابةَ العصيَّة التي وصفَها له الفيلسوفُ نفسه.

سؤالان محيّران جالا في فكرهِ أمام الغابةِ المُحكَمةِ الإقفالِ بالعاتي مِن الأشجار:

هل الغابة هذه هي الغابة السرّ؟! وهل المكان هذا هو مكان إقامةِ المستحيل؟!

وفيما هو مطرِقٌ يفكِّرُ مَليّاً في العقباتِ وكيفيَّةِ تخطّيها تساءَل: هل في الأمرِ ما يمتُّ بصلةٍ إلى الخوارق والسِحر؟!

ولكنَّه سرعان ما سيطرَ على هواجسِه وتساؤلاتِه بقوله: إنني لا أؤمن بالسحر، بل بالإرادة. السِحرُ خرافةُ الضعفاء، إيمانُ العَجزة، صلاةُ الخَمول.

لا، لا، السِحرُ ليس لغتي. وإن صحَّ ذلكَ، فكيف أتمكَّنُ إذاً مِن العبورِ إلى قلبِ الغابة؟

وهكذا انحصرَت أسئلتُه كلُّها، بسؤالينِ لا ثالثَ لهما:

مِن أين أعبرُ إلى الغابة؟ وكيف؟

وبينما كان يردِّدُ في نفسِه: ليتَ لي جواداً مُجنَّحاً فأمتطيه، وأُحلِّقُ به فوقها، أثارَ ذهولَه مشهدٌ غريبٌ حوَّلَ حلمَه واقِعاً، ومهَّدَ لمرحلةٍ جديدةٍ تُقرِّبُه مِن هدفِه.

إنَّه مشهدُ الغابةِ السحريَّةِ وقد انشطرَت إلى شَطرَين، وانشقَّ وسطُها بسحر ساحر. ممرٌّ يمتدُّ بين الأشجار العملاقة قادَ أشنار إلى سورٍ ضخم، بدا كأنَّه لا بداية له ولا نهاية، عالي الجدار، مغروسٍ في الأرضِ وملتصقٍ بحافةِ السماء.

وهناكَ وجدَ أشنار نفسَه، مرَّةً أخرى مُرغماً على التوقّف، وكاد، وهو يتخبَّطُ في حيرتِه وعجزِه، ينكفئُ ويتراجع، لولا تعليله النفسَ بحلٍّ سحريٍّ يفتحُ له كوَّةً أو باباً في الجدارِ الضيّق، كما فتحَ له مِن قبل ممرّاً في الغابةِ الكثيفة.

ولبثَ ينتظرُ عند أقدامِ السورِ فِعلَ السِحر. وفجأةً انفتحَ أمامَه بابٌ في الجدار، وشعرَ أشنار بقوَّةٍ غريبةٍ تدفعُه إلى الداخل، وتُوصِدُ البابَ وراءَه.

الأحداثُ الخارقةُ التي ساعدَته على اختراقِ الحدود المحصَّنة، جعلَته يتأكَّد أنَّه بلغَ حاضرةَ الحقيقة.

وعندما راحَ يخطو خطواتِه الأولى فيها، فوجئَ بموكبٍ يتَّجهُ نحوه، ويتوقَّفُ أمامَه، وبكهلٍ مضطرب القامة، تعبٍ، أذبَلَ السهرُ عينَيه، وأثقَلَ الإرهاقُ كتفَيه، وجَعَّدَ القلقُ جبينَه، يطلُّ مِن مقصورتِه الذهَبيَّة ليرحِّبَ به.

كان الكهلُ هذا يستبشرُ خيراً بالزائر، فلعلَّه يكون هو الفارس المُنتظر لحمايةِ الحاضرة المقدَّسة، بل هو كذلك، لأنَّ طريقَ الغابةِ وبابَ السورِ انفتحا في وجهِه، ولأنَّ ثمَّةَ نبوءَةً حول الحاضرةِ تقولُ بصفاتٍ وَجَبَ أن يتحلّى بها حافظُ الحقيقةِ، منها الفروسيَّةُ والطهارة والشجاعة، وهي كلّها متوافرة في أشنار.

وكان أشنار، في المقابل، يتوسَّمُ خيراً بالكهل فلعلَّه يكون هو دليلَه الأمين، ومُرشِدَه الصادق إلى ضالَّتِه.

العربةُ التي كانت تُقلُّ الكهلَ جعلَت أشنار يتذكَّرُ تلك التي كان يستقلُّها والدُه، وجعلَته يستنتج أنَّه ليسَ في حضرةِ رجلٍ عاديّ كسائرِ الرجال بل في حضرةِ رجلٍ عظيمٍ ذي قدرٍ وشأن. لم يكنْ منه، عندما فتحَ الكهلُ بابَ مقصورتِه وترجَّلَ مِنها، إلّا أن قفزَ عن صهوةِ جوادِه، وانطلقَ كالسَّهمِ نحوَه ليحيِّي بادرتَه، ويشكرَ استقبالَه، ويعبِّرَ عن فرحِه العظيم.

في تلك الأثناء، كان الكهل، وهو يُمعِنُ النظرَ في أشنار، الضيفِ الآتي مِن بعيد، بارتياحٍ شديدٍ وأمَلٍ كبيرٍ يقولُ في نفسِه: إنَّه لشابٌ شجاع، ووريثٌ محتملٌ وجديرٌ بحاضرةِ الحقيقة.

وكان أشنار، وهو يُمعِنُ النظرَ في الكهل، ويراقبُ ما يجري حولَه، يردِّدُ في نفسِهِ: لقد صدَقَ ظنِّي. أنا أمام رجلٍ غير عادي. وقد يكون هو نفسه ملِك الحاضرة.

وبينما كانا يتصافحان، قدَّمَ أشنار نفسَه بلهفةٍ واندفاع، قائلاً:

– أنا أشنار ابنُ مملكةِ بيبلوس الفينيقيَّة.

فرَدَّ الكهلُ مُعرِّفاً بنفسِه، ومُرحِّباً بضيفِه:

– وأنا الملِك "إردات" حافظُ حاضرةِ الحقيقة، أهلاً بكَ فيها.

ثمَّ سادَ صَمتٌ عميق، شعرَ أشنار في أثنائِه كأنَّه في حالةِ انخطاف. تهيَّأَ له أنَّه في حلم، وأنَّ الأشجارَ التي تُحيطُ به، والأسوارَ التي تزنِّرُ الحاضرة، ستَنبتُ لها أيادٍ تحملُه، وتنقلُهُ إلى قلبِ هيكلِ الحقيقة المُطلقة، فيقبض عليها في نهايةِ مشوارِه الطويل.

كان انخطافُه هذا وجهاً من وجوهِ التجلّي الروحي، ما لبثَ أن صحا مِنه، فانحنى للملكِ إجلالاً، وقال:

– أنا إنسانٌ محظوظ، وجدتُكَ في لحظةِ قلقٍ عظيم. لقد هِمتُ على وجهي أياماً طِوالاً، لم ألتقِ فيها بمُرشدٍ أو دليل. بلى، التقيتُ فقط بمَن نَصبوا لي أشراكَهم، وجعلوني أضلُّ وأتيه. وها أنَذا الآن بين يديك، فأرجو أن تهديني سواءَ السبيل.

فأجابَهُ الملكُ بصوتٍ أبويّ:

– هو القَدَر، يا بنيّ، مكتوبٌ لنا أن نلتقي. وها نحن اليومَ معاً. أنا لم أرَك أو أعرفْكَ مِن قبل، ولكنّني اكتشفتُ مذ رأيتُك، أنَّكَ إنسانٌ مختلف. نادراً ما يشردُ أحدٌ في هذه الناحية، إلّا إذا كان يقصدُ أمراً عظيماً. أبوابُ الحاضرةِ لا تُفتَح عادةً إلّا لأمثالِك، وأمثالُك لم يحضر منهم أحدٌ حتى الآن.

كانت أسئلةٌ كثيرةٌ تتدافعُ في رأسِ أشنار، فاستعجلَ طرحَها آمِلاً أن يتلقّى جواباً شافياً عن كلٍّ مِنها.

سألَ جلالتَه:

– هل هناك بالفِعلِ حاضرةٌ اسمُها حاضرةُ الحقيقةِ المُطلقة؟ أين يقعُ هيكلُ الحقيقةِ المُطلقة فيها؟ كيف هو؟ وكيف ومتى يُمكنُ دخوله؟

تَنَبَّهَ إلى وجوبِ التعبيرِ له عن عرفانِه، لِما أحاطَهُ به مِن اهتمام، فقطعَ سلسلةَ أسئلتِهِ ليشكرَ له حفاوتَه، وتابع:

– أنا أسعى إلى دخولِ هيكلِ الحقيقة. ألا تساعدني في مسعاي؟ أرجوك أن تفعل، إذا كان الأمرُ ميسوراً لكَ.

ولكنَّ الملِك، مُتجنِّباً الإجابةَ المباشرةَ، قال:

– اسمعْ، يا أشنار. لقد نسجَ الأدباء، والشعراءُ والكتَّاب، كثيراً مِن الشِعرِ والقصصِ عن الحقيقة. فما مِن مُبدعٍ أو مُلهمٍ إلّا تغنَّى بها. فهل أنتَ قادمٌ لهذا الغرض؟

– لا، لا، أجابَ أشنار. إنّني أكرهُ قصائدَ الشعراء، وحكاياتِ القصَّاصين. أنا لا أريد أن أقرأَ الحقيقةَ أو أقرأَ عنها. أنا أريدُها هي، كما الدم في جسدي، كما الروح في قلبي. لا أريدُها كلاماً ولا نصوصاً. أريدُ أن يكونَ ضوؤُها في ذاتي، حتى لو أحرقَني لهيبُه.

فقالَ الملِكُ بصوتٍ مَهيب، كأنَّه يخفِّفُ مِن ولَعِ أشنار واستعجالِه:

– البحثُ عن الحقيقة يا بنيّ، هو في منتهى الجدّية، والقبضُ عليها في منتهى الخطورة، و...

إلّا أنَّ أشنار قاطَعَهُ قائلاً:

– عِدْني يا سيّدي المَلِك، بأنَّكَ تُرافِقُني إليها لكي نواجِهَ وَهجَها معاً.

– لا، لا، يا عزيزي لن أُرافِقَك، بل لا يجوز أن أُرافِقَكَ إلى الحقيقةِ المُطلقة. الحقيقةُ المُطلقة لا تَزِفُّ نفسَها إلّا لِمَنْ يستَحِقُّها ومَن يقصدُها بوحدةٍ صافية. فبِمُفرَدِكَ قد تحقِّقُ هَدَفَك، وما سِوى ذلك مستحيل.

– سأحاولُ إذاً يا سيّدي، قالَ أشنار بإصرار.

تأكيدُ أشنار على الوصولِ إلى نهايةِ المطاف، حدا بالملِكَ إلى النزولِ عند رغبةِ الأمير، بل عند إصرارِه، على دخولِ هيكلِ الحقيقة، فدعاهُ صادقاً إلى زيارةِ قصرِه، وقال:

– ستزورُ قصري. إنَّه لقصرٌ عجيب. غير أنَّ الصمتَ المفرطَ فيه يجعلُه أشبه بسجنٍ كئيب.

– ومِن أيّ نوعٍ هو؟ سألَ أشنار متعجّباً.

– إنَّه مِن النوعِ الذي يصعبُ الوصولُ إليه إلّا على مَن ألِفَ المكان، واعتادَ التَّحايل عَليه.

– ربَّما هو أمرٌ رائعٌ أن يكونَ الإنسانُ مَلِكاً يُقيمُ في قصرٍ مُنيف. ولكنني شخصيّاً، وأنا مَن أنا، لم أهوَ قطُّ أن أسجنَ نفسي في قصر. بل آثَرْتُ أن أمتطي جوادي، وأُخيِّلَ مُنفرداً، وأحلمَ بغزوِ مملكةٍ كبيرة.

وهنا بادرَ الملِكُ إلى القول:

– المملكةُ التي نغزوها، لا تلبث هي بدورِها أن تغزونا. منذ لحظةٍ قلتُ لك: إنَّكَ حقّقتَ اكتشافاً. وها أنا الآن بدوري أُحقّقُ اكتشافي الشخصيّ: اكتشافَكَ أنت، يا أشنار. إنَّكَ تُمثّلُ الإنسانَ الساعي إلى صيرورةٍ لم يُحقّقها بَعد.

– قَدَري هو الحقيقةُ المُطلقة، قالَ أشنار، وأضافَ موضِحاً: أن أقبضَ عَليها وأمتلكَها... وليسَ لي قَدَرٌ سواه.

– وقد تراها قريباً. أنت صادفتَني هنا في هذه الحاضرة، وسطَ الغابات النائيات. يُقال: إنَّ السعادةَ لا تسعى إلى الإنسان، ولم يحدّد، في الواقع، ما أو مَن يسوقُها إلينا. لا أدري... قد يكونُ ذلك سبباً يجعلُكَ تُعيدُ النظرَ في موقفِكَ مِمّا تسمّيهِ القَدَر. هذا يعني أنكَ لا تزال فتى يافعاً. يمكنكَ أن تكونَ بمثابةِ ابنٍ لي...

قاطَعهُ أشنار:

– ولكنّ أبي لم يحبِّذ مسعاي. إنه ملِك، ويُريدُني أن أهتمَّ بشؤونِ المملكة.

– ومع ذلك جميلٌ أن يكونَ للإنسانِ ولَد، مغامِراً كانَ أو عاقّاً متمرّداً... ما هَمّ! فأنتَ فتيٌّ بهيّ. ستجلسُ عن يميني في القصرِ هذا المساء، وستُعامَلُ كأنَّكَ ابني، أي كفَردٍ مِن أفرادِ العائلة.

– بِهذا، يا مولاي، تَعِدُني بإرثٍ نفيس؟

– بإرثٍ أنتَ جَديرٌ بِه، يا بنيّ، إرثٍ تستحقُّه بفَضلِ مظهرِك، ولِما تتحلّى بِه مِن شجاعةٍ وبأس.

في هذه الأثناء أطلَّت الملكة، فقطعَ الملِكُ الحوارَ فوراً، وقال، وهو يتفحَّصُ ملامحَ أشنار:

– هي ذي سيّدةُ القصر الملكة "جُنّارة" التي ستستضيفُكَ معي هذا المساء. لم يَنفدْ لها صَبر، ولم يزمّ لها ثغر. تُداريني، وتحومُ فوقي حومَ الطائر فوق عشّه.

والتفتَ أشنار، فرآها مقبلةً في موكبٍ مهيب، تُحيطُ بها وصيفاتُها والحرَّاس، فراحَ يكحّلُ عينَيه بإشعاعِ وجهِها، وبريقِ يَدِها، ومعصَمِها، والأنامل، إلى أن وصَلَتْ وترجَّلتْ مِن هَوْدَجِها بَقدِّها الرشيق، وأخذَتْ تُسدِّدُ إليه، وإلى زوجِها نظراتِ عينَيها الساحرتَين. فوضعَ الملِكُ يَدَهُ اليسرى على كتفِ أشنار، وبادرَ الملِكةَ مُشيراً إليه بيمناه:

– هوذا أشنار، أميرُ بيبلوس، الذي سيحلُّ علينا في هذه العشيَّة، على الرُّحبِ والسَّعة، ضيفاً كريماً في القصر. فأصدري الأوامرَ ليقضي عندنا ليلتَه، ويُعامَل كفَردٍ مِن أفرادِ الأسرة.

وتوجَّه، وهو يهمُّ بالمغادرة، مِن أشنار قائلاً:

– سأراكَ مُجدَّداً بعد ساعات... حمداً لِمَن أَدينُ له بهذا اللقاء.

وفيما كان الموكبُ يبتعد، والمِلِكُ يلوِّحُ بيدَيهِ مودِّعاً، كان أشنار مشدودَ العينَين إلى الملكة، فسألتْه، وقد لاحظَتْ إعجابَهُ بِها، بصوتٍ عذبٍ كهديلِ الحَمام:

– أيروقُكَ، أيّها الأمير، قدومي الآن؟

أجابَها، مُعَبِّراً عن افتتانِهِ بِها:

– أنتِ يا سيِّدتي، آيةٌ مِن الجَمال... أنتِ في ريعانِ الصِبا... وأنا، في الواقعِ، مُصابٌ بالذهول.

قالت:

– **حقّاً؟!**

قال:

– لقد خِلتُ نفسي، وأنا أجتازُ هذه الغابات البعيدة، في مجاهل العالم. وأخذتُ أفقدُ الأملَ نهائياً، في الاهتداءِ إلى السُبُلِ المؤدّيةِ إلى الهَدَف. وإذا بي اليومَ، أحظى بلقاءَين، يبدو أنَّهما أشبه بالشمس التي تشرقُ فجراً، مبدِّدةً ظلمة الغابات، فيستيقظُ الناس، وتتَّسِعُ الأرض، ويغمُرُ النفوسَ الفرح. كلُّ ما كان عصيّاً بعيدَ المَنالِ بدا فجأةً مُمكناً قريباً بل مرجَّحَ المَنال... إنَّ ما حصل، في الواقع، لأشبَهُ بفأل...

سألَتْ:

– ولكن، هل فألُكَ هذا فألٌ سعيد؟

فأجاب:

– نعم، سعيد. وأنا متأكدٌ مِن ذلكَ تماماً، كما أني متأكِّدٌ مِن وجودي هنا معكِ وجهاً لِوجه.

ويسودُ صمتٌ طويلٌ يقطعُهُ أشنار متغزِّلاً بِها:

– وجهُكِ، يا سيِّدَتي، مُضيء، وفي عَينَيكِ بريقٌ جاذب. كلّما زدتُكِ نَظراً، ازدَدْتُ إعجاباً بك، وانزاحَ وتبدَّدَ كلُّ ما حلَّ بي مِن تَعَبٍ وعناء.

أتصوَّرُ أنَّ القصرَ الذي تُقيمينَ فيه في منتهى الروعة، بل يجب أن يكونَ كذلك، لمجرَّد أنَّكِ تُقيمينَ فيه، وأنا أنتظر، بفارغِ الصَبر أن أوافيكِ إليه.

فابتَسَمَت له ابتسامةً عريضة، ثمَّ قالت، وقد ارتَسَمَت على خَدَّيها غمّازتان حلوتان:

– ونحنُ أيضاً، ننتظرُكَ هناك ف...

وقبل أن تُكملَ كلامَها قاطعَها مُستدرِكاً:

– ولكن يتعذَّرُ عليّ البقاءُ لديكم... فأنا لا يمكنني التوقُّفُ في أيِّ مكان. ومِن المفروضِ عليّ أن أدأبَ في البحثِ عن الحقيقة... إلّا أنني، على الرّغمِ مِن كلِّ ذلك، أشعُر، ولستُ أدري لماذا، وكيف، برغبةٍ في الاستراحة، ولو قليلاً، هذا المساء.

– بل ما أنتَ جادٌّ في البحثِ عنه، يا أشنار، ينطوي في ذاتِه على راحةٍ واسعة لا تحدّها حدود. يُقال: إنَّ بلّور الحقيقةِ يشفي من كلِّ قلق... وعلينا حتى نظفرَ به، أن نستمرَّ في التأمّلِ والمقاومةِ والكِفاح.

كان يخشى أشنار أن ينتهي اللقاءُ بالملكةِ من دونِ أن يعرفَ شيئاً عن حياتِها الخاصة، فوجَّهَ الحِوارَ في اتجاهٍ آخر، قال:

– هل تقضينَ حياتَكِ وحيدةً مع الملِكِ في القصر؟

– لا، فكثيرون هم الذين يحيطون بنا: الجنود والمقاتلون والخدّام. القصر يا عزيزي، يتَّسعُ لنا، ولهؤلاءِ جميعاً، فهو كبيرٌ كبير.

– لكنَّ جلالته يفوقُكِ سِنّاً، ويبدو عليه العياء والتعب، وكأنَّه يعاني مرضاً ما. أنتِ تتولّين العنايةَ به، أليس كذلك؟ مِن سوءِ طالعِه هو أن يكونَ مريضاً، ومِن سوءِ طالعِك أنت، مع ما أنتِ عَليه مِن سحرٍ وجمال، أن تقبعي إلى جانبِه منعزلةً وحيدة. حياةٌ كهذه هي بالفعلِ حياةٌ حزينة.

– الحقيقةُ يا أشنار، تُضاعِفُ عندنا جذوةَ الحبِّ المجرَّد، وتقوّي قدرتَنا على التضحيةِ إلى حدِّ التضحية بالذات. إنها تزيدُ اندفاعاتِنا إلى العطاءِ مِن دونِ مِنَّةٍ أو مُقابل. توقظُ في أعماقِنا الشغفَ واللهفَ إلى المطارح السامية. كما تُشعِلُ فينا لذّةَ الاكتشافِ للخلق، وتُلهِبُ في صدورِنا الشهوةَ الدائمةَ إلى معانقةِ الجَمال المُطلق والخيرِ والحق.

فسألَ أشنار، وكأنَّه يعترفُ ضمناً بوهنِ قوَّتِه، وإعياءِ جسدِه، وتلاشي مبادرتِه:

– وماذا لو كان هناك ما هو أشدُّ وأدهى؟

– المرضُ الأخطر، يا عزيزي، هو ما يهدُّ عزيمةَ الإنسان، ويشلُّ قدرتَهُ وإرادتَه، ويعوقُه عن سعيِه، وينالُ مِن طموحِه، ويضعضعُ عقلَه ووعيَه وإدراكَه.

– حقّاً، إنّ أمرَ الملكِ لغريب! فهو، رغمَ ما يشوبُه مِن سقم، يخرجُ لممارسةِ هواية الصيد المشوّقة. وجهُهُ بالغُ الشحوب، ومع ذلك يتكلّمُ بصوتٍ في منتهى الدقَّة والوضوح، وحين تسمعُهُ متكلّماً، تخالُ الصوتَ آتياً مِن عالَمٍ آخر.

– لعلَّ ما تتقدَّمُ به يا أشنار، دليلٌ قاطعٌ على عظمةِ الحقيقة وروعةِ ما توفّرُه لِحافِظِها، مِن طاقاتٍ تفوقُ التصوّر، وقدراتٍ تلامِسُ الإبداع.

ولكنَّ أشنار، مُصرّاً على معرفةِ المزيد مِن المعطيات، وراغِباً في تحريكِ مشاعرها، أجاب:

– أستحلِفُكِ بالآلهة أن تقولي لي: هل تقومين أنتِ بنفسِك، بمساعدتِه في كلِّ ما يتَّصلُ بقضاءِ حاجاتِه اليوميَّة؟ هل أنتِ تغسلينَهُ بيدَيكِ البيضاوين الناعمتين هاتين؟ لا شكَّ في أنَّكِ، بالنسبةِ إليه، مِثال الزوجةِ الطيّبةِ الصابرة. إنَّك، يا سيدتي، مثال الإخلاص والتفاني والوفاء.

– ليس الأمر كما تتصوَّر إلى هذه الدرجةِ مِن السوء. لا، ليس شاقّاً إلى هذا الحدّ. علَّةُ الملِك لا تدعو إلى الخوفِ والهلع. علَّتُه تختلفُ عن سِواها، ولا تستدعي أيَّ قلقٍ واهتمام.

ركَّزت الملكةُ في ردِّها هذا على طمأنةِ أشنار وراحَت تُهدِّئ مِن روعِه، كي تُبعِدَ عنه الشَّكَّ والتردُّد، في تشبُّثِه بتولّي المحافظة على هيكلِ الحقيقةِ المُطلقة. ركَّزت على التقليلِ مِن أهمّيةِ مرضِ الملِك، لأنَّها ترى في الفارسِ الشَّاب، خشبةَ خلاصِ مَليكِها، لأنَّه قد يُصبحُ هو البديلَ في التربُّعِ على عرشِ مملكةِ الحقيقة.

– أحاولُ، أردفَ الفارسُ المفتون، أن أتقبَّلَ وأتفهَّمَ ما تتفضَّلينَ به مِن تفسيرات، ولكن أتمنّى لو أعرف ماهيّةَ علَّةِ الملِك.

– دعنا يا عزيزي، لا نُطيل الحديثَ عن الملِكِ والتفكير في حالِه، لندعهُ وشأنه، و...

وقبل أن تُكملَ جوابَها، تحرَّكَ الموكب. وبهذا انتهى الوقت، ولم ينتهِ الحديثُ بين الملكة وأشنار. فودَّعَته مؤكِّدةً أنَّ للحديثِ صلة، وافترقا على أملِ اللقاء القريب.

حلَّ المساءُ فتوجَّهَ أشنار إلى القصرِ تلبيةً لدعوةِ سيِّد القصر.

دخلَ الأميرُ ليستقبلَهُ سكونٌ مُطبقٌ وهدوءٌ مريب. ما هذا الاستقبال الغريب، تساءَلَ قائلاً في نفسِه: هل هو سكونُ ما قبل العاصفة؟ ترقَّبتُ أن يكونَ القصرُ ضاجّاً بصخبِ الحضور وضوضائِهم. هل الهدوءُ ينطوي في ثناياه على كآبةٍ تقبضُ على القلوب، وألَمٍ يحفرُ عميقاً في بنيةِ الحجر والبشر؟ هل ثمَّة ضبابية محيِّرة، تُضفي أجواء مِن الحزن والأسى تفوحُ منها روائحُ العذاب والوجع، بانتظارِ الفرج والانعتاق؟

هنا يبدو الأنسُ مفقوداً، والحركةُ متوقفة، والحياةُ متجمّدة. تخالُ القصرَ مهجوراً، على الرغمِ مِن وجودِ حافظ الحاضرة وحافظتها فيه. حتى الظهورُ المتقطِّعُ لبعضِ الحرّاس، وقيامُ عددٍ مِن الخدّامِ بالأعمالِ الروتينيَّة، لم يمسحا عن جدرانِ القصر، علاماتِ الأسى، وملامحَ اليأسِ المُسيطرِ في أرجائِه. فالجوُّ مضطربٌ تُلبِّدُه غيومُ الصمتِ المريب. لا صوتَ يُسمَع، سوى خفقِ أجنحةِ بعض الطيور الليليَّة العابرة، وحشرجاتٍ تتسلَّلُ بين الحينِ والآخر عبرَ الغابةِ الوارفة، التي انشطرَت ليمرَّ عبرها أشنار.

كم هي ثقيلةٌ وطأةُ هذا الليلِ المهيب؟ كم هو حادٌ وقعُه؟ أأنا في داخلِ صومعةِ متصوِّف، أو خليَّةِ ناسكٍ هجَرَتها مباهِجُ الدنيا ومَسرّاتُها؟ أم أنا في قصرٍ يُفتَرَضُ أن يكونَ نابِضاً بالحياة، وضاجّاً بالفرحِ والزهوِ والمرح؟

اعتقدتُ، قالَ أشنار، أنَّه حيث توجدُ الحقيقة، تتبَدَّدُ الظلمة، ويُشرِقُ الضوء، وتتفتَّحُ براعمُ العمر. حيث توجدُ الحقيقة يدوِّي الفرحُ في كلِّ صوب. يطلُّ الخيرُ زاخِراً. يظهرُ الأملُ وضَّاءً،

وتسودُ السعادةُ وراحةُ البال. لماذا المللُ يُلاحقُني، والسأمُ يُلازمني، والقلقُ يغمرني، والأرقُ يرافقُني؟

أيصحُّ أن يكونَ ما بذلتُ مِن جهود، وتَكَبَّدتُ مِن عناءٍ ومشقّة، سعياً إلى حاضرةِ الحقيقة، قد ذهبَ هباءً مِن دونِ فائدة أو نتيجة؟ أوَيُعقَلُ ألّا تكون الحقيقةُ بِرّاً وسلاماً؟ أويُعقلُ أن تكونَ صراعاً مريراً بين الذاتِ والمحيط، ينهكُ العقلَ ويتلفُ الجسد؟

دارَت هذه الأفكارُ والتساؤلات في رأسِ أشنار، الذي بدأ يتوجَّسُ خيبةً قاسيةً قد تكونُ بانتظارِه.

تابعَ الضيفُ توغُّله نحو الداخل، حتى فاجأته الخادمةُ باستقبالٍ حافلٍ باللطفِ والبشاشة، كما أوصاها الملِك. ثم صحبَتهُ إلى حيث ينتظر حتى يحين موعدُ العشاء.

وبينما هو مُستلقٍ في الغرفةِ على مقعدٍ وثير، يرتشفُ ما أُعِدَّ له من شراب، انفرجَ الباب، ودخلتْ عليه فتاةٌ ساحرة، ترتدي فستاناً يلائِمُ قدَّها ولونَ بشرتِها، مشدوداً إلى جسدِها كالمطّاط، تنطلقُ مِنه ذِراعاها وساقاها بلا حرج ناطقةً بالإغراء. بادَرَته بالتحيَّة، وشفعَت تحيَّتَها بتقديمِ نفسِها إليه. كانت كريمة الملِكِ المُضيف، وقد جاءَت ملبّيةً رغبةَ أمِّها إليها في التعرُّفِ إلى الضيفِ.

وفيما كانا يتجاملان، سمعَ أشنار وقعَ خطواتٍ في محيطِ الغرفة، ولمحَ مِن خلالِ البابِ المنفتحِ نصف انفتاحة، الملكةَ عابرة، فرأى في مرورِها العابرِ سانحةً لإشباعِ فضولِه.

سألَ الفتاةَ بلطفٍ، غير كاتمٍ استغرابه:

– يبدو أنَّ فارقَ العمرِ بين جلالتِهما كبير، بل كبيرٌ جدّاً.

– لا، لا، أجابَته على الفور. ثمَّ أردَفَت مؤكِّدة: إنهما مِن مواليدِ العامِ نفسِه.

واستوضَحَ مِن جديد:

– ولماذا إذاً يبدو هو كأنَّه شيخٌ عجوز، وتبدو هي كأنَّها ابنتُه أو حفيدتُه؟

فأوضَحَتْ معلِّلَة:

– لأنَّ مِن واجبِه أن يفتحَ هيكلَ الحقيقة، مرَّةً في الشهر، ولأنَّه كلّما فتحَه مرَّةً ازدادَ عمرُه أشهراً. وهكذا أخذَت معالمُ الشيخوخةِ المُبكرةِ تظهرُ عليه، وتصبحُ مع توالي الأيام أوضح وأظهر.

صمتَ أشنار قليلاً، ووضعَ سَبّابَتَه على صدغِه، وقال:

– أفهمُ مِن تفسيرِكِ هذا، أنَّ الحقيقةَ تجرُّ على حارسِها الكثيرَ مِن المصائب والويلات، وأنَّها تعبرُ به بسرعةٍ قياسيَّةٍ نحو الشيخوخةِ متخطِّيةً ربيعَ عمرِه وصيفَهُ، ومختزلةً حياته، بَدلاً مِن أن تُعزِّزَ فتوَّتَه، وتضخَّ في عروقِهِ نضارةَ الشباب، وصلابةَ الرجولة.

وأخذَ يتذكَّرُ في هذه اللحظةِ، ما تخلَّلَ حوارَ الملكةِ معه منذ قليلٍ مِن إثناءٍ على الحقيقةِ المُطلقة، وتأثيرِها الإيجابيّ في سلوكِ حارسِها، ومسارِ حياته، وبدأ يُشَكِّكُ في نيَّتِها وغرضِها مِن تجاوزِ كلّ

ما ينفّرُه مِن الحقيقة، وتركيزها فقط على جانبِها المُضيء.

وفيما كانا يهمّان بمواصلةِ الحوار، وافاهُما الملِك، ودعاهُما إلى مائدتِه مُحلّاً أشنار عن يمينِه تعبيراً عن فرَحِه العارمِ به، ومُمطِراً إيّاه، مبالغةً في تكريمِه، بسَيلٍ مِن عباراتِ الأنسِ والتودُّد، فيها عبقٌ مِن المحبَّة والصِدق.

كانوا إلى المائدةِ أربعة، وكانت المائدةُ المبسوطةُ لهم عامرةً بأصنافِ المآكل الشهيَّة، وكافيةً لإطعامِ أربعين.

أخذَ جلالتُه يتحدَّثُ إلى الضيْف. أمّا الملكةُ فكانت تتدخَّلُ ناقلةً الحِوارَ إلى موضوعٍ آخر،كلّما تهيَّأ لها أنَّه سينزَلِقُ إلى الكلامِ عن تجربتِهِ المرَّة مع الحقيقةِ المُطلقة.

كلُّ همّها كان تعزيزَ معنويّاتِ أشنار، وتشجيعَهُ على الثبات، والنأيَ به عن كلِّ ما يَثنيه أو يُحبِطهُ ويثبِّط عزيمتَه.

شيخوخةُ الزوجِ المُبكرةُ حوَّلَتْ قلبَ الزوجةِ بركاناً جعلَتْهُ ينفطر عليه. وشبابُ أشنار وحماستُهُ الظاهرةُ كانا مَبعثاً للأمَلِ فيها مِن جديد بمغامرٍ متهوِّر، يُنقِذُ زوجَها، إنْ خلَفَهُ في حِراسةِ هيكل الحقيقة، مِن العذابِ الذي يُعانيه، وينتشِلُهُ مِنَ الأتون الذي زجَّ نفسَهُ فيه.

كان الملِكُ مُنهكاً مِن رحلةِ الصيدِ في النهار، ودلائلُ ذلك لا تزالُ ظاهرةً عَليه، يقرأُها الناظرُ إليه في شحوبِ وجهِهِ وذبولِ عينَيه. ازدرَدَ لقمتَهُ الأخيرة، واستأذنَ ضيفَه، فهبَّتْ زوجتُهُ وكريمتُهُ تساعدانِه، على جرّ جسَدِهِ الثقيلِ إلى جناحِهِ الخاص. أمّا أشنار، فقد قادَتْهُ الخادمةُ إلى غرفةٍ سُوِّيَتْ خصِّيصاً له في جناحٍ آخر. كان مُقرَّراً أن يبيتَ ليلتَهُ هناك. وفي الهزيعِ الثالثِ مِن الليل، وفيما كان الملِكُ يغطُّ في نومٍ عميق، والملِكةُ إلى جانِبِه، كان أشنار يسترجِعُ طيفَ مَيْسا مُنجَذِباً إليها، ويحلمُ بها تنسَلُّ بقامتِها الهيفاء، إلى غرفتِهِ ضِمنَ دائرةٍ نورانيَّةٍ ساحرة. فيتحسَّسُ وجودَها، هي التي لا يزال صوتها يتناغم في أذنَيه، وحركات غنجِها ماثلة أمامَ عينَيه.

لم يذقْ أشنار طعمَ النومِ إلّا لِماماً. كان دائمَ التفكيرِ في الغدِ تؤرِّقُهُ هواجسُه، وكان قلبُه لفَرطِ لهفتِه، وشدَّةِ تهيّبِه، دائمَ الخفقان.

ومع الصباحِ، تعمَّدَ أشنار مقابلةَ الملِك، قبل أن يسيرَ إلى قَدَرِه. وفيما كان الملِكُ يهمُّ بالخروج، استوقفَه أشنار برفقٍ وتودُّدٍ ليقول:

– آثرتَ يا سيّدي، ألّا ترافقني إلى هيكلِ الحقيقة، بحجَّةِ أنَّ هدفي لن يتحقّق إلّا بمفردي، وما سوى ذلك مستحيل. أسألُكَ مرَّةً بعد، وأنا أهمُّ بالتوجُّهِ إليه، أما زلتَ على موقفِكَ الرافض مرافقتي إلى هناك سيِّدي؟

فأجابَه مُوضِحاً:

– سبَقَ يا أشنار أن قلتُ لك، علينا أن نبدأ كصديقَين. وصداقتُنا حدثَتْ وسطَ تقاطعِ طرقٍ بيننا. أما موقفي الرافض فجاءَ نتيجةَ رغبةٍ منّي، في أن أتركَ لكَ حريَّةَ التحرّكِ واستقلاليّةَ القرار.

رفضتُ مرافقتَك حينها، لأنّني، بشيءٍ مِن حبِّ الذات، كي لا أقول مِن الأنانية، لم أكنْ لأكشفَ لك، عن خطورةِ ما قد تصل إليه، وما كان ينتظرك مِن آلامٍ وعذابات. لِذا دعوتُكَ إلى زيارةِ القصرِ العجيب، الذي يجعل منه الصمتُ المفرط سجناً كئيباً. بكلِّ تأكيدٍ أحسستَ بهذا حين قمتَ بالزيارة. وربما قلتَ في نفسكَ ها أنذا آتٍ إلى هنا لأنفِّذ حُكماً بالسَّجنِ مِن دون أن أقترفَ ما يستوجبُه!

ثمَّ أردفَ مؤَكِّداً:

– أمّا بعدَ أن دقَّت ساعةُ الاستحقاق، فأعِدُكَ بأنّني سأكون في انتظارِكَ أمام باب الهيكلِ حيث نستكملُ الحوار.

بعد ذلك جلسَ أشنار بعض الوقت، غائصاً في تفكيرٍ عميق، ومستعيداً في لحظاتٍ دقائقَ مغامرتِه. وراحَ يتهيّأ مليّاً للقاء المِلِكِ أمام مدخلِ الهيكل.

مشى أشنار إلى المحطةِ الأخيرة. كان الهيكل في وسط الحاضرة، فسلكَ إليه نزولاً درباً مقفراً يلفُّ القصر.

عند وصولِه، كان المِلِك، كما وعدَه، في انتظارِه أمام الهيكل، حيث تصافَحا بحرارة، ثمَّ اتَّكأ المِلِكُ بكوعِه على البابِ، ونظرَ إلى أشنار مِن طرفِ عينَيه، وقال:

– إنَّكَ، يا بنيّ، لا ترى مِن الحقيقةِ المُطلقة سِوى إشعاعها الظاهر. وهي، في جوهرِها، أبعدُ مِن كلِّ مَظهرٍ خارجيٍّ خادع. إنّها تجرح. إنّها تُدمي وتكوي وتؤلم. والذي يعيشُها كاملةً، بوجودِها كلِّه، يُصابُ بالتآكل. فهي نفسُها تأكلُ مِنه مستأصلةً كلّ ما هو غير حقيقيّ فيه. ابنُ آدم، يا عزيزي، مجبول، لا بالماءِ والترابِ وحسبْ، بل بالتُرّهاتِ والأكاذيب أيضاً...

وأضاف:

– اسمَعني يا أشنار، وخصوصاً أنَّكَ تتهيَّأُ لاعتلاءِ العرش الذي أضناني، وأدماني، وسرقَ منّي أجملَ سنواتِ العمر.

إنَّ كلَّ ما اختزنْتُهُ طوال حياتي كان وَهماً نسَجَتهُ مُخيِّلتي، أو حقيقةً مؤلمةً اكتشَفتُها بنفسي، أو داءً عُضالاً ألمَّ بي، فمزَّقَني، وكان عليَّ أن أتأقلمَ بإرادتي معه. غالباً ما نحبُّ يا عزيزي، ويخطفُنا الحبُّ إلى الوهم!

اسألْ نفسَك: ما الأجمَل؟ الحقيقةُ أم الكذبُ والأقنعةُ والأوهام؟

ألا ترى أنَّ الكذبَ يُجَمِّلُ أحياناً كثيرةً حقيقتنا؟

ألا ترى أنَّه يناسبُنا، لأنَّه يُحاكي غرائزَنا وطموحاتِنا ويدغدغُ فينا المشاعر؟

ألا ترى أنَّ الأقنعةَ تسترُ وراء لَمَعانِها وجوهَنا، وتُجنِّبُنا تحمّل حقيقة هذه الوجوه، بما فيها مِن نتانَةٍ وبشاعة؟!

الأكاذيبُ والأقنعة، يا عزيزي، تبدو جميلة برّاقة، تُريحُ القلبَ والعينَ والأعصاب. وقد اختُرِعَت لتغطّي حقيقتَنا، وتحجبَها لوقتٍ يطولُ أو يقصرُ تبعاً لانكشافِ هذه، وسقوطِ تلك عن الوجوه.

وتنَفَّسَ الصُعداءَ، فهَمَّ أشنار بالكلام، لكنَّه طلبَ مِنه الإصغاءَ فقط، والكفَّ عن طرحِ أي سؤالٍ إفساحاً له في المَجالِ لإفراغِ كلّ ما في جعبتِه، ثمَّ أطرَقَ للحظات، وتابعَ قائلاً:

– سَلْ نفسَكَ يا أشنار.

هل يستمرُّ مَن يُحبُّ الآخر في محبَّتِهِ له إذا اكتشفَ الحقيقة التي حَجَبَها عنه لسنوات؟

طبعاً لا! لأنَّ الإنسان بطبيعتِهِ، يعيشُ مع صورٍ زائفة، مموَّهةٍ ومشوَّهة، بعيدةٍ عن الصورِ الحقيقيَّة، كما يعيشُ أيضاً مع رجعِ أصداءٍ لأصواتٍ، ليست هي الأصواتَ الحقيقيّة.

أنا، يا بنيَّ، أودُّ اليومَ أن أنزفَ مِن عينيّ بقدرِ ما أنزفُ مِن صدري. أودُّ أن أبكي وأبكي لتفيضَ دموعي أنهاراً لعلَّي أُطفئ بها ما في داخلي من حقائقَ مُحرِقة.

أنتَ، ولا شكّ، تحسدُني لأنني قَيِّمٌ على هيكلِ الحقيقة، أتولّى حِراستَه. ولكن صدِّقني، أنا رجلٌ نادمٌ ينهشُهُ النَدَم، مُتعَبٌ ينهكُهُ ويهدُّ كيانَهُ التعب، قَلِقٌ يُضنيهِ القلقُ ويسحقُ أعصابَه.

الحقيقةُ التي عِشتُها وتعايشتُ معها، منذُ سنين حتى اليوم، كشفَتْ لي سرّاً عميقاً لطالما حَجَبْتُهُ خلفَ حقيقةِ ذاتي، وكنتُ دائماً أعضُّ على جرحي وأتمالَكُ نفسي مُكابِراً، وأقول:

هذا هو شكلي، وأنا راضٍ به، ومُقتَنِعٌ كلَّ الاقتناع.

وهذه هي أخلاقي، وأنا مُعتَزٌّ بها، وفخورٌ كلَّ الفخرِ.

وهذه هي نفسي، وأنا مُطمَئنٌّ إليها، ومُرتاحٌ كلَّ الارتياح.

ولكن، حينَ دعاني القدَرُ إلى مأدبةِ الحقيقة، على حافّةِ هذا الهيكل، شاهدتُ بأمِّ العينِ مظهري الحقيقيّ، وأخلاقي الحقيقيّة، وانكشَفَت لي نفسي كما هي على حقيقَتِها. وشعرتُ إذذاكَ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى البكاء على حقيقةِ ذاتي، لعلَّي أحرّرُ جوارحي، وأتحرَّرُ مِن الشعورِ بخيبةِ الأملِ التي استولَتْ عليّ. وبدلاً مِن أنْ أدفعَ الجزية دموعاً من مقلتيّ، جعلتني الحقيقةُ أدفعُها دمعاً أحمرَ ينزفُ مِن صدري، ويسرق منّي بسرعةٍ قياسيَّة ربيعَ العمرِ.

الحقيقةُ المُطلقة، يا أشنار، تُدمي أصحابها، ثمّ يأتي الكذبُ ليداوي ويُبلسم الجراح.

إنَّ أحبَّ ما عندَ الإنسانِ في الدنيا هو أن يكتشِفَ مَن يحبُّه، وكيف، ولماذا يحبُّه. وأن يكتشف، في المقابل أيضاً، مَن يكرهُه، وكيف، ولماذا يكرهُه.

الحقيقة، يا عزيزي، كالعلقم، بل هي العلقمُ مرارةً. إنَّها الشيءُ الوحيدُ الذي يجهدُ المرءُ ويشقى في التَّنقيبِ عنه وسَبرِ أغوارِه، وهي التي، إذا اكتشفَها، سُرعانَ ما يندمُ عليها، لأنَّها تجعلُهُ يرى نفسَهُ عارية، ويرى الناسَ عراة.

فلتُساعدني الآلهة على التخلّصِ مِن حقيقتي المؤلمة، ولتُعنّي على تحمّلِ الحقيقة المُطلقة. حقيقتي كانت دائماً تخدعُني. كانت دائماً تقودُني إلى سعادةٍ ظرفيَّة آنيَّةٍ بعيدةٍ كلَّ البُعدِ عن السعادة الحقيقيّة.

لطالما عشتُ بين الناسِ أعمى البصرِ والبصيرة. كانت تنطلي عليّ حقيقتُهم. وكنتُ أستمتعُ كلَّ الاستمتاعِ بالوَهم والتزويرِ والدجلِ والرّياء، وأطربُ كلَّ الطربِ بقصائد المديح، وبالكلامِ المعسولِ المنمَّقِ الجميل.

لم أكن أسمع ما يُقال عن وجهي الحقيقيّ، بل ما يُقالُ عن وجهي الآخر، ولم أكنْ أرى سِوى هذا الوجه.

ها أنذا اليومَ في حاضرةِ الحقيقة نازفُ الصدر، هرم، مُنهَك، والناس يمرّون مِن أمامي، وهيكلُ الحقيقة ينقلُ إليَّ كلَّ ما يُضمرون لي، ويقولون في سريرتهم عنّي، فأشعرُ بأنّي مُحتَقَرٌ ومُحطَّم، لأنّني أقلعتُ عن الكذب على نفسي وعلى الآخرين.

لقد أعليْنا، يا عزيزي، بِناءَ الكذب، وعَجَنَّا شخصيّاتِنا بطينِه، ورَصفْنا حجارتَهُ بعنايةٍ لحمايةِ مخلوقاتِه، ضمانِ إقامةٍ آمنةٍ في قِلاعِهِ المنيعة.

أوليسَ الأجدى بنا أن نهدمَ ما بَنَيناهُ ولو بتكلفَةٍ تبلغُ حدَّ التشوّهِ والقروح؟

أوليسَ الأجدى بنا أن نهدمَ ما بَنَيناهُ وننظرَ إلى داخلِنا، ونكتشفَ حقيقتنا نحن؟

قد نكتشفُ أننا في غاية الحقارة، نطرَبُ للأكاذيب الملفّقة، ونسعَدُ ونفرحُ بالدعايات الكاذبة، والشائعات المُغرِضة.

شعرَ أشنار بأنَّ عليه، بالرغمِ مِن التزامِهِ الإصغاء فقط، أن يخرجَ مِن جمودِه، ويقولَ شيئاً، قال:

– ما أمرَّ هذا الاكتشاف! وما أعظمَ خيبتي! وما أشدَّ أسفي، على كلِّ ثانيةٍ صرفتُها مِن رصيدِ عمري، بحثاً عمّا كنتُ أحسَبُهُ غايةَ الغايات، وقمَّةَ السعادةِ.

فهزَّ الملِكُ رأسَه، ونفخَ نَفخَتَين، وأردَف:

– صَدِّقني أنَّ هذا هو آلَمُ ما آلَمني، يا أشنار.

فأنا عندما ائتُمنتُ على هيكلِ الحقيقة، ووقفتُ أمامَها وَجهاً لوجه، انكشفَ لي الناسُ كلُّهم فَكَرهتُهُم، وكرهتُ نفسي، بل كرهتُ كلَّ شيء.

اكتشفتُ أنَّنا نكذبُ كما نتنفَّس، وأنَّ الذين أحبَبتُهم كانوا جميعاً مُخادعين مُراوغين مُرائين، وأنَّ الكذبَ والخداعَ كانا الجامعَ المُشترك بيني وبينهم. واكتشفتُ أيضاً أنَّني لم أحبَّ طوال حياتي أحَداً مِمَّن أحبّوني بشفافيةٍ وصدق كما واكتشفتُ أنَّني لم أُحبَّ يوماً أحداً.

كنتُ أُخدَعُ فأمحضُ حبّي المُتملّقين والذين يدغدغون مشاعري ليسَ غير.

اكتشفتُ، بوَجيز العِبارة، أنَّ الكاذبينَ المُخادعينَ هم أحبُّ الناسِ إلى الناسِ.

لهذا. طلبتُ البكاء، فأخذتُ أنزف.

الحقيقةُ المُطلقة، يا أشنار، حرقَتني، وأدمَتني، فبكيتُ مِنها وعليها في آن واحد.

صدِّقني، يا بنيّ. أنا لا أريدُ أن تدخلَ الحقيقةُ المُطلقة إلى بيتي، لأنها ستدمِّرُه، وتقوِّضُ أساساتِه، وتزلزلُ أركانَه.

أنا أريدُ التخلّصَ مِن كلِّ ما أرشَدني إليها.

كنتُ أظنُّ أنَّني سأحظى باحترامِ الناس، وأنَّ الناسَ سيحظون باحترامي عندما أكشفُ لهم حقيقتَهم وحقيقتي.

ولكنْ خابَ ظنّي.

انكشافُ حقيقتهم لي جعلَني أكرهُهم، وانكشافُ حقيقتي لهم جعَلَني أكرهُ نفسي لِشِدَّةِ هزئِهم بي، وبجراحي، وانهيالِهِم عليّ بالرَّجمِ والشَّتمِ والإهانة، ونَعتِهم لي بأقذَعِ النُّعوت.

لو بقيتُ مَخدوعاً، أي بعيداً عن هيكلِ الحقيقة، لَعِشتُ سعيداً، ولَوفَّرتُ على نفسي كلَّ هذا الألَم، وكلَّ هذه المعاناة.

الحقيقة، يا أشنار، جَعَلَتْني أشقى الأشقياء. جَعَلَتْني ألعنُ يومَ وِلادتي، وألعنُ ساعةَ وصولي إلى حاضرتِها.

لَكَم طلَبْتُ، يا عزيزي، في تلكَ الأيّام السّود، والليالي البيض، مِن الآلهة أن ترحمَني فأموت مرَّةً واحدةً، بَدلاً مِن أن أذوقَ الموتَ مرّاتٍ ومرّاتٍ كلَّ يوم!

ولا هدفَ لي بعدَ مخاضي الطويل هنا سِوى أن أدفنَ خيبَتي في أحضانِ زوجَتي الحبيبة.

وتَطلَّعَ إلى أشنار، مُتَكلِّفاً الابتسام، وتابَعَ على الوَتيرةِ عينِها:

– أوصيكَ، يا أشنار، بألّا تكشفَ حقيقتَكَ للناس. دَع الناسَ وشأنَهَم لئلّا يلعَنوك، ويضطهِدوك، ويصلبوك.

وأوصيكَ أيضاً بألّا تُكَلِّف نفسَكَ عناءَ اكتشافِ الحقيقة. فهي، وإن لم تقتلك، تجرُّ عليكَ ما جَرَّتْهُ عليَّ مِن آلامٍ مبرّحةٍ تُلازِمُكَ مدى الحياة.

فحذارِ بلوغَها، والتعايشَ معها. إنَّها حالٌ في مُنتهى الصّعوبة، تؤَدّي إلى قتلِكَ أو تدميرِك. وحذارِ مِن تفكيكِ رموزِها لئلاّ تَتَفَكَّك أنتَ.

فانتَفَضَ أشنار مُنغلِق القسمات، وقطعَ صمتَه، وسألَ مُستغرِباً:

– لماذا، يا مولاي، تحاولُ جاهِداً إبعادي عن الحقيقة؟!

فأجابَه بحزم:

– لا، يا أشنار. أنا لا أحاولُ أن أبعدَكَ عنها كما تتوهَّم، بل أحاولُ فقط أن أوضِحَها لكَ، وأُطلِعَكَ على مقتضيات حِفظِها. وما كنتُ لأُريكَ النواحي السلبيَّة، لو لم تَبدُ لي مُدرِكاً النواحي الإيجابيَّة. محاسنُ الحقيقةِ أنتَ تَعيها. لذلك أُريكَ وَجهَها الكامل كي تكتملَ الصورةُ في ذهنِك، وتتَّخذَ بنفسِكَ القرار.

وهنا كشفَ عن صدرِه المقَرَّح، فانتابَت أشنار قشعريرةٌ لاحَظَها الملِك، فنظرَ إليه بإشفاقٍ، وهزَّ كتفَيه، وقالَ:

– انظرْ إليّ، يا عزيزي، ثمَّ انظرْ مِن حولِك. وصمتَ قليلاً، وتابعَ بلهفةٍ وجدّية:

– لماذا لا تُمتِّعُ نفسَكَ بِما هو في مرمى عينَيك؟ بالغاباتِ الزاهية، والأشجارِ المتشابكة المتعانقة، والسحبِ البيضِ النقيَّة، والمدى السماويّ الرائع؟

لماذا لا يكون كلّ شيءٍ في متناولِك؟

دعْ صدرَكَ يستمتعْ بالهواءِ النقيّ، وعينَيك بالمشاهد الآسرة، وأذنَيك بصُداحِ الموسيقى الطبيعيَّة، ومسامَّك بشَرَهِ هذا العالم الشهيّ.

تمتَّع، يا أشنار، بذلك كلّه. فسيأتي يوم، وليسَ ببعيد، تبحثُ فيه في أحلامِك وذاكرتِك ومخيِّلتِك، عن هذا العالم محاولاً استرجاعه بكلِّ ما فيه من متعٍ للذوق، واللمس، والسمع، والشمّ، والبَصَر.

كان يمكن أن يقرأ أشنار مجَدَّداً في كلامِ الملِكِ دعوةً ماكرةً تحضُّه على العزوفِ عن طلبِ الحقيقة المُطلقة، أو ضرباً مِن ضروب الاحتيال عليه رغبةً في الاستئثارِ بها. ولكنَّ رؤيته، هذه المرَّة، لِصَدرِه، وقد بدا بندوبِه وقروحِه، كأنَّه تعرَّضَ لِما يُشبهُ الإشعاع القويّ المُحرِق، معطوفةً على رؤيتِه إيّاه، على الرغمِ مِن صغرِ سنِّه، مُتَجَعِّدَ الجلد، أبيضَ الشَعر، مُنهَكَ القوى، متهافتَ البُنية، أجابَتا عن تساؤلاتِه السابقة كلّها، وقطعتا شكوكَه باليقينِ مؤكِّدَتَين له فعلَ الحقيقة المُطلقة المُخيف.

وكادَ ينخَطِفُ سارِحاً في أفكارِه لو لم ينبِّهه الملِكُ قائلاً:

– ها أنتَ، يا بنيّ، وقد بتَّ تعرفُ كلَّ شيء، واقفٌ أمامَ باب الهيكل. فَمارِسْ، وأنتَ صاحبُ القرار، حقَّكَ في الاختيارِ بوعيٍ وإدراك. واعلَمْ إن كانت الحقيقة النسبيَّة تجرح فَوَهجُ الحقيقة المُطلقة قد يقتل.

تسمَّرَ أشنار إذذاك في مكانِه.

أطرَقَ مُفكِّراً. ثمَّ عاوَدَ فنظرَ إلى صدرِ الملِك تملأهُ ندوبٌ وجروحٌ وقروح.

ذُهِلَ، ارتَبَكَ، قَرِفَ وغَضِب. ثمَّ أطرَقَ مِن جديدٍ مُفكِّراً بكلِّ ما عاناهُ وكلِّ ما ضحّى به مِن أجلِ الوصولِ إلى هنا، إلى بابِ هيكلِ الحقيقة المُطلقة.

فكَّرَ بكلِّ ما سمعَ مِن فلاسفةِ الإغريق،

فكَّرَ بوالدَيهِ وبأهلِ مملكةِ بيبلوس،

فكَّرَ بالأمَلِ الذي يشكِّلُه عندَ كلِّ مَن عرَفَه،

فكَّرَ بكلامِ مَيْسا كيف كانت ترى أن لا حقيقةَ مِن غيرِ حبٍّ وأنَّ العقلَ لا يُدرِكُ الحقيقةَ المُطلقة إلّا عبرَ المحبَّة.

قرِفَ مِن هذه الحقيقة، إن كانت الحقيقة المُطلقة تذلُّ الجسدَ وتُضعِفُ الروح.

فكَّرَ ثمَّ نظرَ إلى الملِكِ المَهيبِ الواقفِ أمامهُ ويراهُ يُعاني ما يُعاني مِن وهجِ الحقيقة المُطلقة وقد أمضى حياةً في خِدمَتِها.

عاوَدَ فتذكَّرَ حديثَه مع الناسكِ الذي عزلَ نفسَه عن الدنيا، ورفضَ كلَّ الندوبِ التي ولَّدَتها به حياةُ المجتمع.

فكَّرَ وشعرَ فجأةً بحنانِ مَيْسا وشعرَ أيضاً بنظرةِ والدتِه وخيبةِ أمَلِ أبيه.

قَرِفَ مِن ذاتِه ومِن سيرةٍ تبحثُ عمّا يبدو أمامَه مستحيلاً.

فكَّرَ وقرَّرَ إنقاذَ ذاتِه، واختارَ موجوعاً بإرادةٍ حرَّة العودةَ إلى الحياة، لا التضحيةَ بها مِن أجلِ حقيقةٍ قاتلة.

ثمَّ شعرَ بخيبةِ أملٍ فخجلَ مِن خيارِه، لأنَّه اختارَ المُمكِن وتخاذَلَ أمامَ المستحيل.

أرادَ أن يسألَ الملك، ثمَّ أدركَ أنَّ الأسئلةَ لم تعدْ تفيد والأجوبة لن تشفي غليلاً.

الخاتمة

أدارَ ظهرَه خَجولاً لبابِ الهيكل، ودَّعَ المَلِك، ثمَّ امتطى جوادَه، وهو يردِّدُ بتمتمَة: **سيأتي مِن بَعدي ابنُ إنسانٍ يكونُ بذاتِه هو الحقيقةَ المُطلقة.**

وانطلقَ به جوادُه نحو الغرب مُخلِّفاً، دون أن يراها، الحقيقةَ المُطلقة وراءَه.

كان يرى الطريقَ إلى معبدِ أدونيس طويلة، وكان يتمنّى لو يستطيع أن يُحرِقَ الوقت، ويتمنَّى أن يَبعُدَ المدى بينه وبين هيكلِ الحقيقة.

خرجَ مِن الغابةِ المسحورة، وهو يتصوَّرُ مَيْسا التي لم تَغِبْ لحظةً عن بالِه.

شعورُ مَيْسا كان يُبَلسِمُ قرَفَه، ويُخَفّفُ مِن خَجَلِه تجاه نفسِه.

وكان بذاتِه يشكرُ لمَيْسا لأنَّها لم تدعْ أيَّ زاويةٍ في قلبِه لفتاةٍ أو امرأةٍ أخرى منافسةٍ لها في حبِّه.

كان الحوارُ الصامتُ بينه وبين مَيْسا موصولاً لا ينقطع. ويفكِّرُ برقَّةِ حركاتِها وحنانِ نظراتِها ووجهِها المُضيء، ويقولُ لِذاتِه: عندما سألتقيها مِن جديد، ستكونُ أجملَ ممّا كانت وسيشكِّلُ جسدُها بالنسبةِ إليَّ الهيكل، والشرائع، والمنهج، وحقيقةً مُطلقة تتراءَى إليّ عبرَ حبِّها.

وفي الوقتِ الذي كان أشنار يتَّجِهُ فيه نحو معبدِ أدونيس، كان مِلكُ حاضرةِ الحقيقة ينعطِفُ على زوجتِه مؤاسياً:

– لا يا حبيبتي. كِلانا أحبَّ أشنار على طريقتِه. أنتِ أحبَبتِه، فعامَلتِه، مُدرِكةً أنَّه الفارس المُنتظر، معاملةَ فارسٍ طاهر. وربَّما كنتِ تأملينَ أن يضطَلِعَ هو بدوري، ويتولّى عنّي حراسةَ الهيكل والاعتناء بالحقيقةِ المُطلقة. جلُّ همِّكِ كان إراحتي مِن عبءِ مهمَّتي، وربما أيضاً أملتِ شِفائي مِن دائي.

أجابَت الملكةُ بصوتٍ تملأهُ النغصةُ وشيءٌ مِن العَتب:

– إنَّما كان هو الفارسَ المُنتظر. هو الفارسُ الشجاعُ الطاهر، علِمَتْ ذلك الحقيقةُ المُطلقة بذاتِها وإلّا لما شقَّتْ له الغابةَ ولما شرَّعَتْ له أبوابَ الحاضرةِ.

– مَن كان مستحقّاً أو قادراً على اختيارِ المسار ولم يجرؤ، سوف يبدو دوماً هذا المسار أكبر وأعظم في عينيه. على الرغمِ مِن كلِّ ذلك كنتِ تَدفعينَه، ربّما عن غيرِ قصدٍ منكِ، نحو الحقيقةِ المُطلقة دَفعاً كما يسوقون الحملَ الوديعَ إلى الذبيحة.

الفارسُ المُنتظر ما كان ليكونَ شجاعاً وطاهراً بل ليكونَ وديعاً.